تَــسعَةَ وَ تسعْون بـابًـا

لِفَهم -لِحُب - دِفاعًـا

عَــــنْ الإِسْــــلام

الطبعة الأولى

٢٠٢٠ م ١٤٤١ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق.

تَسعَةَ وَتسعْون بابًا

لِفَهم - لِحُب

دِفاعًا عَنْ الإِسْلام

تأليف

محمد بن فوزي الجبالي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من حملتني في صغري وراعتني في كبري أمي...

وإلى من علمني أن ألازم الحق وأحب الخلق والدي...

وإلى من أسميته حبا في الإسلام، وأرجو من الله أن يجعله

من علماء الإسلام ابني إسلام...

وإلى أخويَّ موسى من والدي، وأخي في الإسلام أبو اليمان...

وإلى كل من أشرق وجهه لي مستبشراً وناصحاً

اهدي هذا الكتاب...

وأسال الله لنا ولهم حسن الثواب...

أبو إسلام

***

المقدمة

بسم الله..

والحمد لله.. حمدًا يليق بربنا عز في عليائه وتقدست أسمائه..

حمدًا يبلغ المنتهى في تعداده.. والكمال في ثنائه..

والبديع في مفرداته..

فعظيم قدره، وكمال علمه، وسعه رحمته، وعلو حكمته، لا يعلمها إلا هو سبحانه، فهو كما أثنى على نفسه تبارك اسمه وتعالى جده.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيد الخلق ونبي الحق، خير من وطئ الثرى، وهو النبي المصطفى والرسول المجتبى، فعليه أُنزِل القرآن، وأُمر بالبلاغ والبيان، فكشف الله بهِ الغمة، وعَرَفتْ الإسلام به الأمة.

فأجزه يا رب عنا خير الجزاء، وأعظم العطاء، واجعل برحمتك في الجنة لنا معه لقاء، وصلاةً على آل بيته الأطهار، وصحابته الأبرار، ومن تبعه من الأخيار، واجعلنا معهم يا عزيز يا غفار...

أما بعد:

تسعة وتسعون بابًا عنوان هذا الكتاب، وهو بعددها مداخل أردنا منها الدخول للإسلام فَهماً وحُباً ودفاعاً عنه، وإن كل باب كان قد تناول أمراً مختلفاً، وهو إما متعلقاً به لأنه من أُصوله وأَركانه، أو ما يكون فيه توضيح لنظرته ومفهومه لما يعالج الإنسان في درجات حياته وحال علاقاته.

وهناك أبوابٌ تناولت بيان بعض ما ظهر على الساحة من مستجدات ونُسبت للإسلام ظُلماً، فكان لا بد من بيانها والإشارة لخطرها.

وكتابنا هذا الذي كتبناه حبا في الله وتوفيقا منه وحبا في الإسلام ودفاعا عنه قد تناولناه في شرح مختصر، لكون القصد هو فَتحُ أبواب المدارك للقارئ، ليدخل في جمال عالم الإسلام ونور حكمته، ولْيَعْلَم شيئاً من أحكامه وبديع اتزانه.

وليُفهم ما يحاك حوله ويكاد ضده، ولو كان الشرح مستفيضا لاحتاجَ كل باب لكتاب أو أكثر، فبحر الإسلام لا ينضب مائه ولا تَفنى خيراته، لكننا أردنا كشف الطريق وإنارةَ الدرب للتعرف إلى الإسلام وجمال طرحه وعلو قدره وذلك قد ذقناه إيماناً وعايناه واقعاً.

ولحبنا للخير ودعوة لغيرنا وهذا مما استقيناه من الإسلام، أردنا أن يشترك معنا الآخرون فليس الإسلام محصورا على أحد بل هو منهاج الحياة لكل أحد وطريق السعادة في الدنيا والآخرة.

ولقد جعلناه تسعة وتسعون باباً، وقد يسأل سائل لما لمْ تتمها على المائة؟

وجوابي أني أردت أن أُشركَ القارئ بالأجر، وأُحفزَ أعمال الخير، فتركت لكَ أخي باب المائة لتكمله ولتخطه بيدك وتنشره، فتنال خيراً لغيرك، وأجراً من ربك، ولتعلمْ أخي الكريم أن أبواب الدخول للإسلام فهماً وحباً وجمالاً أكثر من أن تحصى فكل الإسلام خير وما شيءٌ منه إلا جمع الحكمة وأَوجدَ السعادة وكيف لا وقد رضيه الله سبحانه للعالمين...

هذا وإن من يقرأ هذا الكتاب ويتنقل بين الأبواب فسيرى اشتراكاً في كثير مفردات وتداخلاً في بعض المفاهيم وهذا أمر طبيعي، وله وجه شرعي، فكثيرٌ من الأبواب تُفتحُ مداركها على غيرها لاشتراكها معها في الأصل، ولالتقائها في بعض جماليات الحكمة في الإسلام، فالمنبع كله واحد والمشرِقُ للفهم والأحكام كذلك هو واحد.

واني لأضع بين أيديكم هذه الصفحات.. فما كان صائباً فمن الله، وما جانب فمن نفسي واستغفر الله عليه، فلا كمال إلا لله فنرجو منه القبول والتمكين، وان ينتفع بكتابنا هذا المسلمين ولمن أراد الحق وبحث عن الدين...

والحمد لله رب العالمين.

***

تمهيد

ما هو الإسلام

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله، ثم استقم» رواه مسلم.

وقال ﷺ «سيبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار» رواه البيهقي.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أَخبرني عن الإسلام، فقال: « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال : أخبرني عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال صدقت، فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من

السائل» قال: فأخبرني عن إماراتها، قال «أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان» ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» مسلم.

الإسلام لغةً من المصدر أسلمَ، ومأخوذة من مادة سَلَمَ وهي المعافاة والسلامة من كل عيب، وأيضاً من مادة سَلَمْ بمعنى الانقياد والتسليم، فيُفهم لغةً بأنه الاستسلام والخضوع والتسليم لله عز وجل والانقياد التام لأوامره.

واصطلاحاً وشرعاً له حالتان فإذا ذكر وحده غير مقترن بالإيمان فيراد منه الدين كله من الأقوال، والأفعال، والاعتقادات، ويدخل فيه الإيمان والإحسان والإسلام.

أما الحالة الثانية، إذا اقترن الإسلام بالإيمان سويةً، فيقصد بالإسلام أعمال الظاهر، ويقصد بالإيمان أعمال الباطن، والإسلام بفهمه العام هو توحيد الله سبحانه والانقياد لأمره في كل زمان، وهو دين جميع الأنبياء عليهم السلام، والخاص من الفهم هو ما نُعَرِّفه بالرسالةِ الخاتمة، والتي أُرسلت للعالمين، وبها نتبع نبيها ورسولها الأمي الأمين، محمد بن عبد الله عليه الصلاة والتسليم، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، والمُبلِغُ للدين، وهي الرسالة والدين الواجب العمل به حال نزوله ولا يُقبل سواه...

إن الإسلام دين رب العالمين، وطريق النجاة للأولين والآخرين، وهو خاتمُ الرسالات، وتشريع رب البريات، فيه تبيان كل شيء، ومقاصده الخير في أي شيء، علوه من علو مُنْزِله، وكماله من حكمة موجده، وهو يعلو ولا يعلى عليه، يؤخذ منه ولا يؤخذ عليه، وهو نور الهداية والحق المبين، والصراط المستقيم.

وهو شريعة ومنهاج، سعادةٌ في الدنيا وفوزٌ في الآخرة، كتابه القرآن كلام الرحمن، ومُبلغه محمدٌ رسول الله، النبي العدنان، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

وهو دين حياةٍ وآخرة، ما تمسك به أحد إلا حصَّل به خيرهما، وعرف به الإيمان، وأدرك الإحسان، وفاز برضا الرحمن، وبه يحاسب الله العباد بعد أن بَيَّنَ أمره، وأرسل نبيه، ولا حجة لمن علم بالإسلام ولم يدخل فيه، فنوره على البسيطة ساطع، ونجم نبيه

بالعلم لامع، والإسلام باقٍ كما أُنزل فلا يصيبه مصاب، ولا ترى فيه اضطراب، تعهده الله بحفظه، فلا يدٌ ستطاله، ولا قوةً ستناله، فهو الدين الحق، ويدعو إلى الحق، وعليه يُحاسب الخلق من الحق، فالحمد لله أن أكرمنا من فضله وجعلنا من أهله وذلك هو الفوز العظيم.

وكما قلنا فالإسلام دين الله وشريعته للعالمين، وقد كُلِّفَ به الناسُ أجمعين والجن معهم بالإتباع مأمورين، وهو منهج حياة وطريق النجاة، وله خمسة أركان يتم بها، أولها الشهادة بأَن لا إله إلا الله محمداً رسول الله، وهي باب الدخول ومفتاح الجنة وواجبٌ نطقها والعمل بمقتضاها وهناك الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج عند الاستطاعة، وتلك هي الأركان وأعمدة البنيان...

والإسلام أَعظم من أن يعرف بوريقات أو يوصف بكلمات، فجماله وكماله بلغ المكانة الأعظم والرتبة الأكرم، وكفى بنا علماً ويقيناً انه من الله العظيم الرحمن الرحيم، وقد رضيه ديناً للعالمين. وانه في الإسلام تستبينُ كيف تعبد ربك، وتؤدي فرضك ، وتعرف حقك، وحق من حولك، وتميزُ به الحلال من الحرام، وتأخذ منه الأحكام، وتستقي منه ما ترتقي بنفسك ويزدادُ حسناً فعلك، وكيف الصواب في أمرك، وحالك مع غيرك، وفيما كان بين يديك وعند غيرك، فالإسلام أحاط بالإنسان في كل شأنه، وذلك واضح في عظيم مقاصده وعلو محاسنه فقد رفع للإنسان قدره وأكرم منزلته ولم يرضى له إلا بأعلى القيم وأحسن الشيم وأكرم الأخلاق وأرقى الأذواق، والإسلام من كماله ان تناول كُل عملٍ ومقال بما يكون فيه خير المآل وأفضل الحال، فَخَطَّ سير الإنسان من قبل أن يولد حتى بعد وفاته مبيناً له أمره وحقوقه وواجباته، وماله وما عليه، فأي جمال على جمال هذا، وأي علو على علو، وأين يوجد مثل هذا التشريع وهذا الدين، فوَ الله أنك لا تجده إلا بالإسلام، والله على ذلك من الشاهدين...

***

الباب الأول المشرع هو الله سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى:١٣].

قال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ [المائدة:٤٨].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران:٨٥].

تبارك الله ربنا ورب كل شيء ومليكه، وإنَّ الكلمات لتتصاحبُ مع دمع الحبر والرجفات خوفاً ورجاءً واستحياءً من ربي، فمن أنا ومن غيري ليتكلم عن الله سبحانه ولا أجد أعظم ولا أجل مما وصف الله سبحانه به نفسه لأقوله، فكلمات البشر قاصِرةً في حق الله مهما من التعداد بلغت، ولن تؤدي حق البيان مهما علت وتجملت، ولو جُمعت حروفنا وجهودنا بأجمل ما عرفنا وعرف غيرنا لنكتبه، ما بلغنا في أمر وصفنا قدراً من كمال الله وعظمته، ومطلق قدرته، وسعة رحمته، وبديع حكمته، فهو الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء مالك المُلك عالم الغيب والشهادة محيطٌ بالخلق على عددهم عالمٌ سرهم وجهرهم يسمع دعائهم ويعلم نجواهم إليه الأمر كُله مُبْدِأُ الخلق وموجدهم، وبلا عناءٍ يرزقهم ومتى شاء للحساب يجمعهم، ليس كمثله شيء، ولا شبيه له ولا ند، ومهما عظَّمْتَهُ سُبحانه في ذاتك فهو سبحانه أعظم من ذلك، ومهما تخيلته فهو خلاف ذلك، لا تدركه الأبصار و لا تجري عليه الأقدار، وهو العزيز الغفار المنتقم الجبار، عز في علياءه، له الأسماء الحسنى والصفات العُلى، وحق له سبحانه أن يُعبد فهو الواحد

الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد وليس له كفواً أحد، بلغ من الكمال سبحانه ما تعجز العقول عن إدراكه لحسنه الذي لا يصل إليه أحد ولن يبلغه أحد،

فسبحانه قد بلغَ من الجلال والكمال والجمال منتهاه فسبحان الله والحمدُ الله ولا إله إلا الله والله أكبر...

وقد ارتأينا أن يكون هذا بابُنا الأول وهو أن المشرِّعَ هو اللهُ سبحانه لأنه الباب الأحق الذي يكفي الخلق للولوج وسلوك طريق الحب للدين وإتباع الحق فهذا الباب مرتبطٌ بكل بابٍ سيأتينا لأن أصل التشريع وموجده واحد، والكمالُ مع الأصل ملازم، وظاهر ذلك في التطبيق والسعادة في الدنيا والفوز في الآخرة مع إعمال الدين لحقيق، وان كون الإسلام من الله سبحانه فهنا ارتباط بقضيتين، الأولى قضية التوحيد لأن الإيمان به تصديقاً واعتقاداً عملياً، وامتثالاً بأحكامه وشرائعه لهو تنفيذٌ لأمر الإيجاد والخلق والإقرار بالتسليم والوحدانية لله سبحانه، والقضية الثانية هي كمال صحة كل ما ورد في الإسلام في كافة شأنه وما تناول من أحكام وتشريعات وتوجيهات وأوامر ونواهي فكماله من كمال موجده الخالق العليم الحكيم المحيط.... وبأمر الله وتيسيره وإعانته سنجد في كل بابٍ سيأتي ما يدخلُ في إتمام بابنا الأول فهماً وتبيناً....

***

الباب الثاني المبلغ هو رسول الله محمد ﷺ

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب:٤٠].

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة:١٥١].

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء:٨٠].

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:٩٢].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم:٤].

إنَّ رسولنا ونبينا عليه أفضلُ الصلاة وأتم التسليم هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربي الهاشمي من قريش من بني إسماعيل من إبراهيم عليهم السلام أعلى الخلقِ كمالاً، وأفصحهم لساناً، وأجملهم بياناً، وأعلمهم بالحق وأعبدهم للحق، وأعلاهم إيماناً، خير من وطئ الثرى وهو النبي المصطفى والرسول المجتبى، بلغَ سدرةَ المنتهى والدرجات العُلى كَلَّمَهُ الله سبحانه تكليماً وزاده ربنا من فضله تعظيماً وتشريفاً كان خُلقه القرآن وكلامه جوامع البيان ما ينطق عن الهوى علَّمه شديد القوى، وهو الرحمةُ المهداة والنعمة المُسداة وبه كشف الله الغمة، ونُصحت الأمة، كان أمياً وذلك له إعجاز ولكنه معلم البشرية أحب الخلق إلى الله وأعظمهم له عبادة، وأَحب الخلق إلى القلب وحبه عبادة، رحيم على أمته ورفيقٌ بهم وزيادة، تقي القلب مليء بالإيمان جميل الشكل كثير الإحسان، جمع من المحاسن كلها ومن الأخلاق خيرها، إن رأيته أحببته وإن سمعتَ عنهُ تمنيتَ لو رأيته، له من الخصائص والصفات ما لم تكن لغيره وأيده الله بالمعجزات، بأمته تكريماً يبدأ الحساب وله عليه السلام تفتح الأبواب فهو أول من

يدخل الجنة والشفيع للأمة، الصلاةُ عليه عبادة وإتباع أمره لله طاعة ، فيه الخيرُ كله وهو دالٌ على الخيرِ كله أرقُ الناس طبعاً وأخيرهم صنعاً وأعلمهم شرعاً، بشر كباقي البشر لكنه سيدهم وأتقاهم والى الله أقربهم، أثنى عليه الله سبحانه وقربه، و بمحبته وبالمغفرة أكرمه، نور أضاء الله سبحانه به البشرية بالرسالة و عنواناً للهداية وجعله خاتمَ النبيين وإمام الأنبياء والمرسلين فالصلاةُ عليه وأتم التسليم صلاةً تملئ ما بين الأرض والسماء واجزه يا رب عنا خير الجزاء، واجعلنا اللّهم على طريقه سائرين ولأمره عاملين ولسنته متبعين راجين بذلك رضاك وإطاعةُ أمرك ،ونتقرب ربنا بحب نبيك والصلاة عليه فاللَّهُمَّ صلِ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم انك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم انك حميد مجيد...

وإن من جمالات الإسلام وعلو قدره وأسباب محبته نبيهُ ومبلغه ﷺ فهو مرسلٌ من الله سبحانه رحمةً للعالمين ومبلغاً للدين وقدوةٌ للمسلمين فهو عليه الصلاةُ والتسليم بسيرته العطرة إمام العابدين ونبراس المتقين عاش بين الناس فكانوا قبل الإسلام يحبونه ويكرمونه، وبالأمانة والصدق يصفونه، وبعد الإسلام أحبه المسلمون حباً زاد عن حب النفس والولد ،لأن حبه من الدين وتقرب إلى رب العالمين فقد رأوا فيه القرآن خُلقاً وتطبيقاً والجمالَ خَلقاً وتصديقاً وعلموا منه وبه أمر الإسلام وكماله وشرائعه وأحكامه وعدله وإحسانه وحلاله وحرامه وعلموا منه ﷺ كيف يعبدوا ربهم وتكون الخيرةُ في أعمالهم وتصدق نياتهم وتعلوا بالإسلام أنفسهم وعرفوا به ﷺ معنى الإسلام وأهمية دعوته فاتبعوا خطاه، وانتهجوا أمره وحملوا راية التبليغ بعده فمنبع الدعوة هو عليه الصلاةُ والسلام، فأخذوا من روافده ونقلوها للناس وبلغوا ما وصلهم وذلك دوامٌ في الخيرية مع إسلامهم فهم أمته وحاملين راية الإسلام ومشعل الهداية والحق على طريقته، وإن رسولنا عليه الصلاة والسلام لباقٍ فينا كمسلمين فهو مستقر بالمحبة في قلوبنا وبالذكر والصلاةِ عليه في صلاتنا وحيٌ في تطبيق سنته في أعمالنا

وأقوالنا، فحبه عليه الصلاةُ والسلام من الإيمان وجنابهُ مصان، وأُمَّتهُ من الإنس والجان، ليرجون من الله أَن يلتقوا معه عند الحوض وان تنالهم شفاعته وبرحمة الله أن يجتمعوا معه في الجنان عند الكريم المنان الرحيم الرحمن ...فذلك رسول الله أجمل خلق الله وأحبهم إليه فالصلاة والسلام الأَتمان الأكملان عليه...

***

الباب الثالث الإسلام ومفهومه للدين

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران:١٩].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

إن الدين بالمفهوم الإسلامي هو الانقيادُ والخضوع والتسليم لله الواحد الأحد الخالق الصمد الذي لا ند له ولا ولد، مع الإيمان والتصديق الملازم بالعمل بشريعة الله ومنهجه الكريم...

إن الدين هو إيمان قلبي و امتثال عملي من طرف المخلوق إلى الخالق الذي جعله سبحانه شريعةً للعالمين وارتضاه لخلقه أجمعين فرضاهُ جلَ في علاه تمامٌ في التوجيه والإرشاد وإكمالٌ للتكريم والإيجاد وعلو ليس بعده شيء، وهو إحاطةٌ من الخالق لمخلوقيه لما فيه خيرهم وقبول أعمالهم فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته، وسخر لهم الدنيا ويسر لهم عيشهم وجعلهم خلفاء في الأرض، ومن كريم أمره وحكمه علمه أن بين لهم أمرهم ودلهم كيف يعبدوه فجعل لهم الدين طريق الوصول والصراط المستقيم وأيده بالمصطفين من عباده من أنبياء ومرسلين فكانوا له دالين ولشرعه معرفين وللحق موجهين.

وجعل ربنا في الدين ما فيه صلاحُ أمرهم وتنظيم حياتهم وسعادة معاشِهم فتناول كُلَّ شأن وحال وجعله في ميزان الحق والاعتدال فلبى ما يحتاجه العبد كروحٍ وجسد فبين له أمره وطمأن له قلبه بما وافق فطرته على أصل خلقته وراعى –أيضاً– حاله مع غيره فنظم ذلك كله بكمال التنظيم وخيرية التناول ورُقي التداول فالخالق سبحانه أَعلمُ بمن خلق وأعلم بهم من أَنفسهم فهو العالم بشؤونهم المقدِرُ لأرزاقِهم الرحمن بهم...

وإن الدين كقوةٍ إيمانيه كامنةٌ في النفس هي محركٌ للعمل وبحثٌ عن القرب بما يُحبه الله ووازع للامتثال ودليلٌ على الإقبال.

ففي الدين من التزام بالشرائع والأحكام تزكية للنفس ورقيٌ في السلوك وعلوٌ في الروح واستشعارٌ بالمحبة وتوافقٌ للفطرة، وإن الدين كالضوء للنبات لا يعيش بدونه مع أن جذوره ممتدة لكن لا تكتمل دورة الحياة إلا به فتراه يميل حيث الضوء وكيف لا وفيه تتم حياته، وكذلك الإنسان فشمس الدين له حياة، أضاءت له كل شيء فتراه مستنيراً بنورها مدركاً مبصراً لأحواله، كل شيء له ظاهر ونفعها قائم.

ومن غيَّب شمس الدين عن حياته فذاك ممن تخبط في العتمة ولم يميز بين الحق والباطل فذهب بصره وعمي قلبه ،وإن اعتقد أن نوراً من صُنْعِهِ سيكفيه وعن الدين سَيُغنيه ألم يَعْلَمْ أن له طاقةً سوف يوماً تخذله ألم يدرك أن الكمال لا يأتي من مخلوقٍ ضعيف لا بد يوماً أن الموت زائره ألم يكن له عبرةٌ فيمن سبق ألم يَرَ غياب عقله في جُلِ أمره فكيف في أمر غيرِهِ، فسبحان الله العظيم يأبى البعضُ إلا الظلمة، ومن عدله سبحانه أن يُحشرَ مثلُ هؤلاء عمياناً فيَسألون لمَ أصبحنا كذلك؛ فذلك لأنهم رأوا آيات الله فأعرضوا عنها وأَعموا قلوبَهُمْ...

ونضيف مما استوعبته قلوبنا بالإيمان ومما تكرم علينا به الرحمن بأن الدين هو الإجابة لسؤال الاختبار وذلك مبلغُ الرحمة وعدل الحكمة في الإيجاد فالكريم أعطانا إجابة لكل سؤال وتقويماً لكل حال، سخر لنا في البدءِ كلَّ شيء وأكرمنا فوق الخلق ووهب لنا العقل وبيَّن لنا ماهية الاختبار ووعد بجنةٍ وتوعد بنار وترك لنا سبحانه بعدله الاختيار...

فالدين أمره واضحٌ جلي، فيه النجاة والمرور من الاختبار، وهو تقويمٌ للاختيار، من سَلكَ نهجهُ بالعمل وآمن قلبه كان في خير وعلى خير، في خيرٍ في الدنيا لأنه على طريق الهدى وأمره في نفسه وحاله مع غيره في خيرية متداولة وتحصيلٍ أعلى وسعادةٍ وطمأنينةٍ ظاهرة، أما على خير فما مآل ذلك إلّا من ذلك فهو في الدنيا في طاعة الله وفي

الآخرةِ في رحمة الله وكانت له الجنة، فالجنة لمن آمن بالله رباً وبالإسلام دينا و رضي من كان له رسولاً أو نبياً صلوات الله عليهم أجمعين وعلى نبينا خاتمهم وخير من وطئ الثرى من العالمين...

***

الباب الرابع الإسلام والقرآن الكريم

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

القرآن هو كلام الله سبحانه المنزَّل على محمد عليه الصلاة والسلام بواسطة الوحي جبريل، المتعبد بتلاوته، المعجز بلفظه ومعناه، المنقول بالتواتر، المبدوء بالفاتحة المختوم بالناس.

إن القرآن الكريم كلام الله فبذلك نؤمن ونصدق وهو عند من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله بحقها صحيحٌ وثابتٌ لا شك فيه ولا ريب ولا زيادة فيه ولا نقص يعتريه، وإن القرآن في الإسلام هو الأصل الأول للتشريع وهو كتاب المسلمين ورمز الدين ومنهاج رب العالمين الذي فُرِضَ على المسلمين وبه وجب الإتباع، وما مَسَهُ غلطٌ ولا ابتداع، تواتر نقله جيلاً فجيل فكما أنزلَ على قلب رسولنا الكريم بقي وسيبقى إلى يوم الدين ...

والقرآن كتاب عظيم مُحكمٌ آياته، ميسرٌ للذكر فهو كتاب هداية ونور، وفيه خبر من كان قبلنا ونبأ ما يكون بعدنا وهو الفصل والصراط المستقيم وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم من قال به صدق ومن عمل فيه نجا وأُجر ومن حكم به عدل، أورثه الله لمن اصطفى من العباد...

إنَّ القرآن الكريم قد جاء شاملاً لأصول الهداية، وهو منهاج الله لعباده المؤمنين ، وهو رسالة الرشد والهداية للناس أجمعين، فيه الفلاح والنجاح واحتوى بشموليته مجالات الحياة كافة فهو مُصلحٌ لكل زمان ومكان معجز في نزوله، وإعجازه ممتد بامتداد الزمان وتغير المكان وليس أعلم به من الله فهو كلام الله عز في علياءه...

وإن الإسلام يريد تحقيق السعادة للجميع في الدارين الآخرة والدنيا وكان كتاب الإسلام الأوحد المنزل من عند الله كتاباً لأَصل الإسلام وموضحاً لأحكامه شاملاً كاملاً مخاطباً العقل والقلب والروح، آخر الكتب السماوية من عند الله سبحانه وتعالى وبه أؤمر الجميعُ بإتباعه ولم يصبه ما أصاب الكتب السابقة من تحريف فقد تعهد الله

بحفظه، وعلى ما ورد فيه يحاسب الخلق بعد نزوله فمن آمن وصدق بما احتواه وأطاع ربه فقد نجا ومن كابر وأَبى فقد خسر وغوى.

فالإسلام دين الله والقرآن كلام الله ومحمد ﷺ رسول الله فنطيع الله بما قال سبحانه وما ارتضى لنا من دين وكما علمنا رسولنا الأمين...

***

الباب الخامس الإسلام والسنة النبوية

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الشورى:٧]

السُّنة لغةً: هي الطريق، السبيل، المنهج.

أما السُّنة في المفهوم الإسلامي فهي ما ورد عن النبي محمد ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ومنها يأخذ الاستدلال الشرعي.

والسنة ليست نطقٌ عن هوى فالرسول الكريم أدبه ربه وعلمه جبريل عليه السلام...

إن الإسلام دين الله وهو خاتم الرسالات وإن مصدر تشريعه الأول هو القرآن الكريم، وقد لازم ذلك دور الرسول متمثلاً بسنته عليه الصلاة والسلام بأن كانت هي المصدر الثاني للتشريع والتي بها يُحكَّمْ القرآن ويفهم.

فالسنة الصحيحة أيضاً تتمة للمنهج وحجة شرعية أصيلة من أصول الدين ولها مكانةٌ عظيمة ومنزلةٌ كريمة ومن سنة النبي ﷺ وعلى امتداد سيرته العطرة تأخذ الأمة أمر دينها وأحكام دنياها.

وإن إتباع ما صح عن الرسول ﷺ من مقتضى إتباع الإسلام فالسُّنة جزأ لا يتجزأ من الدين.

وإن الرسول الكريم كان ولا يزال قدوةً للمسلمين وقد أخذوا عنه أمر رب العالمين فعرفوا كيف يعبدون ربهم لأنه نور الدِلالة ودليل الهداية وعنوان الامتثال ومع كون السُّنة في الإسلام مفسرةً للقرآن شارحةً لأحكامه وأُنموذجاً عملياً للعبادةً وفق ما أراد الله وأمر فتأتي -أيضاً-بأحكام شرعية ما ذكرت تفاصيلها في القرآن الكريم، فهي كما قلنا متممة للمنهج مؤدية لكمال العمل والعلم عن الدين وأحكامه...

وفي الحث على إتباع السُّنة والعمل بأمر رسول الله ﷺ في القرآن الكريم دليل على أهميتها وعِظَّم دورها فلا فصل بين القرآن والسُّنة لدى المسلم، ومن تاهت به نفسه ونأى عن السنة واعتمد على القرآن وحده فهذا قد عصى الله سبحانه، فبأمر الله جل في علاه وجب طاعة النبي والانقياد لأمره.

فالسنة هي مثالٌ حي للعبادة الصحيحة بلا ابتداع وفيها نعاينُ أَعلى الإِتباع، فرسول الله ﷺ بعمله وعصمته ومنزلته وعلمه ترى صورة الإسلام وجمال حاله وكمال أحكامه وعلو شأنه، والامتثالُ بالسنة هو أخذ الطابع الشرعي الصحيح والطابع العملي والسلوكي الأمثل والأكمل أخلاقياً والمطابق لأمر الله وشرعه والتي يتحصَّل بها على رضا الله وتطبيق شرعه...

***

الباب السادس الإسلام والتوحيد

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣].

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨].

التوحيد لغة: هو الإفراد أي غير قابل للتعدد، ووفق المفهوم الشرعي هو ضد الشرك بإفراد الله سبحانه في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وإن التوحيد في الإسلام هو الأصل الأول، وركيزته الأولى في الاعتقاد والدين، والتوحيد أول ركن من أركان الإسلام وهو باب الولوج إلى الإيمان والإسلام، فشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله هي شهادةٌ يحملها كل مسلم، والتوحيد أساسهُ معرفة الله عز وجل وأول خطوة في طريق عبادته وهي هدف جميع الأنبياء عليهم السلام وأصل دعوتهم.

إن الإسلام هو دين التوحيد الكامل وان الأمة الإسلامية تميزت بأنها أمة التوحيد دوناً عن سائر الأمم التي خرجت عن الأصل وما خُلقت لأجله وهو عباده الله وحده فمنهم من أنكر ذلك لهوى في نفسه وقصور عقل أهلكه، ومنهم من أشرك بأن جعل مع الله الواحد الأحد الفرد الصمد آلهةً أخرى فاعتقد فيها صفات لا تصح إلا لله وحده فضلَ وحبط عمله.

والتوحيد في الإسلام أمر ملازم لكل شأن ولكل عمل يقوم به الإنسان فهو الأصل للقبول، فوجب توحيد الله بأعماله التي اختص بها ووجب التوحيد بأَعمال الخلق التي يُقصد بها وجه الله سبحانه وتعالى.

ولما كانت الحاجة إلى التوحيد أَعظمْ، فقد مَنَّ الله على عباده بتيسير سبل معرفته والوصول إليه كما أمر ربنا فالقرآن كله توحيد شاهداً به وداعياً إليه وما كانت دعوة من أرسلهم الله سبحانه وتعالى بتبليغ رسالته إلّا قائمةً على التوحيد، وذلك بالدعوة إلى

عبادة الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا تقبل الأعمال على كثرتها أو مظنة صلاحها ما لم تكن خالصة لوجه الله..

فالكون كله خلقاً وتدبيراً يشهد بوحدانية الله وكفى بالله شهيداً على ذلك بأن شهد لنفسه بالوحدانية عز وجل في علياءه.

وإنك لترى بحقٍ الإسلام كاملاً شاملاً، فكمالُهُ من كمال مشرعه الحكيم العليم وإنَّ التوحيد إضافةً إلى انه حق لا شك فيه فأيضا لهو الثبات للعابد في قلبه وعقله وروحه لعلمه ويقينه الملازم لكل عمل يقوم به أنه لخالقه الواحد الأحد وأنه بذلك الثبات والتوحيد علم سبب وجوده وأيقن أن الأمر بالقبول والثناء والحساب يعود لله وحده، وأن الأمر من الله لا يشاركه شيء معه فاستقرت نفسه وعلت روحه وأخلصت أعماله لربه كما أراد وأمر.

***

الباب السابع مفهوم الإيمان في الإسلام

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النساء:١٧٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ [الحجرات:١٥].

الإيمان من الأمن أي الطمأنينة وهو ضد الخوف ويأتي الإيمان بمعنى التصديق والإقرار، وفي المفهوم الإسلامي فالإيمان هو التصديق والإقرار الجازم بوجود الله سبحانه وتعالى وما له سبحانه من أسماء حسنى وصفات عُلى ويلزم مع الإيمان بالله جل في علاه توحيده بربوبيته والوهيته وأسماءه وصفاته...

وللإيمان أركان بني عليها وهي معلومة في الإسلام ،والتصديق مع العمل بها واجب على كل مسلم فلا يصح إيمان عبد خلى من إحدى هذه الأركان بعد الإيمان بالله جل في علاه وهي الإيمان بالملائكة وهم خلقٌ من نور ومكرمون لا يعصون الله ويفعلون ما يؤمرون، وهناك الإيمان بالكتب السماوية وهي كل ما أنزل على رُسل الله عليهم الصلاة والسلام وكان آخرها وهو ما وجب إتباعه والعمل به القرآن الكريم وليس بعده من شيء ولن يصيبه شيء ،وهناك الإيمان بالأنبياء والرسل وهم صفوة العباد ممن اختارهم الله سبحانه وتعالى واصطفاهم لحمل رسالته وتبليغ أمره وكلٌ أُرسلَ لقوم معين في زمان معين إلا خاتمة الرسالات ونبيها محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات فقد كان رحمة للعالمين وعلى رسالته وجب الإتباع وعليها فقط يتم القبول فلا يصح غيرها بعد أن أمر الله بها ويكفي قول ربنا الذي رضيها وأوجدها

وأوجد من قبلها انه قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

وهناك أيضاً الإيمان باليوم الآخر وهو ما يكون بعد الموت من أحوال القبر والبعث والنشور ووقوف الخلائق للحساب ويكون فيها عقاب بالنار أو ثواب بالجنة أو ما يأمر به العزيز الجبار، وآخر الإيمان أركاناً وهي ستة، الإيمان بالقضاء والقدر، فكل أمرٍ بقضاء الله وقدره ولا راد لأمره يفعل سبحانه ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل والخلق يُسألون...

واعتقاد المسلم بوحدانية الله مؤمناً بها في قلبه قائلاً بها بلسانه وعاملاً بها بجوارحه هو مقتضى الإيمان فإيمان القلب هو العقيدة والتصديق المحرك لامتثال الجوارح بالفعل، والإيمان هو منبع الفعل بالعمل وفق المراد والأمر الإلهي.

وهو دائرة الإحاطة بالمسلم في أمره كله وإن تلك الدائرة التعبدية الدائمة هي الأصل الواجب على المسلم أن يبقى فيها من خلال استشعارها والعمل بمقتضاها.

وتلك الهيئة الملازمة لحال المؤمن أمر أصيل في اعتباره من أهل الإيمان والإسلام فإيمانه هو الامتثال الأول لأمر الله سبحانه في إيجاده وهو العبادة والتوحيد و هو الطاقة المحركة لحركة حياته ضمن منهج الرسالة الربانية التي رضيها الله لعباده فهي ثباتٌ للمسلم في أمره من ناحية وجوده فيجد لذلك الإيمان والتصديق فعاليةً في الامتثال وإدراكاً لعله خلقه وإيجاده وبيان أمره في حياته وبعد موته فيكون في طمأنينة دائمة أنه يسير على الطريق الذي أُمر به أن يسلكه والمنهج الذي أريد منه أن يتبعه ويكون مطمئناً أنه في نهاية ذلك الطريق وذلك الإتباع والتسليم أن يجد ما وعده به خالقه ،فيكون بذلك كمالُ الأمر وعدالة التوجيه لما فيه الخير والفلاح. وهناك الناحية العملية في التنفيذ والعمل بكل ما جادت به الشريعة فملازمة الإيمان مع العمل دليل على التصديق والامتثال وفق مطلوب الإخلاص وزيادة التفاني في ذلك هو زيادة في الإيمان والعلو في الدرجة وان مشارب الإيمان تأتي كلها من باب ما يرضي الله سبحانه وتعالى ،

ومن أبواب الزيادة في الإيمان أيضاً رؤية حسن تدبير الخالق لأمر خلقه وكمال أمره مع اصطحاب الإيمان بغيبه والرضا بقدره، وأنك لتجد جمالاً على جمال بمجاورة أهل التقوى والإيمان فاجتماع تلك القلوب المنيرة بالمحبة والإذعان للواحد الديان على مراد الرحمن هو تآزر وتكامل في الإسلام بمجتمعه وحال أفراده وتلك علاقةُ و قرابةٍ قلبية أصلها محبة الله والتسليم له و التي توجد تلك المشاركة والتوحد العام ...

***

الباب الثامن ما هي الحقيقة أيها المخلوق

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان٣].

قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:٦٤].

قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان:١١].

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل:١٧].

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

بدايةً فالكل يعرف إن الحقيقة هي أن يتطابق حال الأمر مع أصله ويَدخُل تحت ذلك وصفه أو بيانه، أو هي اليقين من ثبوت الشيء مع واقعه...

ولذلك لا بد أن يكون هناك مقياس يُرجع فيه للتثبت من ذلك والاعتماد عليه، والإنسان في تعامله لإقرار الحقيقة في نفسه لأي شيء يضع الموازيين والأسس التي يعتمد عليها في الميل بالجزم في صحة أمره، والتماثل في الفعل والاعتقاد مع الأصل، والسؤال الأكمل للاعتماد والذي يطرح هنا، من أين أتت تلك الأسس وذلك المقياس الأمثل للقياس عليه؟ فلو قيل أنَّ التجربة بتكرارها على امتداد الزمان وتنقيح العمل بالعقل وعلو النفعية. فهل يصح ذلك؟

وهل يصح اعتماد الملكات الفردية والموارد الذهنية والتوافق الجماعي كمقياس؟

وهنا نطرح تتمة سؤالنا وعلى شقين، الأول: لماذا لم يُستوعب الأمر كله بالنسبة لكَ أيها الإنسان؟ وكم حجم ما علمت نسبةً إلى ما جهلت؟

والشق الثاني: إن الذي اعتقدت أنك توصلت إِليه من الذي أثبته، ومن الذي أوجده أصلاً وهل لك قدرةً مع العلم؟

وهنا نستطيع أن ندخل إلى مضمون استيعاب الحقيقة في الإيجاد وفهم الأمر فهماً تدبرياً عقلياً، واعتقاداً إيمانيا.

فأما الشق الأول: وهو لماذا لم يُستوعب الأمر على كليته مع هذا الكم من التجارب والممارسة الحياتية مع التعداد للعقول المتناولة له فالجواب أنَّ الكُلية في النتائج والعِلم لا يستطيع أن يتحصَّل أو يحصُل عليها المخلوق لمحدودية قدراته ولغياب جُلِ الجوانب عنه والتي غابت بحكمةٍ عنه وتعدت قدرته على استيعابها والتي تُثبت في ذاتها وحجمها أنها من طرفٍ لا يستطيع المخلوق أن يكون له دور فيها أو أن يتحكم بأمرها أو يجري عليها تعديلاً في حالها أصلاً أو امتداداً لأصل، فعجزه كمخلوقٍ في إدراكها دوناً على أن يؤثر بشيء أو يغير أولى أن يفهم منها أنها ليست مما يُعتمَدُ فيها عليه وان الذي عنده ذلك العلم وتلك القدرة لإيجاد الأصل وتغييره ليس مخلوقاً بل خالقاً وان العلم والقدرة لديه كاملين وتلك هي الحقيقة، فالأصول كلها على كمال إتقانها وبديع صنعها وجمال أمرها وحُسن مآلها كُلها من خلق الله سبحانه وبأمره وما تفرع عنها فهذا امتداد لذلك الأصل وجزء من إيجاده مع التنبيه هنا بالإرادة الشرعية والإرادة الكونية للخالق سبحانه في الامتداد والتعامل مع الأصل بالنسبة للمخلوق وهذا جواب للشق الثاني ،ونضيف فهماً، إلى أنَّ تلك العملية في حركة الحياة بكافة اشتقاقاتها إنما نبتت ثمارها بما توفر إِليها من أرض ومعطيات كثيرة ونستطيع هنا أن نفهم معنى الإيجاد وأمر الاستخلاف فالإيجاد أصلاً وإبداعا وكمالاً قد رافقته تلك التهيئة المناسبة لأداء دور الاستخلاف وان هذا النظم البديع وهذا التسلسل الكامل لتعجز الإنسانية جمعاء عن إدراكه وحصر ماهيته إلا قليلاً وما هذا القليل إِلا عطاءُ من الخالق سبحانه مصداقاً

لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء:٨٥]، فكيف تكون شمس الحقيقة ساطعة أكثر من هذا ليفهم أن وراء كل ذلك قدرة لا يستوعبها البشر ولا الخلق أجمعين وأن هذا من صنع رب العالمين ولا منكر لذلك إلا جاحدٌ أَنكر كبراً وإعراضاً فأغلق قلبه وأعمى بَصره وبصيرته، أو من حكَّمَ عقله وقلد غيره فوجهه شيطانه وهواه فتاهَ في تخبطاتٍ أوجدها لنفسه يبرر بها ضعفه وقلة حيلته ويُحيط بها نفسه ولو كان منصفاً صادقاً كل من أعرضَ عن الحقيقة لأدرك بقلبه وعقله وفطرته انه جزء من هذا العالم الذي خُلق لغاية مُثلى وهدفٍ هو الأسمى وهي عبادة الله سبحانه وتوحيده ومعرفة صفاته.

وأن الذي خلق ذلك وأوجده له القدرة المطلقة والحكمة البالغة ووجب بذلك التصديق والإيمان والامتثال.

***

الباب التاسع الإسلام ودلائل الحق

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

إن الأصل في الرسالات السماوية جميعها هو الإسلام بمفهومه العام وإنه الدين الحق منذ سيدنا آدم إلى قيام الساعة والإسلام هو السلام المكتسب من إخضاع الإرادة لله سبحانه وتعالى وكان آخر صورةٍ للرسالات وعليه وجب الإتباع كما أخبر رَبُ البريات فأُرسل للعالمين وبلغه رسوله الأمين محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين وآخر المرسلين..

وتالياً دلائل على صحة الإسلام وأنه الحق، وذلك فيضٌ من غيض من بحر الدلائل وكمال اليقين والنور المبين لما بين أيدينا من الدين ، ونوردها كنقاطٍ مستنيرة من فهم الإسلام وشرع الرحمن...

* الإسلام يدعونا إلى إفراد الله بالعبادة وتحريم الشرك وهذا أساس كل دعوة لجميع الأنبياء والرسل.

* الإسلام خاتمة الرسالات ووجوباً لمن آمن برسالة سماوية أن يؤمن بالجميع فهي من مشكاة واحدة ويأخذ بأمر مشرعها الواحد فيما أمر بالأخذ قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

* مصادر التشريع للإسلام مُوحى بها من عند الله وقد تعهد الله بحفظ دينه، والمصادر إما من كتاب الله وهو القرآن الذي لا نقصٌ يعتريه ولا زيادة ستوجد فيه، وإما من سنة رسوله الأمين والتي لازمها صدقٌ في النقل وتواتر في الجمع...

* عدالة النقل لتعاليم الإسلام وأحكامه وتشريعاته بنظام بديع ليس له نظير في تاريخ البشرية فيما قام به أتباع الإسلام من علوم وتصانيف وتنقيةٍ لكل ما قد يعتري الفهم الإنساني للمنهج الرباني وليس من أصله...

* كمال شخص الرسول ﷺ الكمال البشري والتزكية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ولصدق تبليغه.

* كل الرسالات السابقة أتت مخبرةً عن الإسلام وعن النبي الأمين وهاك بعض أمثلة تؤكد ذلك في العهدين:

العهد القديم	العهد الجديد
سفر التثنية الإصحاح ١٨ العدد ١٩	إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ العدد ١٦
سفر أشعيا الإصحاح ٢٩ العدد ١٢	إنجيل يوحنا الإصحاح ١٥ العدد ٢٦
في نشيد الإنشاد الإصحاح ٥ العدد ١٦	إنجيل يوحنا الإصحاح ١٦ العدد ٧

* الإسلام رسالة الحق للعالمين فلم تقتصر على جماعة أو فئة معينة قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: ٢٨].

* الإسلام أتى شاملاً لجميع مناحي الحياة وتناول جميع الجوانب التي تخص الإنسان بكمالٍ وشمولية وبارتقاء لا يُعلى عليه ولا تقدر أي تشريعات ومفاهيم بشريه أن توازيه أو تنافسه فالله هو الخالق سبحانه وهو أعلم بمن خلق وبحاجاتهم...

* الإسلام مُصْلِحٌ لكل زمان ومكان ... فهو دين ذا مرونة في أحكامه، ونظرته الشاملة تستند على أصول ثابتة لا تتغير...

* توافق الإسلام مع الفطرة السليمة وتلبية احتياجاتها ضمن إِطار قويم وعوزٍ سليم...

* توافق الإسلام مع العقل وعدم وجود تعارض عقلي وإِن وجد فذلك يعود لقصور الإدراك الكلي للإنسان...

* الإسلام يدعو إلى كُلِ جميل في الأفعال والعمل بمكارم الأخلاق والتمثل بها وينهى عن كل سيء، أو ما يصيب الآخرين بسوء فهو دين جامعٌ للخيرية في كل شيء....

* الإسلام أعطى الصورة الواقعية للعدل بإيجاد الاتزان العقلي والنفسي والإيماني في استدراك أمر العدالة في الدنيا وفي الآخرة بالاستيعاب الأمثل لمسألة الثواب والعقاب...

* الإسلام لم يترك الإنسان حائراً تائهاً، بل تَضَّمَنَ الهداية إلى شرع الله والتعريف بمراد الله من خلقه، وحالَ الإنسان في أمره كله قبل إيجاده وبعد ذهابه.

* الإسلام يريد تحقيق السعادة للجميع وهي الصفة الأجمل والغاية الأكمل التي يريدها كل إنسان، فالإسلام يحققها له في الدنيا بالامتثال وفي الآخرة بحسن الجزاء...

* الإسلام راعى كل جوانب الإنسانية واختص الإنسان بعلو التكريم وجعله في دائرة الحفظ فأوجد الأحكام والتشريعات التي تنظم تلك العلاقات بين الجميع بما يؤمن ذلك أرقى هيئة وأتم أسلوب للبقاء في دائرة الحفظ والرقي الاجتماعي والرقابة السلوكية...

* الإسلام أوجد التوجيهات الكاملة فيما يتعلق بمحيط الإنسان وكلُ ذلك إتماماً لإعماره الأرض واستخلافه فيها.

* الإسلام راعى الحقوق لكل شيء وجعل حسن التناول والمثالية والعدالة هي الأصل فمراعاته للإنسان في جوانبه كلها جزءٌ من ذلك ومراعاة الإسلام لحقوق الحيوانات والمحافظة على البيئة والمحيط المادي أخذت جزءاً واضحاً من ذلك....

* الإسلام يتميز بسرعة الانتشار وذلك نظراً لتقبله لكل من ملك قلباً نقياً وعقلاً سوياً فمن ذاق طعم الإيمان أبى الخروج منه أو العدول عنه فالإسلام يوافق الإنسان بكافة أركانه وأحواله وشرائعه الواقعية...

* الإسلام ومعجزته الدائمة الموحى بها لرسول الله ﷺ المتمثلة بالقرآن والتحدي القائم منذ فجر الإسلام إلى قيام الساعة بالإتيان بمثله، وأَخبرنا مُنزل القرآن جل في علاه أنه لن يقدر أحد...

* عدم وجود تضارب في الأحكام والتشريعات الإسلامية وإن وجد ما يعتقد انه تعارض لظاهره، فمن التراث والفهم العام للإسلام يرد على ذلك وعلى أي شبهة اختلقت للطعن في الإسلام يُرد أيضاً، وإنما كانت الإدعاءات والتشويش إما لقصورٍ في الفهم أو عداءٍ في الغاية ...

* الإسلام يقوم على ترسيخ منظومة قيم عالية هي أساس للثبات والفعالية الخيرية والحفظ العام والخاص...

***

الباب العاشر لماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى؟

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢]

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

إن السائل هنا إن كان يقصد إسقاط شبهة فلا محل له هنا لإجابته فليس بابنا لذلك فخلل عقله ومرض روحه يجد له علاجاً في بابٍ آخر ليس هذا مكانه وإنما نريد أن نجيب عن سؤالٍ قد يطرأ على بال البعض فيما أريد من إيجاد الخلق، والحق أن الإجابة الشافية والحجة الكافية تجدها في كتاب الله سبحانه وقد بيَّنها الله عز في علياءه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وهذا كافٍ وشافٍ.

ولسان الحال يقول لو أن إنساناً وجد حيرة في نفسه في أمر دنياه أو حركة حياته لذهب لمن هو مثله ليجد الإجابة عند من يملكها، أو لهُ معرفةٌ فيها فصانع الأمر أعلم بها من غيره والمتعلم عن الشيء هو أعلم من غيره وهو الدال لغيره وهذا في أمر الدنيا والموجودات فكيف إذا أردنا أن نعلم شيئاً تعدى الأرض والسموات، فهذا أمر وسؤال عظيم وشأنٌ ليس للإنسان فيه دور فليس له في الأصل شيء وهو الخلق.

وكيف يكون له شيء و هو في ذاته مخلوق، فإجابةُ سؤاله من باب أولى وعلى كل وجه أن تُأخذ من الخالق لأنه الموجد من عدم وهو القيوم الأعلم سبحانه، فبيان ربنا لسبب إيجادنا كافٍ لنا، وما البحث في جوانب التيه في شبهات العقل لما لا يُقدرُ على إدراكه أو ما وسوس له به شيطانه فذلك لجهل وقلة دين أو ناتج عن خروج عن منهاج رب العالمين فالخالق سبحانه قد بين الغاية للإنسان ويسر إليه الوسيلة وسخر له الدنيا و بين له الطريق وبعث له الرسل وأرسل له الكتب وجعل له العقل وأحاطه ببديع

الخلق والمخلوقات وبين له العلامات وذلك من كرمه سبحانه ومن كمال علمه وبديع أمره فجلَّ في علياءه وتقدست أسماءه، فهو سبحانه منزهٌ عن العلةِ في أفعاله فيفعل ما يشاء وكيفما يشاء ومتى شاء فتعالى ربنا لا يُسأل عما يفعل والخلق يُسألون وأمره إن شاء بين الكاف والنون.

فلذلك تأدباً وتديناً بعدما أَخبر الخالق سبحانه عن المراد من الخلق فلا يحق للمخلوق أن يتجاوز في الأمر فالطاعة والتسليم من أصل الأمر، فالكريم سبحانه وضع المكلفين في اختبار وخلق لهم الدنيا مُسَخَرَةً لأمرهم ولم يجعلها دار قرار، وبين لهم أمرهم وأقام عليهم الحجة وترك لهم الخيار، وجعل بعد ذلك الحساب و الجنة والنار، فتبارك الله الملك الجبار الرحيم الغفار فبخلقه لنا تكرم علينا سبحانه أن علمنا من أسماءه وعظيم صفاته ما أراد، فسبحانه حق له أن يُعبد وحق له التوحيد في الوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته فلا منازع لملكه ولا راد لأمره وهو العظيم الكريم الحليم العليم قبل أن نعلم وبعد أن نعلم، الخالق قبل أن يخلقنا، الرحيم قبل أن يرحمنا، فتبارك وتعالى له الكمال في كل شيء ويعلم كل شيء خلقنا لنعبده ونمجده وليس له في خلقنا وخلق شيء حاجة، فلا يزيد في العظمة من خلقنا بشيء ولا ينقص من أمره بما صدر عنا شيء، فسبحانه خلقه إيانا كرم منه ورحمه بأن أوجدنا وأمرنا بإتباع أمره واجتناب نهيه وسلوك شرعه فألحقنا بذلك سبحانه بعز الدين والاستخلاف والتمكين فله الفضل سبحانه وله كل الثناء ونرفع إليك ربي أيدينا بالدعاء ونعتذر إليك بما قصرنا وقصر المقصرون، وما ارتكبنا من ذنوب فأنت أعلم بنا من أنفسنا وتعلم بضعفنا ولذلك أمرتنا بالاستغفار فسبحانك ما أرحمك عَلِمتَ حاجتنا فرحمتنا وغفرت ذنبنا، فلك الحمد والشكر إلى منتهاه أن خلقتنا وهديتنا وجعلت الإسلام ديننا...

***

الباب الحادي عشر الإسلام والفطرة

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

قال ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» رواه البخاري.

الفطرة في اللغةً بمعنى شقَ، وهي مجموعة الاستعدادات والميول والغرائز التي تولد مع الإنسان دون أن يكون لأحد دخل في إيجادها... وتحمل من معانيها الإسلام وهو الأصل في الرسالات السماوية وهو خالِصُ التوحيد لله سبحانه.

إن الإنسان متى ما لاقى الحياة بالولادة يحمل معه ومع أصل خلقته هبه ومَكْرُمه من الله وهي صفات أصيله فيأتي بحالة من النقاء والصفاء وبأساس جلي لا تشوبه شائبة ولا يخالطه تكدير فيأتي ومعه تلك القدرة الإرادية والعلمية للميل الى الحق والقبول به وذلك لأن نوازع نفسه في أصل خلقته تكون على ما خلقها الله عليه من التوحيد والصفاء وإن لم يكن يعيها في تلكم الفترة لكنه يستشعرها في حياته ويجدها في نفسه وخواص إدراكاته وما يتعرض إليه، والمقصود هنا إن الإنسان يُخلق مائلاً للحق والقبول به موحداً لخالقه ويبقى ذلك أصيلاً في نفسه مستشعراً بتوافقه مع روحه وعقله ورافضاً لكل ما تعدى وكان شكلاً منافياً للصواب أو خروجاً عن الأصل، فنفوره عما يُحْدِثُ له تشويشاً أو اضطراباً أمر جبلي واستشعاره بالطمأنينة والاستقرار والشعور بالتوازن يجده متوافقاً مع أصل النقاء وفطره الله التي خُلق عليها.

والإسلام هو دين الفطرة ولا يتعارض معها ولا مع رغبتها بل يحدد لها الطريق السليم والنهج القويم لإبقائها على أصلها ونقاءها وما جُبلت عليه وإن الإنسان خُلق سليماً لا يعرف إنكاراً وميلاً للشر وإن إيجاده إنما كان لعباده الله رب العالمين وذلك هو أساس الإيجاد وأصل دعوة كل الرسالات التي أُرسلت له ودعت الى التوحيد، وان

إتباع المقصود والدين الذي ارتضاه الله سبحانه للعالمين موافقٌ للعقل السليم والنظر القويم وموافق للطبائع الأصيلة والنفوس النقية، لذلك كان من رحمة الله أن جعل الحساب والتكليف في الشرع الحنيف يبدأ متى ما وصل الإنسان لعمرٍ يستطيع أن يميز فيه ويُعْمِلَ عقله ليصل فيه إلى حقيقة خلْقِهْ وهي عبادة ربه ويسلك الطريق الصحيح للوصول لمرضاة من أوجده وأنشأه...

فالفطرة في الإسلام من سنن الله التي لا تقبل الإلغاء ولكنها تتعرض للتغيير وتخضع للتأثير لذلك يجد الإنسان ذلك الميل للحق في نفسه وتوافقه مع الأصل في الإيجاد والخلق ويعينه العقل لإدراك ذلك لملازمة منهج الله، فالفطرة كانت أساس الاستقامة وأصل السلامة وهي النموذج الأولي للصفات الكاملة التي منحت للإنسان والتي توجهه إلى الله والميل الأصلي للسلوك والاعتقاد القويم ...

***

الباب الثاني عشر الإسلام والضروريات الخمس

لقد توحد علماء الإسلام على التأكيد على خمس ضروريات أتت مقاصد الشريعة لتحقيقها فعليها تدور رحى الحياة وهي أعمدة الانتظام والاستقامة لها فذهابها ذهاب للحياة والإخلال بها زعزعة لأعمدة بناءها، ولقد اعتبرت من الضروريات لأنها المحيط العام بالإنسان في كل شأنه في أصل وجوده وعلاقته مع ربه، وفي نفسه وعلاقته مع غيره... وتلك الضروريات هي: (الدين، والنفس، والنسل (العرض)، والعقل، والمال) فهي خمس أصابع في كف الحياة الواحدة ومتصلة في أصل واحد وهو الإنسان ومُكملة لبعضها لتمام الأمر، ولقد جاءت شريعة الإسلام لحفظ هذه الضروريات فهي أسمى المطالب وأصل الحكمة ولقد بيَّنَ الإسلام في شموليةٍ وكمال ما يحقق حفظها ويمكِّنها من تأدية دورها الصحيح وتنميتها وَ وجوب ألا يُتعرض لها في أي جانب من جوانبها فالحياة لا تأخذ فعالية صلاحها ولا نَسقها المثالي كما يريد الشارع الحكيم إذا تم التعرض لها بما يسبب الخلل أو الذهابُ بها بالكلية أو بتعطيل دورها.

لذلك تم حفظها ومراعاتها أيَّما مراعاة ومن وسائل تلك الرعاية وتمام العناية ما يلي:

أولاً: حفظ الدين

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وحفظُ الدين من أَوّلى الأولويات، فلعبادةِ الله أُوجِدَ الخلق وبالدينِ صلاحٌ للخَلق وهو منهج الحق ولحفظ الدين شرعَ الله سبحانه أركان الإسلام والإيمان وأوجب القيام بهما بأداء العبادات وإقامة الشرائع والإيمان الكامل، ومن أبواب الحِفظ والاستمرارية

للدين القيام بتبليغ المنهج والدعوة إليه وبيان حقيقة الرسالة وكمالها وصدق دعوتها وإنها الدين الحق، والحث على العلم والتعليم لإيصال الرسالة كما ينبغي بصوره جليه مطابقة لأصل المنهج بدون أي تحريف ولدفع أي شبهة أو اشتباه قد يحصل نتيجةً لنقص إدراك أو سوء غاية...

ومن الأساسيات في أمر الحفظ العام للدين لا بد من الذود عن حوضه وحفظ بيضة الإسلام من أي اعتداءٍ قد يصيبه أو عائقٍ يحول دون تبليغه أو إقامة شعائره فشُرِع لذلك الجهاد ضد المعتدين ومن يصدون عن سبيل الله ويحاربون الدين وشُرِّع أيضاً عقوباتٍ للمنافقين ومن هجر الدين وأفسد وحدةَ المسلمين...

ثانياً: حفظ النفس

قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وان ريحها يوجد في مسيره أربعين عاماً» رواه البخاري.

ومن أهم الضروريات بعد الدين هو حفظ النفس كيف لا وهي حاملة التكاليف وعليها تقوم الرسالة وهي خلق الله المكرم وأصل الحياة والاستخلاف، ولذلك كان للشرع تدابير كثيرة في حفظ النفس من ناحية وجودها ومن ناحية حفظها العام بعدم التعرض لها أو الذهاب بحياتها وما احتوت، فهي مقدَّرة مكرمة عند باريها فلا يجوز الذهاب بها بالكلية بإفنائِها أو الإضرار بها، فالإسلام حرم القتل سواءً بقتل الإنسان لنفسه أو بقتله لغيره وذلك يُعد في الإسلام من الموبقات ومن الجرائم الجسام وتم التوعد لمرتكبها بأشد العقوبات في الدنيا والآخرة، فالنفس محفوظة في ديار الإسلام

بغض النظر عن كونها مسلمة أو غير ذلك فلا يجوز بأي حالٍ من الأحوال سلبها الحياة إلا في نطاقٍ حدده الشرع وبَيَّنَ أحكامه ومنه القصاص الذي فيه منع للإسراف في القتل وردع لمن يفكر في ذلك...

ومن جميل الشرائع -وكل الإسلام جميل- أن هناك أحكاماً راعت النفس في كل حال فيتغير الحُكمُ مؤقتاً إذا استدعت الحاجة للضرورة، فأبيح ما كان محرماً إذا خيف على الإنسان ذهاب حياته أو وقوع ضرر محقق إذا لم يجد ما يأكله سوى ما حُرِّم، ومن ذلك أيضاً السماح لمن أصابه عارضٌ يتأكد الضرر معه إذا وافق ذلك أداء حكم أو فريضة مثل مريضٍ عليه صيام فسماحة التشريعات سمحت له بقضاء ذلك وتأجيله...

ثالثاً: حفظ النسل (العرض)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء:٣٢].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ [النور:٤].

إن الإسلام الكريم أتى بنظام لا نظير له فيما يتعلق بحفظ النسل وصيانة الأعراض فهو تشريع كامل فيما خص ذلك، فقد جمع في أحكامه وما يُكوِّنُ تشريعاً منظماً وأُسلوباً وقائياً وعلاجاً في الأمر كله، فمسألة الحفاظ على النسل والعرض في الدين لها حساسية عالية لما يتعلق بها من أَحكام عديدة كالنسب والميراث والأسرة، لذلك تمت الإحاطة الشرعية والإرشادية لكل ما يتعلق بالإنسان من هذا الجانب و أيضاً حفظ الحقوق الاعتبارية المترتبة عليها، فالعلاقات بين البشر لا بد أن تكون في دائرة من النقاء والرقي الأخلاقي والسمو السلوكي فهذا مما تميز به الإسلام في سلوك أفراده وعلاقاتهم فيما

بينهم وذلك نابعٌ من أصل امتثالهم بالمنهج وعدم مخالفتهم للأحكام والتوجيهات الشرعية.

ومما كان من حفظٍ للنسل هو الترغيب بالزواج لاستمرار حركة الحياة وتحقيق الاستخلاف، وأن يكون ذلك الارتباط بين الزوجين على أسس وأحكام مفصله وحافظة لكلا الطرفين وما يترتب على ذلك من أحكام آنية أو مستقبلية.

ومن مظاهر الحفظ للنسل والعرض هو تلك الهيئة القويمة الواجبة للعلاقات بين البشر وأن لا تكون إلا في نطاق محكمٍ موافقٍ للفطرة السليمة والأحكام الكريمة، ومن ذلك أيضاً عدم التعرض للغير فيما يخص كرامته ونسبه، فهذا أمرٌ ذو اعتبار وقيمة عالية لدى النفوس التي لازمت نقاء الفطرة والتزام الدين، لذلك كانت الأحكام التي فيها عقوبات وحدود لمن تجاوز واعتدى على عرض أخيه، فالأعراض في الإسلام ليست كلأً مباحاً يرتع فيه أي أحد بل هي حصن حصين ولها سورٌ من الأحكام متين.

رابعاً: حفظ العقل.

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

للعقل في الإسلام أهمية كبرى فهو مناط التكليف وبه رُفع الإنسان عن سائر المخلوقات بالتكريم، وبإعماله يدرك الإنسان أمره ويؤدي دوره ويتفاعل مع محيطه ويوقن عظمة ربه...

وأراد الإسلام للعقل حفظاً من جهتين حفظهُ من الزوال أو تعرضه للإخلال، أما حفظة من الزوال فَحَرُمَ ما قد يصيبه بتلف أو ما يغيبه عن الواقع وذلك بالتعرض أو التعاطي لأي مادة تفعل ذلك من خمر أو مخدر أو ما يدخل في ذلك والتي تجعل العقل عاجزاً عن أداء مهمته، وتقربه من الحالة الحيوانية في السلوك وذلك لقصور الإدراك الكلي وغلبه الشهوانية.

أما حفظ العقل من الإخلال، فالإسلام يريد للإنسان أن يكون ذو عقل مستنير وذو وعي وإدراك، وتمكُّنٍ في الفهم والاستنباط، وأن يكون العقل نوراً يدله على الطريق، فالشرع يحث على طلب العلم فبه يعبد الإنسان ربه ويتبع منهجه كما يريد سبحانه وبالعلم وبإعمال العقل في إطار الشرع تذهب الشبهات وتدرك الغايات وبالتدبر يُرى عظمة الخالق وحسن الآيات وكلما زاد الإنسان عقلانية لا بد أن يقترب إلى الصواب والى منهج الحكيم التواب...

خامساً: حفظ المال

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨].

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٣٨].

إن المال أو ما يحمل صفته أو يؤدي عمله هُوَ من لوازم و وسائل سير الحياة ويعتبر كعصبٍ للتعامل المادي أو المنفعي بين الأفراد جميعاً، وهو مطلب أساسي فبه وبتداوله تتم حركة الحياة النفعية وتلبية الاحتياجات وما يدخل في ذلك وان لكل فرد نصيبٌ من وقتٍ يُنفقه في التحصيل أو التداول والإنفاق، وان المعاملات والأمور المتعلقة بالمال في نواحيه جميعها بدءاً من الحصول عليه وكيفية ذلك مروراً بتحريكه أو تداوله وما قد يترتب عليه من أحكام من زكاة وغيرها وأيضاً من تداولٍ بطريقةٍ موافقةً للأحكام نهايةً بتوريثه لمن يحُقُّ له تملكه، فتلك الدورة المتكررة لازمها تشريعٌ يبيِّنُ أحكام كل ذلك مع أصولٍ تقوم عليها المعاملات بشتى أنواعها.

ويلزم أيضاً أحكاماً تحفظ ذلك كله بألا يؤخذ بدون وجه حق أو بإكراه وانك لتجد كل ذلك في الإسلام بنظام بديع وشمولٍ وافٍ يلبي كل ذلك ويجعله في مساره الصحيح

فكل أمرٍ يتعلق بالمال إلا وله أَحكام وتفاصيل وتوجيهات وذلك من كمال هذا الدين وتمام أمره.

* وننوه هنا على أمر هام وفهم شرعي عام، فحفظ الضروريات وقيام الأحكام وتطبيق الشريعة في الإسلام لم يقتصر على المسلمين فقط بل شملت غيرهم وبينت أحكامهم وحقوقهم وواجباتهم فالإسلام نافعٌ لأهله ولغير أهله بما حمل في أمره من كمالٍ وعلو استيعاب للجميع...

***

الباب الثالث عشر الإسلام والصلاة

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [التوبة:١٨].

قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء:٧٨].

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام وعمود الدين وبها يُميز المسلم عن غيره فهي برهانٌ لصحة الاعتقاد، وهي عبادة علمنا الرسول ﷺ كيفيتها، في أوقات توقيفية وبأعمال مخصوصة تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم، وهي ثابتة بثبوت الدين وهي فرضٌ واجب على كل مسلمٍ عاقلٍ بالغٍ ذكراً كان أو أنثى ولا تسقط أبداً عن المسلم ما دام في وعيه...

والصلاة صلة بين العبد وربه، فُرضت قبل هجرة الرسول ﷺ لعامين خلونَ من هجرته، والصلاة أمُ الاستقامة، وإن كان كل تكليف جاء بالوحي فلعظم منزله الصلاة فقد جاءت بالتكليف المباشر من الله سبحانه وتعالى للأمة الإسلامية عن طريق الرسول الكريم ففرضها الله جل في علاه في رحلة الإسراء والمعراج...

وقد بيَّنَ الإسلام الكريم أن الصلاة من أعظم الشعائر التعبدية التي يتقرب بها العبد إلى خالقه ومولاه، وهي رمزٌ للمسلمين وعبادةٌ عظيمة، وبيَّنَ أنها خير الأعمال وهي معراج المرء إلى ربه، وفيها يكون العبد أقرب ما يكون إلى خالقه، وبها يبدأ الحساب فإذا صَلُحَت صَلُحَ سائرُ عمله.

والصلاة علاقة بين العبد وربه، ومتى أراد العبد لقاء ربه فيلجأ إلى الصلاة فلا باب ولا بواب، وذلك كرم ومنزلةٌ عالية جعلها الله لعباده وأكرمهم بها، وجعلَ الصلاة كنهرٍ بباب أحدهم يغتسل فيه في اليوم خمس مرات فهل يبقى عليه بعد ذلك شيءٌ مما علق من الذنوب والأحوال التي قد تُصيب بعض الناس، فهي عبادة ورحمة.

والإنسان صِنْعَة الله التي خلقها ووقوف العبد بين يدي خالقه بما شُرع لهو إصلاح له وتجديدٌ لطاقته الإيمانية وتذكيرٌ كريم بلقاء الله يوم الحساب ونوال الثواب...

وقد بين الإسلام أهمية الصلاة ونَفْعها وقدرها وما تعود عليه من خير الدنيا والآخرة للعبد، وجعل الصلاة فارقاً بين المسلم وغيره وأوجد لها نداءاً جلياً جميلاً وهو الآذان فعلت به الأصوات موحدة مناديه للقيا الخالق الكريم والتقربُ إليه بما شرع فتعالى الخالق سبحانه ما أكرمه وما أعظمه، فهو ينادينا للقياه ويفاخر بنا ملائكته فَجَلَ ربنا وتعالى اسمه على كريم عطائه وسعه رحمته.

ومن جمال الإسلام في مسألة الصلاة أنك ترى في الجمع الواحد من البشر كلَ ما يخطر ببالك من اللغات والألوان والجنسيات المختلفة والتي اجتمعت فلم تختلف بينها في هيئتها ولم تختلف بذلك الإيمان القلبي المتعلق بالصلاة فاصطفت طائعة لربها ذاكرة له سبحانه وتعالى كأنهم جسد واحد ولغة واحدة فسبحان من جمع تلك القلوب على ذكره بتلك الهيئة... فالصلاة رابط بين المسلم والإسلام وتذكير يومي مأجور لعلاقة العبد مع خالقه التي هي أساس إيجاده وبقاءه في دائرة الإيمان ودائرة العمل...

***

الباب الرابع عشر الإسلام والزكاة

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١].

الزكاة هي الطهارة والبركة والنماء، وهي حُصة مقدرة مما تجب فيه الزكاة فرضها الله تعالى لمصارف حددها سبحانه وهي عبادة عملية تتعلق بالمقدرات لدى المسلم إذا بلغت نصاباً محدداً. وهي ثالث أركان الإسلام الحنيف...

والزكاة في الإسلام عبادة ونظام اجتماعي فريد وهي حركة تعاونية بين أفراد المجتمع بحق الفقير في مال الغني.

وقد أولى الله سبحانه وتعالى الزكاة اهتماماً عالياً وقرنها بالصلاة في العديد من الآيات الكريمة فذُكرت في القرآن عشرات المرات.

فالإسلام بما قد راعى الأدوار الاجتماعية المختلفة التي قد يمر بها الفرد داخل المجتمع فأوجد ذلك النظام المالي التي يحفظ للمسلم حقه في حال فقره ولينزع من قلبه أيَّ أثر على أخيه المسلم، فحفظ بذلك كرامته وأوجد ذلك النسيج الاجتماعي التكافلي الذي يعود على المجتمع فقيره وغنيه، آخذه ومعطيه بالخير، فالمُعطي يأخذ نصيبه من الثواب والتزكية للنفس ويستشعر حال إخوانه فيعطي حقاً مفروضاً لهم ويُبعد عن قلبه البخل وحب الاحتكار ويضع مكانه حب الإيثار ومساعدة أهل الحاجة فيكون بذلك بنى جسراً إيمانيا تعبديا من جهة نفسه وخيريا تعاونيا مع غيره .

وأما الآخذ فيستشعر بتلك اللُحمة الاجتماعية وذلك التكافل الذي أوجده الإسلام فلا يحمل في قلبه أي غلٍ أو عداء لأخيه المسلم ويحس في ذات الوقت فضل الزكاة وجمال معانيها فإن أكرمه الله وملك النصاب يوماً أصبح بدوره معطياً، فتعاون كلا الطرفين بما فيه خيرٌ لأخيه... فالزكاة خير متعدد في المجتمع...

وقد بين الإسلام أن استمرار الحركة الاقتصادية لها دور كبير في تقدم المجتمع وسبيل إلى رخاء المعيشة وتحسن الحال العام فمنع جمود المال. واقتطاع الشارع الحكيم لذلك النصيب المفروض يُنشط تلك الحركة ويمنع ذلك الركود لرأس المال.

وان الإسلام راعى المسلم في كافة نواحيه ولم يترك جانباً من الجوانب إلا ووضع له ما ينظمه ويعود بالخير عليه في دينه ودنياه ومن ذلك ما أولاه عناية له في صغره وكبره وفي نفسه وروحه وفي وضعه الاجتماعي من فقر وغنى ونظم ذلك تنظيماً كاملاً مستمداً من كَمال مُشرعه سبحانه وتعالى فالإسلام يريد مجتمعاً متماسكاً متعاوناً متعاطفاً كأنه أُسرةٌ واحدة يحمل كل فرد فيه شعوراً حقيقياً يرجو به التقرب إلى باريه بأن يكون عوناً لأخيه...

***

الباب الخامس عشر الإسلام والصيام

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣].

الصيام هو الإمساك: (أي الامتناع عن الشيء) والصيام عبادة فرضها الله سبحانه وتعالى على المسلمين وكانت مفروضةً على الأمم السابقة كما ورد ذلك في النص القرآني الكريم ، والصيام هو الركن الرابع من أركان الإسلام ، ويُعَرَّف على أنه الامتناعُ عن المفطرات التي حددها الشارع الحكيم من وقت طلوع الفجر حتى غياب الشمس مقترنا ذلك بنيه العبادة، وهو شهرٌ في العام معلومٌ أمره عند المسلمين وتوقيته واضح مبين ، وهناك أيضاً صومٌ تطوعي في غير رمضان وما كان قضاءً .

وإن حكمة وجوب الصوم هي التقوى والتعبد لله الكريم وإن التقوى بالعموم هي ترك المحظور وفعل المأمور وإن فعل الصوم مأجور وجزاءه عظيم وثوابه جزيل، ومن كرم الله أن جعل باباً للجنة لا يقصده إلا الصائمون واسمه باب الريان...

وليس الإمساكُ عن الطعام والشراب والمفطرات الغاية من الصيام بل تلك الوسيلة والغاية هي العروجُ بالصائم إلى مراتب التقوى فهو تشريعٌ رباني يُتحصَّل به على رضوان الله سبحانه امتثالا للأمر وعملاً للطاعة...

والصيام في الإسلام عبادةٌ وباعث على شكر الله سبحانه على نِعَمهْ وله نواحٍ إشراقية وإيمانية عديدةٌ للمؤمن وهي تتناول ذلك الجانب الروحي الذي تبقيه مرتبطاً بخالقه في عبادةٍ جزءٌ منها خفي عن الغير فالصائم في خلوته يبقى على حال عبادته ولا يخالف أحكامها فيستشعر بها يقيناً لعلمه أن الله مطلع عليه فيبقى في تلك الدائرة الروحانية الجميلة من الطاعة التعبدية التي يرجو منها ثواباً من الله سبحانه وإنه ليستشعر أيضاً في حال صيامه أثر نعم الله عليه وفضل خالقه فيزداد إلحاحاً في جوارحه وقلبه بالتقرب إليه سبحانه، ومن جمالات الصيام في الإسلام ان الصائم يحسُ حال

إخوانه المسلمين وذوي الحاجة منهم فيتحرك تعبديا في أن يزيد ما يقدمه من خير وصدقة لإخوانه تقرباً لله وزيادة في أجر الطاعات التي تتضاعف في رمضان...

والإسلام الحنيف يحث على تماسك المجتمع وان يكون جسداً واحداً، وإن نسك الصيام الذي يجمع أتباع الإسلام في شهر الصوم يعطى ذلك الانطباع الراقي بتماسك الأمة وتوحدها في ظل هذه العبادة الجليلة، فترى المسلمين جميعاً على اختلاف أمرهم ودرجاتهم ولغاتهم في نفس الأمر من العبادة والصوم فلا تفاضل على أحدٍ من أحد فالكل تحت أحكامِ صيامٍ واحدة فسبحان الله الذي أكرمنا بهذه الفريضة التي جُعل ثوابها من الله بخصوصية فيجزي بها سبحانه كيف يشاء ويُجزل بكرمه عليها العطاء لمن شاء...

***

الباب السادس عشر الإسلام والحج

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج:٢٧].

قال ﷺ «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً». رواه الشيخان.

الحج لغةً هو القصد للزيارة أو إلى ما عُظِّمْ...

وفي دين الإسلام فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو فريضة جمعت كل الأعمال التي يقوم بها المسلم في دينه من عباداتٍ بدنيه وماليه، والحج هو الذهاب لمكة لأداء أعمال مخصوصة ومنصوصٍ عليها في الشرع الحنيف وتسمى المناسك، وهو فرض عين لمرةٍ واحدة على كل مسلم استوفى الشروط، وتبدأ مناسكها بالإحرام في مواقيت مكانية محددة، وفي اليوم الثامن من ذي الحجة يبدأ الميقات الزمني لأداء الفريضة، والذهاب لطواف القدوم بمكة فالتوجه لمني ليوم التروية والوقوف بعرفة ورمي الجمرات والعودة لمكة لطواف الإفاضة والسعي والذهاب لمني لقضاء أيام التشريق و المبيت بمزدلفه وثم مكة لطواف الوداع، وهناك تقديم الهدي والتحلل وتلك أعمال الحج وله شروط وأركان وأَحكام ومواقيت مكانية وزمانية وكل ذلك معلوم متفق عليه عند الأمة الإسلامية وقد فُرض الحج على المسلمين في السنة التاسعة للهجرة وهو ثلاثة أنواع : التمتع، والقران، والإفراد.

إن مكان أداء الحج هو أَطهر البقاع وأقدسها وإن من ثمار الحج أن ينال العبد حالة الطهارة الكاملة مما كان فيه والعودة نقياً كبدءِ خلقه، وبدءِ حياة إيمانية مُجَدَدَةٍ بمغفرة من الله ورضوان...

وللحج حِكَمٌ في مشروعيته عظيمة، منها التعبد لله سبحانه بما أمر ومنها شهود منافع للناس وابتغاء فضل الله في الدنيا والآخرة وبه يكون غفران الذنوب، فما جزاءُ الحج المبرور إلا الجنة...

إن الحج ترى فيه جمع المسلمين كوحدة واحدة وذلك جليٌ ظاهر للعيان، وقد أعطت تلك الوحدة ذلك الانطباع الحقيقي على الوحدة القلبية الإيمانية وأعمال الجوارح التعبدية وذلك بنسق يعجز البشر على تنظيم مثله لما جَمَعَ من أعمالٍ قام بها حجاجٌ من شتى بقاع الأرض اختلفت بينهم لغاتهم وفئاتهم الاجتماعية وقدراتهم الجسدية والفكرية فما الذي جمعهم في تلك الهيئة وذلكم الزمان والمكان إلا تدبيرٌ وتيسير من الكريم المنان، فنور الإيمان وطاعة الرحمن كانت هي الدليل والموجهة للجميع بالامتثال والتطبيق، وكان ذلك الجمع العظيم في هيئة برزت فيها عظمة الإسلام و وحدته كأسره إيمانية واحدة اشتركت في أصل اعتقادها وجميل مآلها بما طمعت من رضا خالقها، وان اختلفت لُغاتهم لكن كانت لغة الإيمان والمحبة هي لغة التواصل بين الجميع فسبحان من جمعهم في الدنيا على عبادته، وجمعهم في الآخرة في الجنة برحمة.

***

الباب السابع عشر الإسلام والعلم

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال ﷺ «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً الى الجنة» رواه مسلم.

العلم مصدر عَلِمَ، وجمعُه علوم، وهو إدراك الشيء على حقيقته وهو ضد الجهل...

ولقد تواترت النصوص وتعددت الأخبار في حث الإسلام على طلب العلم والتعلم كيف لا وأول آية أُنزلت هي اقرأ، و إن العلم نورٌ يضيء لصاحبه الطريق فيبلغ به أسمى الغايات وأعلى الدرجات وبه تزكو نفسه وتُنورُ بصيرته ويورثُ الخشية من الله سبحانه وتعالى، وكما أنه نور لصاحبه فهو نورٌ للجميع ودلالةٌ للعمل وفق القواعد الصحيحة والطريق الأمثل، فالإسلام بيَّن أهمية العلم ومكانته فبهِ يُرقي الإنسان نفسه ويرقي به غيره فخيره متعدد وهو للجهل مُقيد، وإن الإنسان لتزداد قدرته وتعلو مكاسبه في الوصول للخيرية والأفضلية بما عنده من مخزونٍ من العلم ودراية للخير وزيادة في الفهم، فصعوده على درجات الإنجاز والامتثال للمنهج القويم والعمل السليم مرتبط بما حَصَّلَ من العلم وأدرك من أمر واستوعب من غاية، والعلم أولى أن يكون قبل العمل حتى يكون العمل وفقاً للمراد فيتحَصَّلُ المقصود بأكمل وجه وأرقى غاية..

والعلم وفقاً للمفهوم الإسلامي على أقسام عامة وهي: العلم الشرعي، والعلم اللدني، والعلوم المادية، والإسلام يرى طلب العلم الشرعي أساساً للمسلم لينتهج الطريق الصحيح وليعبد ربه كما أراد منه سبحانه وليكون العلم له نبراساً لِيُتم أَمرهُ في كافة أحواله في نفسه ومع غيره وفقاً للقواعد والأحكام الشرعية، فيعرف كل إنسان ما له وما عليه فيكون بذلك كَمالٌ في التناول والتداول بين جميع أفراد النسيج الاجتماعي بصورة راقية والتزام موفق وتطبيقٍ مفهوم ضمن إطارٍ شرعي وعلم بالأحكام والمعاملات...

أما العلم اللّدني فذلك علمٌ يختص به سبحانه وتعالى ولمن أراده الله من عباده، وبالنسبة للنظرة الإسلامية للعلوم الحقيقية وهي العلوم المادية والتي فيها النفعية للبشرية جمعاء و بها يُتحصَّلُ على التيسير والرقي المادي والتطور في التحصيل المنفعي فيما يخص حياة الأفراد والمجتمع في كافة السبل النافعة فقد أولى السلام بها اهتماماً كبيراً ورغب بها لأن الحلقة تدور على الإنسان وهو المقصد والأصل في التكليف وفي التحصيل، والغاية الأسمى للإسلام هي الوصول بالإنسان لدرجة العبودية الحقة وفق مراد الله في خلقه وبالتالي رقيه وعلو أمره في تيسير استخلافه في الأرض وعمارتها وبفهم الإسلام في الاستخلاف الحث والإقبال على ما يفيد ذلك وتيسيره للجميع، فالإسلام يريد السعادة للإنسان في دينه وآخرته وفي دنياه ومعيشته فهو خيريٌ في الأمرين، وخير شاهدٍ على اهتمام أهل الإسلام بالعلوم تلك المرتبة العلمية والمعرفية التي وصل إِليها علماء المسلمين في كافة العلوم وبجميع محاورها والتي كانت أساساً لنشأة حضارات وثقافات على تلك العلوم والمبادئ العلمية الراقية، وان فضل كثير من الاختراعات والعلوم ليعود إلى تلك الحقبة التي ازدهر فيها العلم وتنوع عند المسلمين فيما كان الآخرين في ظلمات فوقها ظلمات، وإِن درجة الحضارة التي وصل لها المسلمين لا تخفى على أحد وعلومهم لا تخفى عن علم أحد إِلّا من فقد بصره وأعماه الكبر، وما نزولنا في سُلمِ الرقي وَوَضعنا بما نحن عليه إلا لأننا ابتعدنا عن توجيهات ومنهج الإسلام في الأمر، وأصبحنا مقلدين بدلا أن نكون رائدين وقصرنا عن طلب العلم وتقدير العلماء فعم بذلك الجهل وسيطر الجهلاء...

والخلاصة أن الإسلام يدعو في أمره كله إلى العلم والتعلم والى القيادة والسبق في كل أمر فجماله وكماله من منهج ليس في مجال واحد بل في كل شيء، ورقيه وعلوه سامٍ وكامل، فهو يريد ذلك الإنسان الراقي في عبادته العالي في إدراكه، المتمكن في فهمه لحقائق الأمور، فكلما زاد علمه اقترب من خالقه وأحسن شؤون نفسه وسما بمجتمعه الى الصورة الأمثل والهيئة الأكمل، وطلبُ العلم حافزٌ للإبداع، وامتثالٌ للعبادة بلا

ابتداع، وكَذَبَ من قال إن هناك تعارض بين العلم والدين، وإنما من خُفي عليه شيء فذلك لقصور في العقل عن الإدراك أو خلل في الغاية...

وسبحان ربي إذ يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦].

***

الباب الثامن عشر الإسلام والعقل

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة:٢٤٢].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

إنَّ العقل نورٌ تَرى به النفس الأمور بالقدرة على إدراك الأشياء، وهو صفة قائمة بالذات العاقلة وقوة يُحَصَّلُ بها العلم وليس منه وله مراتب كثيرة...

وان مُكتسبات الحواس جميعها والإدراكات العقلية المبنية على ذلك المخزون الضخم من الخبرات والعلوم والتفكر والتدبر هي الأساس في القدرة العقلية والتي تزداد بازدياد تلك المكتسبات، وتتميز بتميز الإنسان وقدراته على رفع تلك الكفاءة وتنميتها.

وان أول ما يشير إلى مكانه العقل في الإسلام هو اعتبار حفظه من الضروريات، ومن المعلوم أن الضروريات الخمس في الإسلام وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال هي بمثابة المقاصد العليا لهذا الدين الحنيف وهذه الكليات لا بد من المحافظة عليه لاستمرار الحياة وإتمام الاستخلاف وأداء الغاية من الإيجاد.

ولذلك فالإسلام دينٌ عُني بالعقل بحمايته وصيانته من التعرض لأسباب الفساد الفكري أو الزوال بالكُلية فكان ذلك الاعتناء وبالغ الاهتمام من خلال:

١ – وجود تشريعات تحفظ العقل من التعطيل والجمود والانحراف وذلك ببيان أهميته وتوجيهه، ونرى بالغ الأهمية للعقل فيما قد وردَ في القرآن من تعداد ذكره أكثر من سبعين مرة، وما ورد فيما يتعلق بمسائل العقل من تدبرٍ وتأمل ونظر بأكثر من ذلك بكثير وأيضا ذكره في مقام التعظيم والتكريم، ووجوب الرجوع إليه بعد ان يهيأ لذلك ضمن الإطار والفهم الشرعي، فإعمال العقل في الإسلام يتسم بالموضوعية والتوازن...

٢ – منع ما قد يوقع ضرراً على العقل حسياً كان أو معنوياً فلذلك يُحَرِّم الإسلام أي موادٍ قد تدخل على الجسم تؤدي إلى المساس بالعقل وفساده، فالعقل هو مناطُ التكليف في الإسلام وبذهاب العقل يصبح الإنسان غير مكلف وفاقداً للأهلية و لذلك فكل مخدرٍ أو مسكرٍ أو ما يُذهبُ العقل فهو داخل في باب المحرمات، وهذا من شق الأمر المادي أما المعنوي فلا يجوز التعرض للعقل بالشبهات التي تجعل الإنسان في شك وتخبطٍ ويندرج تحت ذلك كل ما قد يشوش على الناس أمرَ دينهم أو يزرع الفتنة بينهم بالكذبِ والافتراء والصورة المضللة عن الدين أو العقيدة فالإسلام لذلك يمنع أي مدخلات أو أفكار لا تمرر تحت الرعاية والتقدير الشرعي و موافقة المنهج .

وإِنَّ الإسلام قد وضع إطاراً شرعياً للعقل بتدبيرٍ من حكيم عليم، ومن جلال وجمال الإسلام أيضاً أنه يقيمُ للإيمان دعائم عقلية ذات قوى متزنة ويحث العقل على التفكير والتدبر والارتقاء بذلك ارتقاءً إيمانياً عالياً فإعمال العقل واكتساب العلم مدخل واسعٌ إلى زيادة الإيمان ومعرفةُ عظمة الخالق وزيادة التقرب إليه، وإِن الإسلام دين يعتمد في الأمر على الدليل فمنهجه قائم على ثوابت وأدله، ومن كمالات هذا الدين أنه احترم العقل وعامله كما ينبغي فلم يتركه حائراً أو تائهاً بل وضع له الإِطار الذي يدور في فلكه، وبين له أن هناك باباً للغيب لا تستطيع المدارك أن تحصله، فكان من باب الإيمان التصديق به والامتثال، فالعقل عاجز أحياناً عن استيعاب أمر في ذات الجسد أو النفس التي هو فيها أو ما يكون بعيداً عنه لموانع مختلفة فهل يجب عليه أن يعي كل شيء أو يدرك كل شيء، فهذا ليس مطلوباً منه ولا ضرورياً له، فالعقل بإعماله بما وافق الفطرة لدالٌ صاحبه على الحق والهداية وإن عجزه عن إدراك أو معرفة الغيب والكل دليلٌ على أن فوق كلِ ذي علم عليم وانه مخلوق تابع لإرادة و مشيئة علوية وفقير في ذاته محتاج إلى ربه، وإِن التدبر والتأمل في خلق الله وعظمته سبحانه وشريعة الله وكمالها لهو عمل تعبدي وفهم إِيماني...

***

الباب التاسع عشر الإسلام ومفهوم الحلال والحرام

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يونس:٥٩].

قال ﷺ: «إنَّ الحلالَ بيِّن، والحرامَ بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس، فمن اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يقع فيه، ألا وإنَّ لكل ملك حمى، ألا وإنَّ حمى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» متفق عليه.

إن الإسلام في منهجه وأحكامه أتى شاملاً لكل مناحي حياة الإنسان، ومن باب كمال الدين أن أَتباعهُ كانوا في إحاطة كاملة في كل أمرهم وذلك من تمام العناية وما يصل الإنسان به إلى الغاية، ومن ذلك أحكاماً شرعها الشارع الحكيم تناولت كل دور وأي معاملة يقوم بها ليكون مستنيراً بنور الهداية ومنهج الحق فيتبع أوامر الله المفصلة في شرعه بنص كلام الله الكريم أو ما أُخبر عنِ الله من أَحكام عن طريق رسوله الأمين.

فأحكام الحلال والحرام التي شرعها الله سبحانه إنما تقوم على تحقيق الخير للبشر ومصلحة الإنسان والخيرية للمجتمع وإنما شُرعت لبيان الطريق الواضح والنهج القويم ومعرفة ما يُسمح للإنسان فيكون بذلك مطمئناً في أمره وفعله، موقناً بالخيرية في ذلك في نفسه وفي أمر غيره فما كان حلالاً فلا بد أن يترتب على ذلك ما هو خير ومصلحة للفرد وللجميع.

و في الجانب الآخر وهو تركُ ما نهى الله عنه وحرمه فالخالق أعلم بمن خلق وان الشرع الإسلامي راعى الإنسان في جوانبه كلها في نفسه وروحه وعقله وحتى علاقاتِه مع غيره وجعل كل ذلك مُنظَماً متوافقاً بما يكون مُكونِاً لإنسانٍ قويم متبعاً للحق والنهج الكريم موافقاً للاستقامة وللفطرة السليمة، وان انتهاك أمر الله عز وجل وتعدي حدوده لأمر فيه معصية وذنب يترتب عليه عقوبة من الله ويعود بالضرر

والمفسدة على مرتكبه وقد تتعدى المفسدة بما يوقع الضرر على الغير والذي قد يشمل المجتمع فيكون بذلك باباً من أبواب الشر وفيه تغييبٌ للمصلحة والمنفعة، فيرى بذلك تشويشٌ في حال المجتمع وغياباً ملحوظاً لصورة كمال الإيمان فيه ونقصاً في التمثل بهوية الإسلام فإنما من صفات أهل الإسلام وما هو ظاهر على حالهم للرائي هو ترك المحرمات واجتنابها وأماكن وقوعها فالإسلام لا يقبل ولا يتوافق إلا مع بيئة حملت الخيرية والشرعية.

و إن تنفيذ أحكام الله والرضا بها من صفات أهل الإيمان وأهل الإسلام، وانَّ العمل بما يوافق الأحكام وبترك ما نهي عنه لمرآه واضحة عن الالتزام وقبول الشرائع، وان الإنسان ليسمو بقدر ذلك من العمل والترك وفق ما أراد الله وشرع وفي كل ذلك صيانة للكرامة الإنسانية وتحقيقٌ للحياة الطيبة و علو إيمانيٌ وإنساني بترك الدونية من الأمور ، فإن متبع الإسلام يُحملُ صفة الشرعية والامتثال لأمر الله وهي ملازمة لحياته كُلها ومقياسٌ للإيمان والرضا بأمر الرحمن ويجد نتاج كل ذلك حقيقةً يوم العرض على المنان فيُكرم من أطاع بالرضا والجنان، وأما من خالف ولأمر الله عاند وجحد فذلك يوم فيه يحاسب بما كسبت يداه وله نارٌ فيها يُهان...

***

الباب العشرون الإسلام ونظام العقوبات

قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾[البقرة:١٧٩].

العقوبة وهي جزاءٌ يقدره الشارع الحكيم على ارتكاب أمر مخالف أو ترك أمرٍ ترتب عليه مخالفه، والعقوبة في إطارها العام تتضمن الحدود والتعزيز والقصاص...

* فالحدود: هي عقوبات مقدرة بنص شرعي وهي قطعية الثبوت وليس لأحد التصرف بها.

* والتعزير: هو تأديب لا حد فيه أو قصاص وقد خول الشارع الحكيم القاضي وأولي الأمر العمل به وهو ذو مرونة ومستمد من النظرة الشرعية.

* والقصاص: هو عقوبة على الجاني بمثل ما جنى وفيه جانب للعفو لأنه من حق العباد.

إن رسالة الإسلام أتت بنظم كاملة وقوانين وأحكام شرعية محكمة لتنظيم تلك العلاقة والسلوكيات بين الأفراد آخذةً بعين الاعتبار تطور المجتمعات واختلاف ظروفها وصالحه لمواجهة كل أوضاع وظروف الحياة زماناً ومكاناً فهي جامعة بين الثبات والمرونة والأصالة...

و إن الإسلام قام بحفظ الضروريات الكلية لكل ما يتعلق بالإنسان وان حال الإنسان في حياته لا بد له أن يتناولها كاملة، فعليها بكمال حفظها تقوم الحياة على الصورة الأكمل والأمثل لذلك كان من حكمة المشرع الكريم أن يحافظ عليها وأن يُوجِدَ المناخ الآمن والمستقر لممارسة الحياة على الصورة الأتم فكان نظام العقوبات في الإسلام ملازماً للنهي عن ارتكاب المخالفات وذلك لحمل الناس على منع ارتكابها فإن وجود العقوبة يعطي صورة عامة للمخالفة مرتبطة بجزاء يصيب مرتكبها، لذلك كانت العقوبة تؤدي دور النهي والزجر قبل وقوع المخالفة وتؤدي نفس الدور بعد تطبيق العقوبة على مرتكبها لغيره لئلا تقع عليه نفس العقوبة إن فعلها، وذلك هو

المقصود من العقوبة وهو منع وقوع المخالفة أو الجُرم الذي يترتب عليه ضررٌ يصيب أفراد المجتمع أو يتعدى لينشر حاله من الفوضى أو انعدام الأمن بالمجتمع، وفي حال إيقاع العقوبة على المخالف فإن ذلك يكون سداً لإيقاف مثل تلك التجاوزات من باب إيقاف المعتدي نفسه ومنع شره وتطاوله على الغير ولإغلاق باب من قد تسول له نفسه بالتعدي والمخالفة...

إنَّ المراد من العقوبة في الإسلام هو انتظام الحياة وإصلاح حياة الناس وتحقيق المناخ الملائم لهم فالإسلام أوجد المجتمع الإسلامي بصورته الكاملة ومن ثم وضع نظاماً للعقوبات حتى يحافظ على تلك الصورة المثالية ويحافظ على ديمومة الأمن والأمان بالنسبة للأفراد فتقوم حياتهم بشكل آمن يعرف كل فرد فيه ما له وما عليه فيأَمنُ على نفسه وحقه، ويُؤَمِنُ حقوق وأَنْفُس الآخرين فالعقوبة أساسها الحفاظ على المصلحة العامة ومصلحة الفرد والمجتمع.

***

الباب الواحد والعشرون الإسلام ووجود الاختلاف الفقهي فيه

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨].

أولاً لا بد أن نعي أنَّ الإنسان هو المكلَف وعليه تقوم وتجري الأحكام، وهو مع غيره من بني جنسه مُختلفٌ في طبائعه وقدراته على الإدراك وفي درجات ميله للأشياء، ومع أن أصل الإيجاد والنشأة واحد إلا أن الطبيعة البشرية جُبلت على التمايز والاختلاف وهذا أمر لازم لحكمة أرادها الخالق سبحانه وضرورة من ضروريات الاستخلاف..

إن الرائي لباب الاختلاف الفقهي في بنيان الإسلام قد يعتقد أن هذا منفذ ضعيف إليه أو خللٌ في صرحه الكامل ولكن تلك الرؤية انما تكون عن قصور في الفهم أو عداءٍ في الغاية، فأهلُ الصنعة وهم أهل الدين ومن كان من المسلمين يعلمون حقيقة الأمر وانه مدخل عام والاختلاف فيه إنما يكون أبوابا في أبواب مُشرَّعَة لفهم وتطبيق أحكام الدين، فهو اختلافُ تنوع وثراء وليس اختلاف نزاعٍ وتضاد، وإنما كان ذلك اختلافاً صحياً محموداً وعيناً متدفقةً بالعلوم، فهو اختلافٌ يثري الاستثمار العلمي والمعرفي، وفيه فهم متوسع للتطبيق العملي، وأيضاً مرونةٌ ايجابية للأحكام وتطبيقها على مدار اختلاف الزمان والمكان وتنوع الأفهام، وكل ذلك إنما يكون قائماً على قواعد شرعية ثابتة ومحاطاً بدائرة علمية مؤصله بالثوابتِ المعلومة من الدين...

إن الفقه في الإسلام وهو ربط النص بالواقع لسد حاجة الإنسان من الشريعة أمر عظيم وركيزة أساسية تقوم عليها أحوال المسلمين، وفيه بيان لكل أمرٍ ذي بال لهم، فهو إحاطة عملية وعلمية للمسلم وتطبيقٌ لما ورد من أحكام وتشريعات وبيانٌ لذلك كله، والاختلاف الفقهي إنما يكون في الفروع وليس في الأصل الثابت فهو اختلافٌ في الاجتهادات العملية الفقهية وليس في الأصول والمبادئ والاعتقاد، وهذا الاختلاف المحمود إنما هو رحمة وتيسير بالأمة الإسلامية وثروة تشريعية ومحل اعتزازٍ وبيانٌ

للقدرة الكمالية للدين وهذا الأمر متفَقٌ عليه بين الفقهاء وأهل الدين والمذاهب المعتبرة في الإسلام، وإنما كان ذلك الاختلاف بصورته الحميدة موجوداً لأسباب ذات اعتبار ومنذ بداية الإسلام الكريم، وحصلت في عهد الرسول ﷺ فتناولها بالإحسان ولم يثرب على أحد من الصحابة بما اجتهد في فهمه بما أُمر به، كما حصل عدة مراتٍ بحضرة الرسول ﷺ كمسألة صلاة العصر حين الذهاب لبني قريظة، ومسألة التيمم وإعادة الصلاة لحادثة حصلت بين صحابة سألوا فيها رسول الله فيما فعلوه، فما كان فيه أمر مخالف إلا وبينه الرسول الكريم وما كان فيه اختلافٌ لاختلاف فهم الصحابة عن أمر رسول الله وكان في دائرة الصواب وفي آلية تنفيذ أمره إلا وتناوله ﷺ بالإِحسان والرحمة...

ومع ازدياد الرقعة الإسلامية بالتوسع الدعوي والفتوحات والاختلاف الزماني والمكاني وتنوع الإدراكات والمستجدات ازداد الفقه توسعاً لسد حاجة الإنسان من الشريعة لتطبيق الأحكام وذلك وفقاً لقواعد وأصول ثابتة وبفهمٍ شرعي صحيح من قبل أهل العلم المُجمع عليهم بالقبول من الأمة الإسلامية.

ومن أسباب ذلك التوسع والاختلاف المحمود:

* الاختلاف في الملكات والقدرات الإدراكية وما تعلق بها من فهم الأدلة بثبوتها وماهية مدلولاتها.

* تنوع الفهم والسعة لمدلولات المفردات والمصلحات للغة العربية وهي لغة التنزيل ومنطوق الحديث الكريم.

* الاختلاف في فهم مراد النص ودرجة الحُجِّية لبعض المصادر ومعرفة علل الأحكام.

* المرونة الإيجابية المحمودة والمتفق عليها في إِيجاد المصالح والصور المتكاملة للأمر الواحد المتمثل لأَكثر من جانب من جوانب القبول والتطبيق.

* الاختلاف في القواعد والمبادئ الأصولية لأهل العلم والتي تصب جميعها في شمولية الكمال للدين والفهم الإسلامي.

* تنوع الأحداث والأمور المستجدة والتي رافقت التوسع واختلاف المعاملات فاستلزم الرجوع للأصل بالاجتهاد والقياس للحكم عليها.

وخلاصة الموضوع: إن تلك الثروة التشريعية والتنوع المُحْكَمْ بالأصول إنما هو دلالةٌ على المرونة وفق الثوابت الإسلامية وعلى شمولية الأحكام وكمال الدين وهي تيسير ورحمة بأهل الإسلام ومن جاورهم وإنّ القائمين عليها كانوا ممن اصطفاهم الله بالعلم والقدرة على الاجتهاد، وذلك رحمة وكرم من الله سبحانه وتأييداً منه بقولهِ سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

فالكريم العليم سبحانه يقيض لهذا الدين من يُبَلغُهُ ويعلم الناس أحكامهم وهذا إكمالٌ لمعنى الرسالة وتتمة لحفظ الدين فإن اختلفت الطرق لكن الأصل واحد والمنبع واحد وكُله في دائرة الحق ومن أصل الدين...

***

الباب الثاني والعشرون الإسلام وشمولية المنهج

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الشمولية لغةً هي الاحتواء والتضمين...

وشمولية الإسلام هي الاحتواء الكامل بالرؤية والمنهج الإسلامي على كل ما يدور الإنسان في فلكه من احتياجاتٌ في نفسه وفي علاقاته مع غيره وفي علاقته مع ربه... فالإحاطة الإسلامية احتوت أمر الدنيا والآخرة متمثلة بنظام شامل متكامل لمختلف مجالات الحياة وشؤونها وللحياة العقدية والتعبدية موجدةً ذلك النهج المتوازن بين أمور الدين وتشريعاته وبين الحياة بمختلف أدوارها وشؤونها.

إنَّ الإسلام دينٌ حمل في نفسه وشرعه الكمال وان كماله في جوانبه كُلِها، فكان جامعاً للأمر بما لا يحتاج إلى تدخل عنصر بشري فيه فهو بنظرِ أهل الحق والإنصاف والفطرة السليمة دين الله الذي ارتضاه لخلقه فكماله من كمال من رضيه للعالمين وان من عظيم أمر الإسلام انه يحمل صفة شمولية الكمال في ذاته، وصفه الشمولية في طرحه ورسالته، أما في ذاته فهو قائم بذاته مستقلٌ استقلالاً يغنيهِ عن عوزه لمجهود بشري يعدل أو يكمل عليه أو يضيف أمراً مُحدثاً ليس له أصل في الشرع لتغير زمان ومكان فهو متفرد باستيعابه للنواحي كلها و مُصلِحٌ وصالح لكل زمان ومكان، وتميزه أيضاً بمفهوم مفرداته ومصطلحاته والتي لا بد أن يرتبط فهمها الصحيح وإدراك ماهية مشروعيتها بفهم الإسلام و غايته من طرحها لكونها مشتقة من المفهوم الإسلامي العام ولا تأخذ إلا منه بشمولية الفهم والطرح فيعلم بمصدرها مُرادَها الذي دعت إليه ليتم أمر الله بها كما أراد ورضي..

ومن كماله في ذاته أيضاً أنك لا تجد أي تعارض فيه فأحكامه وأحواله وتشريعاته لا تتعارض فهي متممة لبعضها متكاملة الفهم والمعنى والغاية، وان اعتراك أمرُ ظاهرة التعارض فهذا يعود لقصور في الإدراك العام للإسلام واحتواء فهمه فلا شبهة او مقولة

حملت ذلك التعارض إلا كان ما يفسرها وما يزيل الحدة في فهمها، فإنما الإسلام رسالة حق فمن أراد الحق وجده في الإسلام ومن صاحب الباطل وكان من أهله فقلبه لا يدرك ذلك الجمال وذلك الكمال...

وشمولية الإسلام في طرحه لرسالته تضمنت الإطار العام والخاص للإنسان ومحيطه بكافة أحواله وعلاقاته وجميع أدواره وأتت شاملة لكل إنسان لأنها منهْج وشريعة ورسالة عالمية لا تخص فئة أو جماعة أو أمة دون الأخرى بل كانت للبشرية كآفة، وذلك ظاهرٌ في عدل الإسلام فلا تفاضل إلا بالتقوى، والمقياس هو الإيمان، وقد تناولت الرسالة السماوية بشمولها الكيان الإنساني بكافة أبعاده العقلية والروحية والمادية ونرى شموليته للزمان والمكان فهو دين الله وأصل الرسالات وهو دين من سبق ومن حضر والمستقبل وهو دعوة جميع الأنبياء فإن الدين عند الله الإسلام وان تشريعاته وأحكامه موافقة مُصْلِحةً لكل حين، فالخالق سبحانه أعلم بمن خلق واعلم بما فيه خير وأصلحُ لخلقه، فالإسلام منهج حياة وارتباط بالآخرة فتنظيمه لشؤون الحياة وبكافة مجالاتها وفق منظور شرعي محققاً بذلك أكمل الوجوه للرقي الإنساني والعدالة الاجتماعية والاستخلاف في الأرض ومتناولاً علاقة الإنسان مع ربه عالماً بالتكاليف ومستدلاً على الطريق وفق ما أمر الله وذلك كله من استقرار عام في النفس والروح بما وجد في الإِحاطة للحصول على الخيرية هو المقصود والموجود في دين الله وشرعه.

***

الباب الثالث والعشرون حكمة اختيار العرب مهداً للرسالة

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢].

وقال ربنا جل في علاه في كتابه الحكيم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

إن اختيار الله سبحانه وتعالى للعرب مَهْبطاً لرسالته ووحيه وكتابه العزيز أمرٌ يختص به سبحانه فهو أعلم وأحكم وليس لنا القدرة بادراك ذلك إلا من خلال ما أخبرنا به سبحانه أو عن طريق نبيه الكريم من توضيح لمراد الله فيما أمر، فالله عز في علياءه لا يُسأل عما يَفعل وكل الخلقِ يُسألون، ولكن النَّظر والتفكر ضمن آداب الشرع ورؤيته الجلية للأمور بابٌ لِفهم بعض الجوانب وإدراكٌ لأوجه الحكمة فيها.

ومن التساؤلات التي قد تطرأ على بال كل عاقل لماذا كان العرب مهداً وقاعدة لآخر الرسالات السماوية وبهم بدأت الرسالة وكانوا منبع الدعوة للإسلام ومنهم انتشر للعالمين؟ ولمحاولة الإجابة على هذا التساؤل لا بد لنا أن نعي ما هي تلك المميزات والسمات التي جعلتهم مؤهلين لذلك وما هي بعض تلك المقومات التي انفردوا بها عن باقي الشعوب في ذلك الوقت، ولا بد أن نعي معها أيضاً الصورة العامة للحضارات والمجتمعات التي عاصرت تلك الحقبة وما كانت عليه، ونحدد ذلك هنا ببعض النقاط الأساسية لنستدرك منها تلك الصور ولنوجِد ذلك الوعي للخروج من تلك التساؤلات..

* إنَّ الحال العام للأمم الأخرى كالرومانيين والفرس وغيرهم كان في اضطراب عقدي وتشوش فكري فالنظام الحياتي السائد آنذاك عندهم إما كان قائماً على فلسفة مادية بحته خالية من الجانب الروحاني الصحيح أو كان قائماً على خرافات واعتقادات باطله عن

حقائق الأمور أو خروجٍ عن الأصول الصحيحة للرسالات السابقة... فتلك الحال لم تجعلهم مؤهلين لحمل رسالة عالمية جديدة مع وجود تلك الرواسب العميقة في تصورهم وقيمهم وسلوكهم العام مع غيابٍ في المنظومة الخُلقية السوية في كثير من اتجاهاتهم.

* إن المشهور عند الناس أنَّ اليهودية والنصرانية من الديانات السماوية، وإن الانطباع المصاحب الذي يراه الناس نتيجة الخلل عند المنتسبين لهذه الرسالات جراء ما أصابها من تحريف ليرافقه الفقد في إعطاء الثقة لهم، فقد أخلَّوا بما لديهم فكيف يوثق بهم بما جد .

* بالنسبة للعرب فقد كانوا في بدائيةٍ بسيطة غير منغمسين في نهر الأفكار المنحرفة ولا العقائدُ المُحرفة، ومع ما أصابهم من ميل عن الحنيفية التي لم تأخذ دهرا طويلا منهم إلا أنهم بقيت لهم أعمال مشتركة معها.

ومع ما كانوا عليه من جاهلية وتعدي في السلوك إلا أنهم كانوا في عزلةٍ عن الحضارات الأخرى ولهم كيانٌ شبه مستقل مع اتساع الرقعة التي كانوا عليها لكن كانت لهم قيم إنسانية قلَّ ما تأثرت بالمدنيَّة فحافظوا على عاداتهم وعصبيتهم ونصرتهم لمكارم الأخلاق لحدٍ بلغ منهم الإسراف في بعض الأحيان، فالأصالة جِذْرٌ متمكن في السلوك العربي، وان القواعد الفطرية السليمة والقائمةُ عليها الأخلاق العربية بقيت كجزء راسخ في الشخصية العربية والتي تفردوا بها، فكان العربي يأنف من التقييد والقبول بدنايا الأمور مع طواعيته للخير أفضل من غيره، ومع ذلك كانت الحال العامة غير منتظمة والتطبيق الأخلاقي يأخذ أحياناً منحى غير سوي وإنما ذلك يعود لغياب التوجيه الفعال بالالتزام العقدي والقالب الإيماني، فطبائعهم أشبه ما تكون بالمادة الخام التي لم تأخذ أي شكل من أشكال الحضارة المحيطة بهم ويرى أيضاً فيهم الجانب الفطري السليم والنزعة القوية للإنسانية مع الغياب للصورة المثلى..

* إنَّ الثوابت الأخلاقية الحميدة والأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة عندهم ولها قيمتها ومكانتها نستطيع أن نعتبرها جزءاً مُؤَهِلاً لحمل الرسالة على أن تكون على هيئتها المثلى، وقد ظهرت تلك الهيئة المثلى وتضمنت تلك الصور العملية عندما شُذبت ووضعت في قالب الإسلام وفي التطبيق العملي للدين وتوجيهاته فتمت إعادة هيكلة تلك الشخصية بقالب إيماني وتشريعٍ رباني فتولد عنها إنسانٌ راقٍ برقي المنهج الذي اتبعه.

* إن التكليف بحمل تلك الرسالة يحتاج إلى أمور، ومن أَهمها القوة والأَمانة؛ والقُوى المعتبرة عند العرب كانت في ما اختصوا به من الميول للفطرة السليمة ومن جوده أفهامهم ونبوغهم في إدراكهم وعُلو قيمهم وفي نقاء خامتهم مع بروزهم بلغتهم العربية ورِفعة مَلَكَتِهم فكان كل ذلك باباً من أبواب القوامة لحمل وحفظ الرسالة وعمل الدعوة، ولازم ذلك الأمانة والقوة في الأداء والتي عُرفوا بها وتميزوا بها من الحفظ للمكارم والدفاع عن المعتقد وان كان ذلك يقابل الحياة عندهم، فالإسلام أتى وهذب كل ذلك وجعله في الطريق الأمثل والعمل الأكرم.

إنَّ الله الحكيم العليم اصطفى العرب من العالمين واصطفى منهم رسوله الأمين وكان ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب وذلك لحكمه أرادها الله سبحانه حتى لا يقول المبطلون أنه جاء بالقرآن من عنده.

وأضيف: ليعلم كل المتفلسفين في كل حين أن كلامهم وكلام أسلافهم من جهد عقلي ممجوج هو دوامات أفكار وليس شرعا أو حكمه فالشرع وصحيح علو الحكمة لا بد أن يكون من أمر الله وحده ويجعل له رسولاً مبلغا وناقلا.

وواقع رسول الله ﷺ هو أنه معلم البشرية وقدوة المسلمين وأسوتهم وندرك من ذلك الاختيار بكون النبي ﷺ أُميّ الإعجاز والتمكن وكمال الأمانة ونستسقي فهماً من ذلك بأن أميه العرب من نهجٍ وفهم كامل كانت دليلاً على عدم اختلاقهم ذلك الدين الجديد وهذا فيه ردٌ جلي على كل مبطلٍ ومُنْكِرْ..

وخلاصةً: فالأمر الأهم والفهم الأعم عندنا إِن الله قد اختص العرب برسالته وجعل منهم نبيه عليه السلام وجعل الميزان بالتقوى وما دام هذا أمره سبحانه فهذا يكفينا، فسبحانه ربي هو الحكيم العليم وهو أعلم حيث يجعل رسالته..

***

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد اختار وشَرَفَ العربية بأن جعلها لغة القرآن ووعاء التفكير والتواصل للرسالة السماوية الخاتمة، وان تنزيل القرآن الكريم باللغة العربية كان محلاً للإعجاز وباباً مفتوحاً للتحدي إلى قيام الساعة فالإعجاز وهو سمه من سمات القرآن ليس قاصراً على علو الأُسلوب علواً لا يضاهى ولا على الكمال اللغوي فحسب بل أيضاً على مستوى من التفكير والتعبير وإيصال الفكرة والدلالة على المقصود بهيئة وشكل لا يمكن ولا يصلح إلا أن يكون صادراً عن إله ولا إله إلا الله جل في علياءه وتقدست أسماءه.

فاختيار اللغة العربية لغةً للقرآن الكريم هو في حد ذاته دليلٌ كافٍ للدلالة على مكانتها وعلو شأنها وترشيحٌ لها لمرتبة العلو والتمكين، ومما يفهم ضمنياً ان حِفظُ الله لكتابه الكريم هو حفظٌ للغته وحفظها هو من الحفظ العام للدين.

وان اللغة العربية لَيُجْزَمُ القولُ بأنها لغة حية وإن نبض حياتها لواضح في سعة قدرتها وجمال أمرها ورونق طرحها فاني إن أقسمت أنَّ اللغة العربية ليس لها لغة تضاهيها أو تنافسها فإني أكون غير حانث ولا مدعي بلا دليل، فإنها تملك من عظيم مقومات، وسعة ادراكات، وتعدادٍ لمفردات ما لا يوجد في لغة أخرى وهذا أمر جلي ووضوحه بائن وكل منصف عاقل ليعلم ذلك ويستشعره، فدلالة الكلمة العربية في مكانها بتلك الصياغة وذلك البيان لتعطيك المعنى بدقة وفهم كأنك تعاينه، فالعربية لغة لها مساحةٌ واسعة في التعبير عُدمَ مثلها في اللغات وتمتلك من مقومات التصوير

التعبيري للمعنى الواحد تعدادٌ يشهد بذلك، ومن رقيها وجمالها ثراءها في الدلالة وعلو الدقة في إيصال المعنى والمطلوب للاستيعاب والإدراك والتصوير.

ونضرب مثلاً ليتضح به المقال ويبرز فيه الجمال، وترى جانباً من الفخامة، فالعرب تستخدم في مادة الإبصار كثير مفردات للتعبير والدلالة ومن ذلك رأى ورمق ولمح وشهد وبصر ورَقب وغير ذلك وكلها تصب في مادة الإبصار لكنها تحمل فروقاً تجعل المتلقي من سامعٍ أو قارئ يدرك ذلك التفاوت البديع في إيصال المعنى والدلالة، ومن ذلك قولك رمقَ يفيد الإبصار بطرف العين، وقولك لمح يفهم عنه الإبصار والنظر من بعد، و رنا إذا أطال النظر، و رقب إذا نظر من باب الحفظ، وغير ذلك من المفردات فأي جمال ذلك وأي حياة تعبيرية في ذلك، فتلك اللغة لحجم ما احتوت من تعدادٍ لجذور مفرداتها ليُعتبر غيرها فقيراً بالنسبة لها في ذلك، فإن زيادة التعداد و المبنى ليقابله زيادةٌ في المعنى والاستدلال، وليُعلم أن الترجمة للقرآن هي ترجمة للمعنى في عموم المفردات وليس لحقيقة الكلمة ومن ذلك حاول أن تترجم كلمة غفار وغفور أو عجيب وعُجاب فتعرف حقيقة ما أريد.

ولا بد أن نعي ونعلم أنَّ السهولة في الشيء ليس شرطاً للدلالة على أَفضليته، فسعة العربية وبيانها وجمال نطقها ودقة تعبيرها والروح السائدة بين كلماتها ومفرداتها يؤهلها لتكون في المقدمة ويجعلها صالحةً لتكون لساناً للإنسانية، ودليلنا على ذلك قول ربنا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، ورسولنا الكريم ﷺ وهو خيرُ من نطق بالضاد وأفلحَ من بلغ الدين للعباد كان رسولاً للعالمين، وبما أن الرسالة ولسان مبلغها عليه السلام كان بالعربية فهنا استدلالٌ لطيف على أن العربية ذات أُصولٍ نقية وهي في ذاتها نقية كما أن الفطرة الإنسانية بأصلها نقية، لذلك فهي تصلح كما قلنا لساناً للعالمين ومُخاطِبةً للنقاء فيهم وإنك إن نظرت للغة العربية وهي لغةٌ من اللغات المعربة و حروفها الثماني والعشرون، فإنك ترى باستخدام تلك الأسس والحروف لبناتٍ عند جمعها لتشكل منها مبانٍ لغوية وصوراً سمعية ودلالات عرضية

تحس فيها جمال ما أقول بل وفوق ما أقول، فاللغة العربية لها ذوق حسي خاص وجمالٌ تعبيري فريد وتعرف ذلك وتدركه حق إدراكه عندما تقرأ القرآن الكريم وهو كلام رب العالمين فتجول من جمال إلى جمال، ومن علو إلى علو ولا يذهب عقلك لفهمٍ خارج الإطار المطلوب ولا بعيداً عن المقصود، و لذلك حق عليك أن تدرسَ هذه اللغة وتتعلم السباحة في بحورها والاغتراف من علومها لتدرك من ذلك جمالَ ذلك، وأُنظر لأشعار العرب وخطبهم فتجد ما يسرك وما يحركُ فيك مشاعراً حية لما لتلك الكلمات من نبضٍ حي في الأسلوب والتداولٍ وجمال وجزالة إيصال المعنى.

ونقول أخيراً: لنعد إلى لغتنا وعلومها وحسن نطقها ولندع جانباً الأعجمية في اللسان والعامية في البيان وإني أُعجب ممن عنده الجواهر والدرر في اللغةِ والأدب فيذهب بلسانه وبيانه إلى ما هو دون ذلك مما ليس من أصل مَلِكتِه فيجمع الشتات وأعاجم الكلمات مع لغته فيحدث بذلك تشويهاً ونقصاً في جمال الصورة ونقاء البيان وهذا والله تغريبٌ للعربية وبابٌ من الخذلان.

***

الباب الخامس والعشرون الإسلام والحياة

الحياة كَلمةٌ ذات نبض تحس بها حين تقرأها فتدرك ذاتياً في نفسك حيويتها وتعي أَن ما جَمُدْ قد فقدها، ونريد هنا الحياة بمعنى ما هو ضد الموت وهي النمو والبقاء وهي الحالة التي يكون بها الإنسان مدركاً لمحيطه متفاعلاً معه بروح وجسد واعٍ في حياته الدنيا.

إنَّ الحق في الحياة هو الأساس الذي تُبنى عليه سائر الحقوق وقد كفل الإسلام حق الحياة للجميع دون استثناء أو تمييز، وهذا هو الأصل، فإن من الأساسيات والضروريات في الإسلام التي أُجمع على حفظها الضروريات الخمس وهي النفس والدين والعقل والعرض والمال.

ولا يجوز بأي حال من الأحوال الاعتداء على حياة الإنسان وسلبه إياها إلا بوجه شرعي وفق ضوابط مُحكمة، وقد فَرضت الشريعة العديد من الأحكام الصارمة للحفاظ عليها وسنت العقوبات لمن يتعدى على ذلك الحق.

وان الإسلام قد حَرَمَ الإيذاء بأي شكل قد يصيب النفس البشرية مادياً كان أو معنوياً فضلاً على إذهاب الحياة وهو الأعظم جُرماً والأعلى حرمة وقد عمل الإسلام على سد الذرائع المفضية لسلب الحياة وحَرَمَ أي عملٍ يؤدي لذلك.

وفي الإدراك والمفهوم الإسلامي لقيمة الحياة فإن من قتل نفساً بلا وجه حقٍ فكأنما قتل الناس جميعاً وذلك لأنه قد قتل الإنسانية فيها فتعدى على العام قبل الخاص.

و الإسلام الكريم قد كرم الإنسان وكرم حياته ولم يترك تلك الحياة حقاً لأحد يتصرف فيها كيفما يشاء فيحرم ويمنَعْ أي عمل قد يؤدي الى إيقاف تلك الحياة، فمتى كان الجنين في بطن أمه وحتى بلوغه ما شاء الله من السنين فلا يُتعرض لحياته بالإيذاء أو بالسلب ،وان من حكمة مشروعية القصاص في الإسلام أنها حمت الكل من سوء تصرف من خرج عن طور الصواب واعتدى وأسرف بسلب أغلى شيء في الإنسان وهو حياته، وان إيقاف ذلك المعتدي حتى وان كان بسلب حياته لما ارتكبت يداه فإنه

حياةٌ للمجتمع وإيقاف لتلكم الجريمة وسبحان من قال ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقد وضح الإسلام قيمة الحياة وخطورة التعرض لها وان الضوابط الشرعية المحكمة التي تناولت ذلك واضحة جلية، وان سوء التأويل والفهم العقيم للتعدي على أرواح البشر لهو من أعظم الجنايات وقد توعد الله سبحانه وتعالى فاعله بأشد العقوبات.

إن مفهوم الحياة من وجهه نظر الإسلام ذات نظره شاملة و واضحة، فقد خوطب العقل والقلب والروح فأوجد ذلك الاستقرار الذي يلازم الإنسان في حياته ومعناها لإدراكه ما هو، وما هي علاقته مع محيطه، و ما هو سبب وجوده في هذه الحياة الدنيا التي جعلت له كوسيلة لأَداء تلكم الرسالة الواضحة وتلكم الغاية الجليلة فاستقرت بذلك نفسه وعلت همته واطمأنت روحه لارتباطه بحقيقة وجوده وعبوديته لخالقه وأَنه بعد ذلك سيجد ما وعده ربه ،وان الحياة الدنيا ما هي إلا طريق لحياة الآخرة و التي فيها المستقر و الجمال والنعيم الكامل والتي نزِعت منها قِصر الحياة واعتمدَ الخلود وذلك من أجمل الكمال و أتم النعم فسبحان الله الحي المتعال.

***

الباب السادس والعشرون الإسلام ومفهومه للموت

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك:٢].

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الموت وهو ضد الحياة، وفي المفهوم الإسلامي فإن الإنسان عبارةٌ عن روح و جسد و إن خروج الروح من الجسد هو الموت.

والموت هو حقيقة، وأصعب من أن يوصف وأعلى من أن يدركه حي، فمتى أدركه الإنسان كان إدراكه له في عالم البرزخ، ولا اتصال بين عالم الدنيا وعالم الآخرة كالاتصال المعهود بين الأحياء، فالله سبحانه الحي الذي لا يموت قد كتب الموت على كآفة مخلوقاته، ورحله الحياة والموت طريق لا بد للجميع أن يسلكه وان من كمال الخالق سبحانه وتعالى انه لا يموت فهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، فسبحانه ملك الأمر وقهر عباده بالموت.

و مفهوم الموت في الإسلام بأنه تلك المرحلة التي تبدأ بها الحياة البرزخية وتنتهي بها الحياة الدنيوية، وهي عالم غير عالم الدنيا وقد حجبها الله بقدرته وبحكمته حتى يستطيع البشر أن يعيشوا بالعالم الأول وهو عالم الحياة الدنيا ويقدروا على إعمارها وأداء دورهم فيها الذي خلقوا لأجله وهو عبادة الله سبحانه وتعالى و ليتجهزوا للانتقال للعالم الآخر وهو العالم السرمدي الأبدي الذي يجدون فيه ما قدموا في حال دنياهم وحياتهم، فمن كان من أهل التسليم والقبول فبرحمة من الله كان في جنة النعيم وأخذ مرتبته فيها بعمله بما أطاع الله سبحانه وفق منهجه، وأما من أبى وعصى و خالف مراد الله في إيجاده وخلقه كان من أهل الجحيم وفي دركاتها على ما اقترفت يداه.

وإن أطوار الخلق للإنسان من العدم فالخلق أي وجوده في الحياة الدنيا، ثم الموت وهو بداية الحياة الآخرة لم تخلق عبثاً بل بتقدير عزيز حكيم، ومن دخل الإسلام أدرك

وأيقن برضا نفس أنَ الموت هو انتقال من الحياة الزائلة إلى الحياة الأبدية وهو الطريق إلى لقيا خالقه الرحمن الرحيم، فيعمل ما استطاع من أمر ربه بتحقيق الغاية بالتوحيد والعبادة وأن يقدم ما يستطيع من رصيد وعمل إيماني ليلقاه خيراً في أمره ويجد فيه جنة الطاعة ويلقى به رضا الله سبحانه، فمتى استقر الإيمان في القلب وزاد، زاد حب لقاء الرحمن الرحيم.

وننوه هنا إلى صيد خاطرنا وأصلُه من فهمنا لشرعنا، وذلك أن الموت داخل في باب النعمة والرحمة، نعم فهو رحمة في كثير أبواب، فكما تيقن الجميع بأن الضعف والتغيير والظلم والمرض والعجز وجميع عوارض الشر تحدث وتصيب الناس، فمن باب الرحمة أن كان الموت هنا ذهاباً لذلك كله وبدأً وتعاملٌ وشيءٌ جديد فلو كان الخلود في الدنيا فكيف يذهب الظلم أو المؤذيات عن الناس لو استحكم الظالم بالأمر، وأيضاً هناك اختيارُ الله الشهادة للبعض.

وقد عُلِم عند أهل الحق أنَّ صفة الكمال في حال النعيم في الجنة يلازمها الخلود فلذلك لا تصح في الدنيا بل هي في الآخرة.

***

الباب السابع والعشرون الإيمان بالغيب

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ١ – ٣].

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الغيب هو ما غاب عن إدراك الإنسان ويفهم شرعاً أنه ما استأثر به الله عز وجل ولم يُطْلِعْ عليه أحد إلا من شاء.

إذا كانت قضايا الدنيا بعمومها وجزئياتها تحتاجُ للإيمان للفعالية في العمل والإقبال على التناول، فمن باب أولى التصديق والإيمان بالمجمل العام للحياة بشاهدها وما كان غُيب عن علم أهلها وذلك لتتزن عملية التحرك والامتثال مع أصل الوجود ولتترسخ العقيدة لدى الإنسان بالتسليم للخالق سبحانه وتعالى، فالإيمان بالأمر الإلهي تصديقاً وامتثالاً يأخْذُ جُملةً ولا يتطلب أن يعرف الإنسان مجمل الأمر بحاضره وغائبة، فإمكانياته الحسية والإدراكية مُحددةً مع أصل خلقته وتكوينه، وهذا ليس من النقص في التهيئة لإتمام المطلوب لأن دور الاستخلاف والتكليف الذي أُنيط به دالٌ على كفاءته وقدرته على الإدراك وحمل الأمانة، وليس من التكليف الارتباط بالاطلاع على ما لم يحط به إدراكا أو علماً فهذا ليس من تخصص الإنسان ولا دور له فيه، بل هو علم الله جل في علاه ولا يُطلع عليه احد إلا من ارتضى من عباده سبحانه، وإن هذا لأمر منطقي ويقبله كل عاقل ويؤمن به كل متبع للأمر الإلهي ويكون جزءاً لديه من عقيدته وتسليمه، فطرف المخلوق في أمره وحاله هو تنفيذ أمر الخالق وإتباعُ تعاليمه، وأخذُ الحكمة والعلم كما وصل إليه بما أمر الله به من طرق الوصول والتبليغ من دون التدخل فيما أخفي عنه فجانبه كإنسان هو الطاعةُ والتنفيذ والإيمان .

و أما البحث في عالم الغيب فلم يؤمر به، ولماذا يَبحث في أمر قد أخفي عليه ومهما حاول فلن يبلغ علماً إلا بما أُخبر عنه في مصادر التشريع ، فإن كمالات الإيمان هي بالتصديق الجازم والامتثال الكامل، وان الإيمان بالغيب هو من ذلك، ودليل واضح

على أمرين أمر متعلق باليقين في تعظيم الخالق سبحانه وتعالى وكمال حكمته وعظيم سلطانه وسعة علمه وحكمة تدبيره وأن هذا العِظَمْ لا يُقدر على إدراكه والأمر الثاني في ذات النفس باستشعارها ذلك الشعور الحقيقي والثبوت الإيماني والاستشعار الحقيقي أن الأمر كله لله ولا غنى عنه سبحانه وان المَرَد إِليه، ووجوب الارتباط والدخول في معية الإيمان والتصديق لأَن الله سبحانه هو المدبر الخالق القيوم المحيط جل في علياءه وتقدسَت أسماءه وان هذا التصديق من القبول بالمنهج والأمر الإلهي.

وَليُعْلَمْ أن الإسلام لدينٌ كريم من أمرِ حكيم عليم محيطٌ بالإنسان في كل أدواره وحالاته في خلقه وحياته وفي آخرته ومماته، وهذا الاستيعاب من طرف الدين هو دليل الكمال وأَنَّه من ذي العزة والجلال، وكان فيه أمر الإنسان واضحاً جلياً فيما كان شاهده وفيما غُيب عنه، فأنت كإنسان مُكلفٌ بنفسك فهل تحاسب على تدبير شؤون غيرك ، فدورك هو أداء العبادة والبلوغ للغاية أما تصريفُ شؤون الآخرين فذلك أمر رب العالمين، فقدرتك محصورة وأيامك معدودة وعجزك واضح وما غُيب عنك فهذا أعلى من أن تدركه وأعظم من أن تعلمه فلذلك دورك الإيمان به والاطمئنان لعالمِهِ سبحانه، وبذلك يكتمل إيمانك وتستقر نفسُك وتحصن نفسَك، والفوز هو اللجوء لربك وطاعة أمره والتسليم لحكمته شاهداً كان أو غائباً عليك، وإذا أردت أمراً حسياً بسيطاً لتفهم موضوع الغيب، فهلا اجتهدت لتعرف من محيطك ما خفي عليك وعرفه غيرك وهذا مما لا يعد غيباً كلياً، فكيف بما لا تقدر عليه ولو جمعت معك كل من حولك، فألزم إيمانك تعرف حكمة وعظمة ربك.

***

الباب الثامن والعشرون الإسلام والحساب (يوم القيامة)

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١].

يوم الحساب هو يوم القيامة وبالمفهوم الشرعي الإسلامي هو إيقاف الناس على أعمالهم يوم القيامة خيراً كانت أو شر، ويكون ذلك على الإنس والجن، والذي يتولى الحساب هو الله سبحانه وتعالى، ويوم الحساب ثابت لا شكَ فيه أو ريب، وهو من أركان الإيمان لدى المسلمين.

فمن كان من أهل الله بما أطاع أمر ربه وشكر فبرحمة الله هو في رضوان وجنة نعيم وجميلُ مُستقر، وأما من أبى وكفر ولخلق الله ظلم وأَحتقر ولدين الحقِ عارض وهجر فبعدل الله هو في جحيم وعذاب اليم ومكان في سقر وذلك شر مستقرْ.

إن الدنيا لهي دار ممَر إلى دار المستقر، فإذا كان يوم القيامة ونفخ في الصور فرط عقد الكون بأمر الله فتغير كلُ شيء فليست الدنيا كما عهدناها ولا السماء كما كنا نراها ، فينتهي كل شيء وتموت كل الخلائق، وانه ليوم عظيم فلا تقدر الكلمات على وصفة ولا الجوارح على إدراكه ولا يعلم قدره إلا العظيم الحكيم، ويومه كخمسين ألف سنة من سنين الدنيا، وعند وقوعه تتشقق السماء وتتكور الشمس وينخسف القمر وتنكدر النجوم، وانه لحق ساطع ولأمر على الجميع واقع، فلا يبقى إلا الله عز وجل مالك الملك فيقول ربنا: لمن الملك اليوم فلا أحد يجيب فيجيب الله متى شاء لله الواحد القهار، وحَقَ له ذلك فهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، وانه ليوم محتوم تُجمع فيه العموم ويتلاقى الخصوم، وهذا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وهذا ما وعد الرحمن، وصدق المرسلون.

ومع عِظم ذلك اليوم وشِدةِ أحواله فإنه على المؤمنين ليس كذلك مما يصيب غيرهم من غير المؤمنين، فالله هو رحمن الدنيا رحيم الآخرة، فهنيئاً لمن آمن واستعد وأعد العدة لذلك اليوم.

إن الإسلام هو دين الله، والله سبحانه هو الحكم العدل، والحكمة والعدل من الكمالات الثابتة لله سبحانه وتعالى ومن حكمته وعدله إعطاء كل ذي حق حقه، فالعدل الإلهي يقتضي أن يكون هناك ميعاداً يُحاسَبُ فيه جميع الخلق فيثاب من أطاع ويعاقب من عصى، وان لم يكن هناك حساب فهنا سيستوي العمل المشروع وتنفيذ أمر الله بالعبادة وهو سبب الوجود و ترك ما نهى الله عنه ونبذ الشرك والظلم مع ضده، والعدل أنَّ لكل شيءٍ ما يقابله، إن صلح وفق أمر الله فله الثواب وحسن المآب وان كان خلاف ذلك فله العقاب وهذا هو كمال العدل، فإن النفس يضبِطُها وتكون في دائرة الأمان والرضا متى عَلِمتْ أن ما تفعله بما أَمر الله فإن أَجره وحسابه على الله وأَنها ستفصل عمن لم يلتزم بشرع الله وأن الحقوق والمظالم سيحكم بها العدل الحكم فتأخذ حقها بما أراد الله.

فالإسلام دين كامل متكامل موافق للعقل والفطرة انزله الله للعباد وبين لهم أَمْرهم وأَمَرهم بطاعته وبعث لهم بالرسل فأقام الحجة عليهم ولم يخلقهم عبثاً ولا وضعهم في حالةٍ فيها يتيهون بل جعل لهم منهجاً كاملاً غير منقوص فيه الخير لهم في دنياهم ولهم خير الجزاء به يوم لقياهم، فالدنيا هي دار اختبار والآخرة هي دار القرار.

***

الباب التاسع والعشرون مفهوم الجهاد في الإسلام

قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور،

الجهاد لغةً هو بذل الوسع والطاقة أي بذل الجهد..

وفي المفهوم الإسلامي فالجهاد نوعان جهادٌ يخصَ الفرد في نفسه بأن يبذل الجُهدَ في فعل الخيرات وترك الشهوات والشبهات وبذل الوسع في طلب ما ينفعه في أمر دينه وحال دنياه والسعي على ذلك لتأمين الحياة الكريمة وفق مجتمعٍ شرعي متوافقٍ متكامل يبذلَ كلُ فردٍ فيه بما يعود على الجميع بالخير ونشر الدعوة والفضيلة وهذا هو الجهاد الأصغر.

أما الجهاد الأكبر فهو بذل الجهد في قتال الكفار والمشركين ومن في حكمهم ممن يضمر الشر بالأمة الإسلامية، فيقصد بالجهاد هنا إعلاء كلمة الله وحفظ الدين.. وإنَّ حصر مفهوم الجهاد في القتال هو خطأ في فهم الكتاب والسنة.

إن الإسلام مستمدٌ من السلام والله الخالق سبحانه هو السلام، وان أصل العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين هو السلام فأساس التعامل هو البر والقسط مع الناس جميعاً فرسالة الإسلام هي رسالة سمحاء قدَّرت الإنسانية والنفس البشرية وجعلتها في مرتبة راقية محفوظة مكرمة وفق مجتمع منضبط بأحكام وتشريعات مستمدة من دين أراد لها الخير والطمأنينة والأمان..

وإن من كمال العناية وحفظ الغاية بأن شرع الإسلام الجهاد، وقد وضع له أحكاماً وشروطاً وضوابط قل نظيرها بما حمل من فضائل بواعثه وعدالة سيرته وما يَرمي اليه،

فكمال الإسلام كمالٌ في كل أحواله في علاقته مع أفراده وفي علاقته مع الغير وفي تعامله في حال التعرض له بما يلحق الضرر من تعدي يصيب أفراده أو كيانه، فالإسلام راق عادلٍ في حال السِلمْ وفي حال الحرب... والجهاد في مفهومنا الإسلامي أعم من القتال فالإسلام دين ودولة وإنما القتال هو وسيلة لا غاية...

وان الإسلام عندما شرع الجهاد جعل الغاية الأسمى له هي إعلاء كلمة الله وَشَرَعَ القتال لدفع الاعتداء وليس لذات القتال فالقصد ليس القتل بل دفع الضرر الأعظم الذي قد يصيب الأمة أو يمس دينها أو مقدراتها المحفوظة أو يحاربها في أصل وجودها وهي عبادة الله ونشر دينه، ولم يترك أمر القتال على عواهنه بلا ضوابط جلية أو يتركه بيد فرد أو فكر بل أحاله إلى قائد الأمة أو إمامها فيكون العمل به ملازما للمصلحة العامة وتحت إشرافهم فهم القائمون على حدود الدين وتنفيذ أحكامه وفق شرع الله، وقد راعى الإسلام أي مراعاة أحوال القتال وما قد يترتب عليه فأوعز بعدم التمادي إلا على من اعتدى وان لا يتجاوز ذلك إلى العموم وان تحفظ الأعراض ولا يُتَعَرضُ إلى من لم يكن لهم دور في هذا القتال من الجانب الآخر في أنفسهم أو مقدراتهم أو أماكن عبادتهم، وأن تحفظ النفس البشرية في حال الأسر وان تراعى الحقوق الإنسانية فالقصد من رسالة السلام هو الحفاظ على الحياة وحفظ كرامتها وليس سلبها أو إهدار كرامتها ، فالفرق بين الجهاد بالمفهوم الإسلامي الصحيح وبين التعدي فرق في الجوهر والغاية، والاختلاف واضحٌ بَيِّنْ بينَ مفهومه ومقاصده وأَحكامه وبين التعدي فالجهاد إنما يُقصَدُ منه الأمن والأمان وإيجاد حالة الاستقرار وحفظ المصالح، فأما التعدي غير المشروع فقائم على ترويع الآمنين وتدمير مصالحهم وإباحة الدماء بالشبهة والتعدي على الإنسانية وكل ذلك خلافٌ لما أراده الإسلام وحث عليه...

***

الباب الثلاثون الشخصية الإسلامية

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢٠].

قال ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه» متفق عليه عن أبي موسى الأشعري.

الشخصية هي تلك الهيئة السلوكية والفكرية للإنسان والظاهرة عملياً في نظرته لنفسه وتقديره لذاته وفي أمر تفكيره واتجاهه السلوكي العام والخاص، ويكون كل ذلك مبنياً على مقدار ما ملكت نفسه من قدرات ومكتسبات عقلية واجتماعية، وان الشخصية لهيئة عامة يشترك فيها الجميع ويكونون فيها على درجات متباينة وقدرات متفاوتة وأن ذلك لراجع إلى الرصيد العام لتلك الشخصية وللاعتبارات المعمول بها في التشكيل الأولي لها.

و قصدُنا في الأمر هنا على الشخصية الإسلامية فحسب فهي شخصية تختلف عن سواها لأن لها مرجعاً وسقيا تختلف عن غيرها في مشاربها فعلوها وكمال أمرها البشري معتمِدٌ على درجة ارتوائها من منابع الشريعة والمنهج والثقافة الإسلامية أَلا أنه لا كمالَ لبشر إلا لمن ارتضاه الله سبحانه من عباده ولكننا هنا على يقين أن الشخصية الإسلامية بلغت المكيال الأوفى في العلو والرقي الإنساني القيمي والسلوكي الاجتماعي وكيف لا وأمرها الذي تعتمد عليه صادر عن توجيهٍ إلهي ووعي إيماني وقدوةٍ عملية من شخصية نبوية كانت الأرقى والأعلى والأكمل، ومن كان الشاهد الأول الذي تلقى ذلك النور واستقى منه فنبت عليه وهم رمزنا وخيارنا رضوان الله عليهم أجمعين وأزكى وأتم

التسليم على معلمهم ومربيهم ومربينا سيد الأولين والآخرين الذي بعث رحمة للعالمين...

وكما قلنا فمحورنا دائرٌ على الشخصية الإسلامية وما ميز حالها، فالاشتراكات الإنسانية معمولٌ بها لكن الاعتبار هنا قائم على ذلك البناء الأمثل القائمُ على فهمٍ شرعي وسلوك تعبدي من توجيهاتٍ سامية و الذي من الأحرى أن يكون المثال الأعلى والقدوة للغير، لأن القياس دائماً يؤخذ على الأقوم والأكمل، فكمال تلك الشخصية المستمدٌ من كمال الشرائع التي أُسست عليها واقترنت بها فحملت بذلك فكراً وسلوكاً دالاً على ذلك ومؤشراً عليه، و يُجدر أن يُعلم أن الأساس ثابتٌ كامل والمقترن به قد يتفاوت في أمر الاقتران والتطبيق وذلك لبشريته وعدم معصوميته فكلما راعت الشخصية حق الأمر كلما ارتقت بنفسها وعلت في سمو الفعل والفكر.

وإن من تَمَيُّز الشخصية الإسلامية ومن تمايزها على غيرها ما يلي:

* إنها شخصيةٌ بنيت على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعن الفهم الأنقى لمن استسقى من تلك التعاليم.

* إن الشخصية الإسلامية قائمةٌ على الثبات الإيماني والاتزان العقلي الإدراكي بما قامت عليه من عقائد صحيحة وشرائع قويمة واعتبارات فطرية سليمة وارتباط اعتزازي بالدين وبالمقدرات الإسلامية ذات السمو العقلي والتوجه الإيماني الشامل.

* الشخصية الإسلامية ذات طابع ارتقائي وخيري بما حوت من فهم وتعاليم أوجدت لديها ميلاً إلى السلوك الأرقى والتوجه الأسمى فهي مُشَكَّلَةٌ على عين الشريعة وتوجيهاتها فبذلك تكون الشخصية الإسلامية دائبة في الإصلاح الذاتي والارتقاء العملي والرقابة الذاتية ضمن ذلك التوجيه وذلك الإرشاد المبني على مبادئ وقيم مثلى.

* تتميز الشخصية الإسلامية بإحساس السعادة والطمأنينة المصاحب للسلوك المتوائم مع نقاء الفطرة وجمال التشريع، وأضف إلى ذلك قدرتها على مواجهة محدثات

الأمور ومجريات الوقائع لما لها من فهمٍ وإدراك إيماني عن الحقائق وتصديق تعبدي لمسائل القضاء والقدر، وأيضاً الشعور بالآخر والمسؤولية في ذلك.

* إنها شخصية ذات طابع متزن في جوامع النفس البشرية من عقل وروح وجسد وان ذلك الاتزان المنهج باعتبارات وقيم سلوكية ذات تأصيل شرعي لم يجعل تلك الشخصية تميل كل الميل إلى جانب على حساب الآخر فلا تميل إلى المادة كرغبةٍ للجسد دون قيود أو مراعاة للمصلحة الدنيوية أو الأخروية فيكون حينها الإنسان بذلك أقرب إلى الحيوانية إذا ما استأثر بجانبه المادي وأهمل ما سواه، فكانت نظرتها للمادة نظرة اكتفاء وسبيل لتحقيق غاية أسمى وقدرة أمثل على الاستخلاف فاستَعلَتْ بذلك القيمة الذاتية للإنسان بالارتقاء الحاصل من تقييم الأشياء ووضعها في مكانها الصحيح، ومن ذلك أيضاً انها لا تغلب الروحانية على الطابع العام بحيث تكون الرهبانية هي المقصود فذلك مما لم يأمُرْ به الشرع ولم يحبذه، بل المراد هو التوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، وان تلك المراعاة والنسقية العادلة أوجدت شخصية ذات اتزان واقعي تجد غايتها في العبادة وأمر التكاليف وتجد لذتها في الماديات بشكلٍ راق وملائم لأصل التكريم ومن ذلك ما تجده من نسقٍ بين الظاهر والباطن أي ما بين الشكل والمضمون.

* الشخصية الإسلامية حق لها أن يلاحظ فيها علو المكانة الداخلية وارتفاع قيمه الأنا الشعورية للمسلم لما تثبَّت به من ثوابت وما أُنيط به من مسؤوليات من تبليغ الرسالة الخاتمة فذلك التبليغ والإرشاد للغير على الدين كان ترشيحاً لتلك الشخصية لسمو الرفعة والمكانة بين الأمم وعلو الأمانة والخيرية العامة.

* الشخصية الإسلامية ذات سمة استقلالية وذات كفاية ذاتية من الموارد الثقافية والتوجيه والتشريعات وهذا سد متين وباب مغلق يحول دون ذوبان الشخصية الإسلامية في شخصيات الغير او ثقافاتهم وانتهاجه لدور المقلد للآخرين وبالتالي فقدان الهوية الإسلامية وتعطيل العلاقة الإيمانية بين الأصل والتراث.

ومما ترتب على ذلك التميز وتلك القوامة للشخصية الإسلامية إنها ذات ميل فعال للبناء الذاتي والاصطلاح والبناء المجتمعي العام، وذات نزعة ايجابية عملية في إعمال مبادئ التكافل الاجتماعي والسلوك الأخلاقي القويم والمبادئ المثلى والصفات الأعلى والتعاون الفعلي على البر والتقوى في حالةٍ من الاندماج المجتمعي التشاركي والتقارب الانفعالي العام وكل ذلك مستمدٌ ومتوافق مع المسار الشرعي الإسلامي.

وأخيراً لا بد لنا أن نَعرُجَ بقولنا على ما يحدث من مزاحمةٍ للشخصية الإسلامية وما يفتحُ عليها من أبواب التغريب وذلك للنيل منها أو لإذابتها في شخصية الغير وثقافته وذلك بوضعها في قوالب غربية أو ذات طابع غير شرعي، وان ضعف الامتثال والتطبيق وضمور الوازع الديني وضحالة النهج الفكري والثقافي لدى بعض الأفراد الذين ينتسبون أحيانا اسماً للإسلام ليُحدِثُ اضطراباً وانفصاماً في الشخصية لديهم وتكون فيها لذلك الصورة مشوهة عن الإسلام، وهذا هو المقصود لمن نصب العداء ومكر بالخفاء وذلك بتشويه رؤية الناظر للإسلام من بعيد وإضعاف الإرادة العامة وتقدير الذات للقريب، فالله الله في حالنا وشخصنا ولتكن أُمورنا كما يحب ربنا فعندنا ما فيه خيرنا وعلاجُ حالنا وإصلاح أمرنا فلنتمسك به وهو شرعَةُ ربنا لنعود ويعود سابق عهدنا وحقيقة قَدرِنا فنقود الأمم وتعلو الهمم فالإسلام بشخصه هو المنهاج الأمثل والعلاج الأكمل والقالب الأجمل للإنسانية وللعالمين.

***

الباب الواحد والثلاثون الإسلام والرفق

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].

قال ﷺ «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه» مسلم

قال ﷺ «إن الله يحب الرفقُ في الأمر كله» البخاري.

الرفق هو اللطف ولين الجانب في القول والفعل، وهو ضد العنف.

إن الإسلام الكريم دينٌ جَمَعَ الجمال كُلَه، وحث على كلِ راق في الخُلق والمعاملة بل وحث على الرقي في كل أَمر الإنسان، فالإسلام يريد من الإنسان أن يكون مرآةً عن الرسالة والمنهج الذي يتبعه بتلك الصورة التي تعطي الانطباع عن جمال وكمال التعاليم التي أُنزلت، والتي أمر الله بها وفيها الخير كله وفيها النقاء والصفاء كله، والتي كم أخذت منها وتمسكت بتعاليمها رأيت انعكاسها في نفسك وسلوكك ورقيك في شأنك، فالأصل ثابت لا تشوبه الحوادث ولا يعتريه النقص، فكلما اقتربت كلما للخير رأيت وبالإيمان علوت وبالجمال تميزت.

إن الإسلام دين الفضائل والمكارم فهو يحب معالي الأمور ومكارم الأخلاق ويحث عليها فلا تجد أمراً جمع الخير والحُسن والفضيلة إلا وحث الإسلام عليه ورغب به ووعد فاعله بحسن الثواب في الدنيا والآخرة، وان من جوامع حسن السلوك التي أرادها الإسلام سلوكٌ يحْملهُ كُلُ كَريمٍ، وهي صفة ملازمة لكل تعاملٍ يقوم به الإنسان القويم وهي الرفق، فالرفق هو عنوان يظهر منه مقياس الشخص ورحمته وهي دلالة على فهم وإِدراك روح الإسلام التي تدعو الى الرحمة والسُمو لأعلى مراتب الإنسانية وأَرقاها.

و الرفق مطلوبٌ بأصله في كل ما يقوم به الإنسان مع نفسه أو مع غيره فهو الصفة التي أن لازمت الفعل تحَصَّل بها المقصود بأجمل صورة، والإسلام يدعو إلى التيسير والرفق في الأمر كله، والإنسان كلٌ على حده أعلمُ بقدرته وطاقته فليس مطلوباً منه

أكثر مما يستطيع فقليلٌ دائم خيرٌ من كثير منقطع وإجبار النفس على ما لا تقدر عليه يجعلها تنفر منه، فيُحَصِّل بالرفق ما لا يحصل بسواه وهذا مع نفسه، أما مع سواه فيراعى الرفق بهم والإحسان إليهم، فالناس على أحوال ومراتب ويؤخذ القياس على أضعفهم، فديننا دين رحمة ودين رفق وواجبٌ على كل من تولى أمور غيره أن يرفق بهم، أسره يعيلها كانت، أو من كانوا تحته في نطاق عمل أو سُلطة، وإن إيصال المراد بالرفق وحسن المعاملة لأبلغ وأتم في إيصال المعنى والوصول إلى الهدف المرجو، وان سِمِة الرفق والعفو والتسامح لهي باب سلوكيٌ حميد ومطلوب في أبواب الدعوة إلى الإسلام، فوجب على المسلم أن يكون داعياً في سلوكه وظاهره قبل كلامه وعلمه، فأخلاق الإنسان تراها وتحس بها قبل أن تَسمع صاحبها، وتلك الجماليات والسلوكيات لا تحتاج إلى مترجم بين من اختلفت لغاتهم فهي لغة يعرفها كل من يحمل الإنسانية.

ولنا في ديننا الحنيف شاهد حيٌ بقلوبنا وحسن سلوكنا المتمثل بشخص سيدنا ونبينا صلى الله عليه وسلم، فترى في حياته وسنته جمال الرفق وحسن معانيه، وكمال البشر وذلك حقاً فيه، وترى رفقه ورحمته وسامق الأخلاق مع أهله ومع المسلمين ومع غير المسلمين، وحتى مع الحيوانات، فكان رفيقاً رحيماً فملك القلب عليه أزكى الصلوات وأتم التسليمات.

***

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

إن الأُسرة هي تلك الوحدة الأساسية في بناء المجتمع ولبنتهُ في ذلك، وعليها قيام الأمر، وهي الركيزة الأساسية في دوائر التداول الاجتماعي والتطبيق الشرعي، فلا دائرة من الدوائر في أمر تداولها أو امتثالها إلا ويتقاطع مع الأسرة، فالفرد ليس مستقلاً بذاته فهو إما فردٌ أتى من أُسرة أو فرد مُكوِنٌ لأسرة، وما يحدث في المحيط إنما تأثيره واقع على الفرد، ومعلومٌ أن الأسرة هي حاضنة الأفراد فلذلك يصيبها وينتقل إليها ما يصيب المحيط وتتعامل معه إما بشكل مباشر أو من خلال طرف منها.

والأُسرة في الإسلام لها مفهوم راقٍ ونظرة شاملة وحفظٌ مخصص، وذلك لما لها من علوٍ في الاعتبار وتمثيل عن المجتمع ككل، وكيف لا وهي نواته وجزءٌ من أجزاءه، وان نظرة الإسلام للأسرة بدايةً لها كتعريف: أنها تلك المجموعة التي تشكلت من ارتباطٍ شرعي وعلى عقدٍ محكم بين رجل وامرأة فحصل بذلك ارتباطٌ أعم بين أُسرتين بعلاقة النسب والمصاهرة فاندمجوا بذلك مشكلين أسرةً اكبر بتلك العلاقة وذلك النسب، فيراعى ويفهم أن تشكيل الأسرة كبداية هو توسيعٌ في الأسرة العامة وامتدادُ لإحكام النسيج المجتمعي وذلك بصورة شرعية مقبولة يراعي كل طرف فيها ما له وما عليه، فيتأتى عن ذلك تآزر وتوادٌ بين الأفراد وتراحمٌ بما حصل من التمدد في العلاقات والتعارف المحمود خُلقاً والمُقَّعد له شرعاً.

وان عموم الرعاية وبالغ الاهتمام للأُسرة في الإسلام إنما هو نابعٌ أَيضاً لإنها المَجْمَعْ الأَولي في المجتمع الكبير، فهي نائب عنه وهو مجموعها، وإنها الصورة الأوضح والمقياس الحقيقي للأمر المجتمعي والتمثيل الشرعي، ويقاس عليها ذلك، ويعرف

عنها درجة الصحة العامة للمجتمع، ومدى الإقبال والامتثال فهي عاكسة لصورة المجتمع العام ومقياسٌ لسلوكه.

والإسلام عندما تناول الأُسرة، أرادها أُسرةً شرعيةً إسلامية تحفظ في داخلها أفرادها وتحتضنهم وتؤمن لهم التربية والرعاية وتضمن من خلال ذلك أمنهم المعيشي والنفسي، وكل ذلك ضمن إطار بفهم وعمل شرعي فتكون مدرسةً تُخَرِّجُ أفراداً ذوي كفاءة نفسية وقدرةٍ اجتماعية متعلمين أمر دينهم وشرع ربهم ومؤثرين في غيرهم، وان خير ذلك لعائد على الأسرة كبداية وعلى المحيط المجتمعي كعموم لما هنالك من تقاطع في الدوائر الأسرية مع الحياة المجتمعية.

فنجاح الأسرة ورقي أمرها هو رقي داخلٌ في المحصول العام للناتج المجتمعي ومؤثر ذو فعالية فيه، بل ومتعدي في خيريته إلى أبعد من ذلك لمن يجاورون أهل الإسلام أو يسكنون أرضه أو يعاملونه، فكل أمر خيري تتحصل عليه الأُسرة هو شاملٌ للفرد والمجتمع والمحيط العام.

وان من جمالات الإسلام أن راعى الفرد في أمره مع أسرته وفي أطوار حياته كلها، فهو مذ بدأ وجوده ونعومة أظفاره انتقالاً إلى كبره وحنو ظهره قد روعي في ذلك كله وبُيِّنَ ما لهُ وما عليه من حقوقٍ وواجبات، وهذا التناول حفظ له طفولته ورحم له شيخوخته ، فدورة في واجباته كانت لغيره من أُسرته حقوق، وحقوقه في بعض أمره واجبٌ على غيره، فالعلاقة هنا علاقةٌ تكافلية وذات طابع شرعي وعلو إنساني وجمال أخلاقي، وان الدائرة التكاملية المحيطة بالأسرة والتي حث عليها الشرع بأن تكون خطوطها إيمانيةً مستمدةً من التوجيه الحكيم لرب العالمين ومن القدوة الكريمة من السنة الشريفة لهي خير على خير فالمجتمع الإسلامي ما هو إلا أسرة كبيرة حوت أفراداً وأُسراً متعددة، وإن الإقبال على الإسلام امتثالاً وتطبيقاً فيه السعادة والخير على كل حال وذي أمر وفيه أيضاً مناعةٌ لما قد يستهدف الأُسر من عظيم شر أو تغريبٍ مقصود.

فالنيل من الأُسرة هو اعتداءٌ على الصرح المجتمعي العام وضربٌ في أساسه.

فالحذر الحذر ولنكن ممن يُخرجُ جيلاً وأُسَرَ مطيعةً لربها بارةً بمن سبقها ناقلةً للخير والشرع لِمن بعدها، فيتم بذلك التواصلُ والتراحم لأمة الإسلام ولأسرته منذُ بِدأ الرسالة إلى قيام الساعة.

***

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

قال تعالى: ﴿٤ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٥].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون ٥ – ٧].

إنَّ من أهم مقاصد الشريعة هي حفظ الإنسان وما تعلق به من ضروريات حياته، وهذا جلي واضح لمن تذوق طعم الإيمان وعرف معنى الإسلام، ومن ذلك الحفظ وتلك الإحاطة بحفظ حقوقه ونقاء نفسه واتزان علاقاته، ما تناوله توجيهاً وبياناً وتنبيهاً بالنسبة لعلاقاته مع غيره من ناحية النسب والاتصال بأنواعه ، فلذلك عني الإسلام أيما عناية بتنظيم العلاقات داخل المجتمع الإسلامي ورفع من قدرها لتتناسب مع مقدمة التكريم والكرامة التي حظي بها الإنسان ومُيز بها عمن لم يعقل وليس له ضابط التكليف... فعلاقات الاتصال الإنسانية المعروفة للجميع أخذت منحىً مختلف في ظل الإسلام فمع كونها عملية طبيعية موجودة مع فطرة الإنسان واحتياجاته الجسدية إلا أنها اتسمت بالوضوح والرقي في طرف الإسلام، وذلك بأن جُعلت تحت شروطٍ معتبرة ومناخ يرقى بها لمعاملةٍ إنسانية راقية محفوظةِ الكرامة مراعيةً لحقوق جميع الأطراف وواضحة النتائج من حيث النسب والتثبت من درجات القرابة، وكل علاقةٍ كانت قبل الإسلام وكانت مخالفة لم يعمل بها في شريعة الإسلام، وان تلك الأحكام التي نَظَمت وتعاملت مع ذلك لا تجد لها رقياً وإنسانيةً أجمل ولا أرقى مما أوجد الإسلام حُكماً وتشريعاً وانضباطاً، وإننا لو نظرنا بعين المجتمع السوي إلى علاقات

الأفراد التي لم تنضبط بالضابط الشرعي الحنيف لوجدنا ذلك الانسلاخ من الإنسانية والاتجاه للحيوانية في التصرفات والعلاقات ، وذلك واضحٌ في تلك المجتمعات التي تعدت الحيوانية بدرجات بما كان لها من اعتبار الرضا بين الطرفين هو الضابط للقبول المجتمعي للعلاقة، وهذا مما تأباه الفِطَر السليمة والعقول الكريمة، وإننا كأهل إسلام لا يرتضى عندنا أن تكون هناك خلوة بين أطراف قد ينشأ عنها مفسدة، فكان سد الذرائع هنا حائلاً لوقوع ما لا تحمد عقباه، وإذا كان التدرج من النظرة الأولى لما يليه مبنياً على التقوى والانضباط فهذا من باب أولى أن يكون نهجاً معتبراً راقياً دالاً على تكريم الإنسان ومراد العلو في أمره ولا تجده بهذا الحفظ وهذا الاعتبار إلا في الإسلام.

وكما قلنا فالإسلام أحاط بالإنسان بدائرة حافظة مُحكمة في الخير نابعةً من كماله وعلو قدره وشمولية أمره، فأمر النسب وما يتولد عنه من أحكام المواريث والزواج والحقوق والواجبات أمر معتبر، والعلاقات وارتباطها بالأخلاق والقيم والحدود كذلك حملت الاعتبار، فهل هناك وجه أخلاقي وصورة إنسانية جميلة في غير الإسلام تجدها وتجد معها ذلك الكمال الإسلامي في العلاقات الإنسانية، والجوابُ تراه عياناً في مقارنةٍ بسيطة بين المجتمعات الإسلامية وغيرها من المجتمعات وتعلم ما تَميزَ به الإسلام وأهله من الارتباط وتقدير الأصول، فكما سيظل الإسلام نقياً محفوظاً في تسلسل رسالته فكذلك أهله في نقاء نسبهم وعفة أخلاقهم وحفظ أعراضهم فطوبى لمن كان الإسلام منهجه والعفة مسلكه والطهارة صفته.

***

قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ ...﴾ [النساء: ١٠].

إن الميراث هو ما تركه الميت مما ينتفع به من أموال ومنافع عينية، وللميراث تقاسيم ثلاثة وهي: الموروث وهو المتوفى، والوارث وهو صاحب الحق في التركة بنصيبٍ قُدر له في الشرع، وثالثهما من الأقسام التركة وهي الأموال والممتلكات موضوع التقسيم... ولنُمَيِّزْ هنا بين الإرث والميراث، فالإرث هو ذلك المنتج الحضاري لمجتمع أو شعب ما وهو حقٌ عام، أما الميراث فهو حق خاص.

إن علم المواريث علم له قواعد وأُصول في الشرع الإسلامي، وهو فرضٌ فرضه الله سبحانه وتعالى واختص به تنظيماً وتشريعاً، ومن علم الله الكامل في كل أمر أَن كان الكمال في أمر الميراث، فتميُزِهِ في شريعتنا الغراء بأنه الأعدل والأتم على وجه الأرض من حيث توزيع التركة على مستحقيها من أقارب المتوفى ومن حَق له أخذ جزء منه بناءً على تفاصيل وحكمة عالية دقيقةً، بحيث يتم تحويل تلك التركة إلى حُصصٍ وتوزعُ بناءً على نسبٍ وردت في النص القرآني الكريم بشكل علمي وبنظامٍ عملي لا تجدُ له نظيراً من حيث العدالة في الأحقية والقناعة القلبية ، قناعةً من باب الإيمان أولاً، والرضا بما يأخذُ ثانياً ،وهذا لا يكون إلا في شرعٍ رباني من لدن عزيز حكيم.

إن الإسلام الكريم قد احترم الإنسان وراعى حقوقه أَيما مراعاة وذلك في حياته ووجوده بين أقرانه وفي غيابه وفقدانه، ومن ذلك الاحترام وعلو التقدير للإنسان ككائن اجتماعي وذو شأن نفسي أن أوجد له تلك الطمأنينة التي يستشعر بها عندما يتيقن أن جُهد أمره فيما اكتسب من دنياه من رزق مولاه ذاهبٌ بعد رحيله إلى من هم

أولى بأخذه وهم خاصته من أهله، فيكون بذلك أدى دوره كمعيلٍ في حياته بما قَدِرَ على إعالتهم، وترك لهم ما يكرمهم بعد رحيله وامتداد للإعالة وتحسين المعاشِ لهم، وهذا من تمام الأمر في ذلك، واطمئنان في المشي في مناكب الدنيا وأحوالها و محرك لحركة الحياة للأفراد لشعورهم ذلك، وإن الإسلام ليَعلم أن الجيل اللاحق أكثر من السابق فراعى ذلك ونظم العلاقات وأوجد التشريعات التي تترتب على عملية التناول والتداول للماديات بين الأجيال وذلك بأبدع نظام وأعدله، وبما يقوي تلك العلاقات ويعطي كلُ ذي حق حقه، والتقوية هنا ليس للفقدان بل للعدل ونزع فتيل الشحناء والكراهية التي قد تتأتى من الجور والظلم من ناحية التعدي وأخذ حقوق الآخرين، وإننا لنرى عند تغييب تحكيم العدل الخبير فيها يخص أمر الميراث الظلم الواقع والكراهية الملموسة والتفرقة بين الأسر، و إن التحكيم للهوى أو الاجتهاد الضعيف لهو تقييمٌ ناقصٌ بعيدُ عن العدل بعيدُ عن الحكمة موجدٌ للخلاف ضياعٌ للضعفاء تحكمٌ مقيت وهو لمن الجاهلية الأولى حين حرمت المرأة وظلم الرجل بإعطاء الأخ الأكبر الجزء الأكبر، وفي الجاهلية الحديثة في غير مجتمعات الإسلام نرى مثل ذلك فقد يذهب حق الجميع بوصية جائرة، أو يأخذه شخص لا يستحق، وقد ترى في بعض البلاد أنهم لا يعطون للرجال شيئاً بل يُخَصُ النساء، وقد ترى أعجب من ذلك فتوَرَّثُ الحيوانات أو ما شابه ذلك، والحق يقال أنهم عن حالهم في أمر ميراثهم غير راضين ولا يجدون لذلك استحساناً وما ذلك إلا لأنهم احتكموا لغير شرع ربهم فطاشت بهم عقولهم وتحكمت أهوائهم ولو رضوا بشرع الله لكان خيرا لهم و لما كان هذا حالهم... فمالهم كيف يحكمون؟

***

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قال ﷺ: «النساء شقائق الرجال» رواه أحمد.

إن الإسلام الكريم وَجَّهَ الخطاب في عمومه للرجل والمرأة ولم يقتصر على طرف دون الآخر إلا فيما كان فيه انفراد لأحدهما في أحكام خاصة، فالإسلام ساوى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات بعدل ومساواة لا نظير لها وكان من باب عدل الإسلام أن احترم خصوصية المرأة وراعى تلك الأدوار التي اختصت بها فجعل لها معاملة خاصة وذلك من باب الكمال في التكريم والمساواة لما كان للمرأة من خَلق وناحية فسيولوجية تختلف عن الرجل، فقدرة الرجل كانت سبباً لإسناد أمر القوامة إليه وهي تكليفٌ يتحمل به الأعباء والمسؤوليات تجاه من كانوا في رعايته.

وإن الإسلام بدايةً أعاد تلك الصورة الصحيحة والنظرة المطلوبة لحال المرأة فاسقطَ كُلَ ما يَمسُ المرأة وينال من قدرها ومكانتها الصحيحة، فالإسلام ينظر للمرأة على أنها نصف المجتمع وعليها تدور أكثر الحلقات الاجتماعية والتربوية والحياتية، فهي الأصل بالأمومة، وهي الصلة بالبنوة والأخوة، وهي السكن بالزوجة، وان الانتقاص من المرأة وقيمتها ومكانتها الإنسانية لمرفوض منبوذ في التشريعات والمعاملات الإسلامية.

والإسلام أوجد إطاراً عاماً آمناً للمرأة في ظل تشريعاته وأَحكامه فأوجد الأمان الاجتماعي بحفظ حقوقها في الميراث والزواج، والعقوبة بالتعرض لها ولو بكلمة تمس من كرامتها، وأوجد الأمان الاقتصادي بحفظ حقوقها المالية وحقها بالاستملاك، ولم يقتصر الإسلام على إيجاد الأمن بأنواعه للمرأة، بل وأَسقط عنها عبئ النفقة على الغير وجعله على الرجل، وأَسقط عنها أي دور قد يتعارض مع نفسيتها ولا يتلاءم مع طبيعتها، فلم يُوجب عليها القتال كما أَوجب على الرجل حين يُحتاج إليه، فالإسلام

متعدِدٌ في أوجه الرقى الإنساني واحترامه للمرأة كما ينبغي وتقديره لها وجه من تلك الأوجه.

ومن زاوية أخرى خالف الإسلام تلك المعتقدات التي تنظر للمرأة على إنها درجة دونية في السلم الإنساني، وأَنها فرعٌ لا أصلْ في الحياة الاجتماعية وأَنها رغبةٌ ومتاع مكمل وليست أساساً وقسماً فعالاً، فالإسلام رفض ذلك كله وبين الصورة الصحيحة وهدَم أركان الجهل والتعسف تجاه المرأة، وجعلها باباً من أبواب التقرب إلى الله بالإحسان إليها وإكرامها وبحسن البر والعِشرة، وإن تلك العدائية الظاهرة ممن لم يعي حقيقة الإسلام ولم يفهم تشريعاته بالنسبة للمرأة إنما كان عن قصورٌ وجهل لأحكامه وجمالِ قيمه أو لتمرد على توجيهاته وهجر لأخلاقياته ، فالإسلام أراد الحرية والمساواة للمرأة في ظل أَحكام راقية، وهم أرادوا حرية الوصول إليها ووضعها في مكان لا يلائمها وينقِصُ من كرامتها وإنسانيتها، واعتبارها سِلعة أو أسلوب جذب لمرادهم ولتسويق أغراضهم ، وان تلك المجتمعات التي تبنت فكرة فتح الباب على مصراعيه بلا قيد أو خُلق بحجة المساواة قد نالت الأمرَّين فيما تعانيه من تدني أخلاقي وانتهاكٍ للمخلوق والتعدي المغرض وغياباً للمنظومة الأسرية الآمنة، وإن ديناً كريماً راقياً كالإسلام منذ أربعة عشر قرناً والذي أوجد الأُسس الكريمة والقيم الفعالة في التعامل مع المرأة لأصعب من أن يُنالَ في أُصوله وقِيَّمه ممن لا يزال البعض منهم ينظر لروح المرأة على أنها شيطان وسمح بالارتباط بين طرفين متماثلين ارتباطاً يخالف الفطرة السليمة وتأباه أدنى مراتب الأخلاق، فإن الخروج عن خط القيم الكريمة والأخلاق الحميدة بحُجَّةِ المساواة لضَربٌ في أساسيات المجتمع وإيجادٌ لشكل جديد من الاستغلال والانحلال والفساد بصورة وهمية على أنها جميلة وما هي من الجمال بشيء.

وقد أَيقن عاقلهم أنه كلما زادت المساواة بين الرجل والمرأة بطريقة فهمهم زادت الفروق بينهم، واضطربت أحوالهم واختلت قيمهم ومجتمعاتهم، وليُعلم أن فَهمَ المساواة برفع المرأة ومكانتها والإِحاطة بها خارجاً ليس هو المعمول في النظرة

الإسلامية بل عندهم المساواة أن يتماثل كلا الجنسين ولا فرق بينهما، و أليس هذا ظلمٌ وتعدي على أصل الغريزة والفطرة وإلغاء للتفرد والخصوصية لكل طرف، وإن ظاهر تلك الغوغائية في الطلب إنما هي نابعةٌ عن نقص في الأُسس التي يقوم عليها كل من احتكم لمنهج غير كامل واعتبر عقله وتجاربه هي المرشد لحياته فاتكل على نفسه وهواها ظاناً أنه يرفع من شأنها ويوفيها حقها وما تلك إلا صورةٌ وهمية افتعلها العقل الذي استقل بلا شريعة إلهيه وظن أنه على صلاح وهو ليس على ذلك .

***

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

قال ﷺ «خياركم خياركم لنسائهم» رواه ابن ماجه.

الزواج لغة هو الارتباط، وهو اقتران شيئين معاً كانا منفصلين.

والزواج بالمفهوم الإسلامي هو عقد يجمع بين الرجل والمرأة يحق لكل منهما الاستمتاع بالآخر على وجه مشروع، وله شروط يتم الانعقاد بها ويقصد منه إنشاء الأُسرة واستمرار النسل والسكن النفسي والاجتماعي بمودة ورحمة.

إن البيت هو مدار الحياة والتعايش، فمنه النشأة والميلاد وفيه الذكرى والإعداد وفيه المشاركة بين أفراده، وهو نظام مصغر للمجتمع ففيه الأمن والاستقرار وفيه الحب والإيثار، وهو علاقة أصيلة بدأت بين زوجين جُمعا تحت سقف واحد أُحلت العلاقة بينهما بعقد شرعي وبكلمة الله... وهذه العلاقة بالزواج، هي آية من آيات الله سبحانه وتعالى الذي خلق لنا من أنفسنا أزواجاً وجعل بيننا مودة ورحمة وجعل كُلَ طرف سكناً للآخر وهذا هو الأصل، وهذا هو المطلب الأصيل من الاقتران بعد مطلب الفطرة لحاجة كل من الزوجين الرجلُ والمرأة إلى الأخر وما ينتج عنه من ذرية صالحة واستمرار للبقاء والاستخلاف.

وان الإسلام دين الرحمة والعدل قد راعى تلك العلاقة والرابطة بين الزوجين فبيَّن حقوق كل طرف على الآخر وواجباته، وبين الأُسسُ والقواعد التي ينبغي أن تكون عليها تلك الرابطة، وأنها علاقة شراكة بين طرفين كلٌ منهما مكمل للآخر وجزءٌ من حياته ومرآة تعكس أخلاقه وحسن عشرته.

وجزءٌ من تلك الحقوق التي دعا إليها الإسلام هي حقوق الزوجة، التي كانت قبل الزواج بنتاً وأُختا وأصبحت بعد الزواج أماً وزوجة، تلكم الزوجة التي ارتبطت بزوج أصبح لها كل شيء، وتحولت جموع العلاقات الاجتماعية لعلاقة بينها وبين زوجها

وعليها تدور حياتها، ففيها تستشعر حنو الأب، وسند الأخ، ومودة الزوج، لذلك كان لا بد للزوج أن يكون راعياً لكل ذلك وأن يحمل مسؤوليته بما له من قوامه وقدرة ، فواجبه على من كانت عنده أن يؤدي إليها حقها من العهد المتفق عليه، وان يؤمن لها السكن المناسب، وان ينفق عليها بما وَسَّع الله عليه، وان يتقي الله في حالها فلا يأخذ منها إلا بالمعروف والرضا.

والواجبُ الأتم على الزوج أن يُحسن عشرتها، ويكرمها في نفسها وأهلها، وان يراعي تلك النفس التي جمعت معاني الإنسانية بداخلها كما للزوج، فيحفظ لها صحبتها، ويعاشرها بالمعروف، ويُنشأ البيت على أعمدة المودة والرحمة، فلا ترى منه إلا كل حُسنٍ وكلمة طيبة وقدوة فاعلة في السلوك القويم وجميل الخلق والالتزام الشرعي، فيعود ذلك كله بالخير والمودة على الجميع، مكوناً بيتاً سعيداً كأنه جنةُ الإنسان على الأرض فيستشعر الطمأنينة والمحبة والسكن النفسي المراد من تلك العِشرة...

وان الزوج في حالهِ في بيته لمرآةٌ لما أدرك واستمكن قلبه من جمال الأخلاق وحسن المعاملة ورقة الطبع، وإنَّ لنا قدوةً كاملة في شخص رسول الله ﷺ في معاملته لأهل بيته فكان عليه السلام الأرقى والأحب والأكمل في عدله وحُسن عشرته وبره بأهله.

***

الباب السابع والثلاثون الإسلام وتعدد الزوجات

قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ [النساء: ٣].

ويُقصد بتعدد الزوجات في الإسلام: أن يجمع الرجل أكثر من زوجة في وقت واحد على أن لا تزيد على أربع، وله شروط وأَحكام.

إن الإسلام وهو دين الله الحكيم الخبير، قد أرسى القواعد والأنظمة الاجتماعية الراقية التي تغطي كافة الأمور الاجتماعية، والعلاقات الفردية، والعلاقات المشتركة في المجتمع الإسلامي والتي كفلت وأنشأت نظاماً اجتماعياً كاملاً قائماً على شمولية الرعاية، وعدالة العلاقات بين الأفراد، بما يضمن لهم حالة التوازن، والرضا، في إطار حياتهم، مبنيةً على أساس شرعي موافق لفطرتهم، جالباً لهم الخير والسعادة في دينهم ودنياهم...

ومن معجزات جمال الإسلام في تناوله لجانب من الجوانب الإنسانية والاجتماعية، كان إباحة مبدأ التعدد في الزواج، فالتعدد لم يبتكره الإسلام بل كان قبل الإسلام وعلى مدار جميع الديانات والحضارات السابقة، إنما أتى الإسلام وعملَ على تنظيمه ووضع الصورة المثالية لتلك العلاقة المشتركة لأكثر من طرف، وجعلها في إطارها الشرعي، وجعل للتعدد ميزاناً يستقيم به ويكون به الجَواز وهو الجمع بين الإباحة و العدل بين الزوجات، فيُلزمُهُ الشرع بالمساواة في النفقة والمسكن وحسن العشرة ولم يشترط عليه الناحية القلبية فذلك أصعب أن يُتحكَّم به.

وإن الرائي بعين العقل والحكمة والنظرة السليمة للتعدد، ليعلم تلك الخدمة التي أسداها الإسلام للمجتمعات الإنسانية قاطبةً؛ فإنه بذلك قد حافظ ورقى الناحية السلوكية للأفراد من إنشاء علاقاتٍ غير سوية في الخفاء بصورة بهيمية، تضيع فيها الحقوق، وتختلط بها الأنساب، فأوجد صورةً شرعية ظاهرة للعيان تُحفظ فيها كرامة

المرأة، وحقوقها، ويحفظ النسب وما يترتب عليه من ميراث وأحكام شرعية... و من حكمة الله سبحانه وتعالى في إباحة التعدد؛ عِلمُهُ بأن المجتمع الإنساني يتكون من ذكر وأنثى وان تعداد الجانب الأنثوي أكثر من الجانب الذكوري (وهذا معروف مُلاحظ)، وإن ما يقع له الذكور في حياتهم يجعلهم أكثر عُرضة للنقص في تعدادهم من الإناث، من جَراءِ الأحداث التي قد تصيبهم من حروب، أو حوادث، أو أمور أخرى، فأحلَّ سبحانه التعدد لتغطية ذلك العجز بين الطرفين، فمن حق المرأة ان يكون لها زوجٌ شرعي، وفطرتها تأبى إلا أن ترتبط برجل واحد، و الرجل فطره الله على القدرة والرغبة بالارتباط بأكثر من امرأة، وان تلك العلاقة الشرعية وأن كانت مشتركة بين أكثر من امرأة مع رجل واحد، فقد حفظ لها الشارع الحكيم كافة حقوقها وكرامتها، فلا يتم ابتذالها كما يحدث عند غير المسلمين ممن رفض التعدد فيلجأ إلى طرق مبتذلة وغير قويمة وعلاقات آثمة.

والإسلام حينما أباح التعدد اشترط فيه العدل، وهذا هو الأساس، وإن النظرة السلبية والمشاكل الاجتماعية التي قد تُرى على من قام بالتعدد لا تعود على الإسلام ومنهجه وإنما تعود لضعف امتثال الرجال والنساء لتعاليم الإسلام وفق منهجه القويم وهو ليس الغالب، فالناحية السلوكية مطلوب فيها الأمثل، وذلكم التقصير متعلق بشخص الفاعل وسوء تمثيله للحكم.

وأود أن أُضيف هنا مثالاً حيا ليس عنَّا من الزمن ببعيد، وهو تجربة أليمة في الصورة الإنسانية العامة، فبعد الحربين العالميتين في الغرب ونقص عنصر الذكورة عندهم نتيجة لتعداد تلك النفوس التي أُزهقت جراء تلك التصادمات والتي بلغت الملايين، كانت الحياة الاجتماعية من ناحية العلاقات في أسوأ صورها الأخلاقية، فلننظر ولنتدبر في ذلك لو طبق هذا الحكم عندهم بجمال وكمال حكمته.

***

الباب الثامن والثلاثون الإسلام واللباس

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف: ٢٦].

اللباس :وهو معلومٌ غير مجهول بأنه ما يستر جسد الإنسان،وذلك عموم المعنى المادي، الذي يقصد به استخدام المواد التي تصلح لتغطية الجسد وتقيه مما قد يصيبه من أذى من حر أو برد، ويُقصد به أيضاً ستر العورة، أما في الإسلام الكريم فللباس مفهوم معنوي يضاف إلى المفهوم السابق، ويكون ملازماً له ليندرج به تحت مسمى اللباس الشرعي، فقد حدد الإسلام مواصفاتٍ للباس لكلا الجنسين الذكرُ والأُنثى ووضع الشروط الملازمة لها، والغاية الشرعية منه، فضلاً عن المنفعة المادية، فأباح اللباس بالعموم وفق تلك الشروط، وأمر اجتناب ما يخالف ذلك، فللرجل اللباس ما خلا من ذهب أو حرير، وان يكون ساتراً للعورة، وليس ثوب شهرة، أو متشبهاً بلباس النساء ، وان لا يكون زِياً ديناً معلوماً انه لغير المسلمين.

أما المرأة فقد أولى لها الإسلام عناية خاصة في هذا الباب نظراً لما يتعلق بها من حساسية، وما يكون فيه حفظٌ لها، فالمرأة في الإسلام كُرمت في كل شيء، ومن باب التكريم الحفاظ عليها وحفظها من أي سوء أو تعدي قد يصيبها، فلباسها الشرعي يكون سداً مانعاً يمنع ذوي النفوس غير المستقيمة أو المريضة من التطلع بتلك النظرات الشهوانية لجسد المرأة، والتي قد يترتب عليه مفسدة عامة أو أذى يلحق بالمرأة، وذلك باب تكريم لها، فالمرأة زينة في حد ذاتها بما فُطِرَ الناس عليه فالنوازع الإنسانية تتحرك لدى الرجل إذا رأى ما يثيره من جسد المرأة، فحفظ الإسلام الحنيف الرجل والمرأة في نفس الوقت، وأمر بدايةً بغض البصر والابتعاد وعن محارم الله، ومن تعدت وأسرفت فإنها بذلك تكون سبباً في ما لا يُحمد عقباه، فتحمل وزرها ووزر من نظر إليها بما كشفت من جسد وعرت ما حفظه الله وأمر بسترة، فلباسها في الإسلام

لباس عفة ودلالة على التقوى، فأمرها الشارع الكريم بتغطية جسدها كاملاً بلباس فضفاض لا يصف، ولا يشف، وليس بلباس شهرة، أو تشبه بالرجال.

إن الشرائع في الإسلام أتت متوافقةً مع حميد السلوك وصفاء الفطرة، وتكامل تِلك التشريعات مع العلو في النقاء بابٌ من أبواب التوازن في امتثال العبادة، فقد فُطر الإنسان على الحياء والاحتشام ونبذ كلِ ما يسيء، فاللباس في الإسلام لباسٌ حسي بما يستر به الإنسان نفسهُ، ولباسٌ معنوي وهو لباس التقوى، ولباس التقوى ملازم للباس البدن، ولباس البدن تابع للباس التقوى، فحكمة الإسلام في حشمة اللباس؛ انه سترٌ ووقاية من وقوع الإنسان في المخالفات المحظورة، وانه منسجم مع الفطرة السليمة، ومع الطبيعة الإنسانية، فالإنسان هو المخلوق المكرم الذي سُتر باطنه وظاهرة وان اللباس دلالة على التحضر والرقي، وباب من أبواب الجمال وإظهار نعمَ الله سبحانه.

و إنَّ الإنسان ليحتاج إلى اللباس، فكما أن الجوع هو ذُل الباطن، فالعُري هو ذل الظاهر، و كلما ازداد الإنسان عُرياً ازداد تقربا إلى درجة الحيوانية وفقدان الحشمة والخصوصية التي تميز بها و ارتقى.

فالإسلام الحنيف راعى متطلبات الأفراد، وجعل لها مخرجاً مناسباً صحياً وأخلاقيا وفق ضوابط شرعية، تناسب درجة ذلك الإنسان الذي حمل رسالة التكليف وحمل معها أخلاقاً تأهله لذلك، فالإسلام أراد حياةً سوية، ونظرة شرعية على كل الجهات التي تخص ذلك الإنسان، ليرقى بها ويحفظ نفسه وأهله ويكونَ فرداً في مجتمع سوي منضبط وذو فطرة سليمة وقيم خلاقة.

***

الباب التاسع والثلاثون الإسلام وبرُ الوالدين

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

البر هو الخير، وبر الوالدين هو طاعتهما والإحسان إليهما، وتقديم الغالي والنفيس لإرضائهما، وقد جمع الله سبحانه عبادته والإحسان للوالدين في نفس الآية لما في مرتبة البر والإحسان إليهما من عظم، ومكانة عالية..

إن الإسلام الكريم يعلم تلك الأدوار الاجتماعية في الأسرة، وكيف أن من كان طفلاً يوماً لا بد أن يكون والداً بأمر الله يوماً، فأوعز إلى اكتمال تلك الحلقة الأسرية بأرقى السلوكيات، وأعظم القربات، وهو البر بالوالدين، فأولاهما الرعاية الكريمة، وحث على برهما وإكرامها والتقرب إلى الله بذلك، وبيَّن مكانة الوالدين وعلاقة تلك المكانة من رضا الله سبحانه وتعالى، فأمر بطاعتهما حتى وإن كانا على غير دين الإسلام فيما لا يخالف الشرع، فإذا كان هذا للوالدين غير المسلمين فما بالك إن كانا مسلمين وأحسنا تربية أبناءهما على الإسلام، وكان من قبل والديهم كذلك، فهذا امتدادُ لحلقة أسرية مؤمنة متكافلة،يسودها البر والتقوى والعطف، فالإسلام أراد تلك الحماية اللائقة والكريمة لمن انفقا حياتهما وما ملكا لإيجاد ذلك النشء حتى أوصلاه لسن يعتمد فيه على نفسه، فتولياه منذ أن أبصر الحياة حتى بلغ ما بلغ... فالإسلام لا يرضى بأدنى كلمة تخرج من فيه الولد بحق والديه، مما يسبب لهما أي ألم قد يصيبهما. وحث على الإنفاق عليهما وإكرامهما، وان يكون ذلك الإكرام ممزوجاً بالحب والتقدير والرضا لهما ، بل وحث الشارع الكريم أيضا على المبالغة في ذلك من البر والإحسان والتقرب إليهما بما يحبان، فذلك دور يعود على الجميع، وما يفعله البار لابد يوماً أن يعاينهُ في كبره، وذلك مما يعود على الأسرة المسلمة بالتماسك والعطف بين جميع الأفراد، وما يجد فيه البار من خير الدنيا ، وما أعده الله لعباده من جزيل العطاء لقاء بر الوالدين والإحسان إليهما.

ومن جمال الإسلام في مسألة بر الوالدين، أن حث على برهما في حياتهما وحتى بعد موتهما، وذلك بالدعاء والاستغفار لهما، وتقديم الصدقات عنهما بعد رحيلهما، بل وَوصلَ حُسن الأمر إلى إكرام من كانت له قرابة أو صلة بهما واعتبر الشرع ذلك من بِرهما، وكل ذلك التسلسل الراقي من الأخلاق الأسرية والتي بلغت حداً راقياً عالياً لمستمدةً من تعاليم ذلك الدين الحنيف، الذي زرع في قلب المسلم الطمأنينة بأنه متى ما بلغ سناً عجز فيه عن التقديم، بأن أوجب له من يقدم له ما يحتاجه بلا منَّةٍ أو تكلف ، فاستشعر بقيمته وقيمة تلك الرسالة الإسلامية السمحاء، التي ما تركته صغيراً أو كبيراً إلا وحفظت له كل شيء فاستقرت نفسه بذلك الأمان وتلكم الرحمة من البر والإحسان.

ومن عظمة الإسلام في باب البر للوالدين أيضاً ان المؤمن ليستشعر حَسنةَ ذلك ورفعته، بمعاملته مع من بلغ من العمر الكبَر في مجتمعه، فيتراحم ويعطف لاستشعاره باب فضل البر التي نشأ عليه فتدور معاملة البر في الأسرة الكبيرة ويسود التقدير والاحترام في المجتمع الإسلامي كله.

***

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

إن الإسلام ينظر للإنسان نظرةً عظيمة ومُقَدِرةً له، فقد أعلى من قَدْرِ الإنسان، وهو عنده مدعوم المكانة وموفور الكرامة، ومن المقاصد الشرعية الرئيسة في الإسلام حفظ النفس أي حفظ الإنسان في أمره كُله وما يرتبط به.

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان لِعبادته وأكرمه، وتجلت مظاهر ذلك التكريم بأن خُلقَ في أحسن تقويم، وأرقى هيئة، وأجمل صورة، وترى ذلك بجمال وبديع خلق الإنسان وهيئته، وترى التكريم أيضاً بما مَلَكَ الإنسان من عقل مُيز به، وارتقى بهِ عن بقية المخلوقات في عالمه، والتي كانت أيضاً مُسخرة لخدمته، وأصلاً في أمر الاستخلاف له وتهيئةً للحياة من أجله، ومن التكريم أيضاً أن خُلقَ على الفطرة وميز بالمَلَكة على الإدراك والتواصل، والإرادة في الاختيار.

إن الإنسان هو الأصل في المقاصد وعليه تدور الأمور والشرائع، وَالإسلام يعامل الإنسان بحال متوازنة، راقية المفهوم، نبيلة الإدراك، فهو جسمٌ وروح وعقل في التكوين، وطين وروح في النشأة، وحالة التوازن في التعامل إنما كانت بعموم التناول وشمول التداول للإنسان في حياته من متطلبات جسدية، وعلاقات إنسانية، وبين روحه وعلاقته بالآخرة، والجمع بينهما بما لا يضع الإنسان في حالة من الاضطراب أو العجز عن الإدراك الفعلي لحقيقة الوجود، أو الإخلال بين الحياة ومتطلباتها والآخرة وموجباتها، فالإسلام يراعي ذلك كله فكمال منهجه وتشريعاته أتت متوافقة مع خلق الإنسان وتكوينه، وكيف لا يكون ذلك والخالق للإنسان هو المشرع نفسه سبحانه، وبنظرة أخرى، فالإسلام بيَّنَ أنَّ الإنسان جامعٌ في تكوينه ما يهيئه ويمكِّنه من حمل الرسالة ويستطيع بما لديه من القيام بدورة في الاستخلاف وتحقيق مُراد الله بالعبادة، ومع ذلك فالإسلام نظم ذلك كله بأن أوجد الإطار الشرعي العام المُفَصلْ بما يضمن

تحقيق السعادة والحياة المثلى في الدنيا والوصول للغاية الأكمل والحياة الأمثل في الآخرة... فالنظرة والحقيقة الإسلامية الكلية هي وحدها التي تسعد الإنسان وترتب له أموره ليتحصل على المقصود وذلك بأبهى حلة وأروع تنظيم، فلا حيرة تنتابه ولا تضارب يصيبهُ في أحواله، وكل أمر في التزامه بالشريعة بالخير عليه وعلى من يحيطه يعود، وهو حاصلٌ وملموس ينعم به في دنياه، ويرجو به رحمة ربه عند لقياه.

***

الباب الواحد والأربعون الإسلام والتكافل الاجتماعي

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

قال ﷺ «مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» مسلم.

إن مما تميزَ الإسلام به في أنظمته الاجتماعية وتفردَ به، هو وجود نظامٍ جماعي وتشاركي، مبني على شعور إيماني وسلوكٍ فعلي مرتبطٍ بتوجيهات وأحكامٍ شرعية، وهذا النظام هو صفة ملازمةٌ لكل فردٍ داخل المجتمع الإسلامي العام على شكل تكافل اجتماعي وترابط انفعالي لتأمين الخيرية وسد النقص في بعض الجوانب التي قد تعتري فرداً من أفراد الأسرة الإسلامية الكبيرة، وكما هو معلوم فالمجتمع جامعٌ للعديد من الدوائر المحتوية للأفراد، من روابط أسرية، وعلاقات اجتماعية، وتداولات نفعية، وعلاقاتٍ بغير المسلمين، وغير ذلك الكثير، وكل ذلك هو النسيج الاجتماعي والحركة الحية للمجتمع مع نفسه بين أفراده ومع غيره من المجتمعات الأخرى، والإسلام يرى المجتمع قائماً على الجماعة وليس على الفرد، لكنه في نفس الوقت أراد من المجتمع أن يكون تكافله وتكامله كأنه فرد واحد، مُستَشعرٌ بكل طرف فيه، ومتأثرٌ بأي أمر قد يعتريه، فكمال صحة الفرد هنا وهو المجتمع الواحد هو الإلمام بكافة الجوانب وإذهاب العلل التي قد تطرأ وتصيب جزءاً منه.

وبالتالي فإن حالة التكافل الاجتماعي والتكامل العملي أمرٌ أساسي، وإعّمال الاكتفاء بين الأفراد بما يغنيهم عن العوز واستشعار الحاجة أمر مطلوب، ووجود ذلك السلوك العملي الإيماني، والاستشعار الإنساني بين الأفراد، والذي يقوم كل فرد فيه بدور المُكَمِلْ لأَخيه الإنسان فيما ينقصه، أو يسد حاجته نفسيةً معنويةً كانت أو مادية، جعل ذلك الرابط الذي يشترك فيه الجميع رابطاً تعدى مفهوم السطحية، بل انتقل إلى علاقةٍ شعوريةٍ حقيقية، وترسيخٍ لمعاني الإنسانية وتمثُلٍ لجمال تطبيق الكفالة الاجتماعية ومن

هنا فالإسلام أوجد بين أفراده ومنتسبيه تلك العلاقة وذلك المفهوم، ورسخ تلك القيم الترابطية، والمعاني الأُسرية، والمشاركة الوجدانية، وجعل المجتمع بما احتوى من فئات اجتماعية، وعلاقات إنسانية، ودرجات احتياج مختلفة لأفراده، في هيئةٍ تكافلية ومرتبطين ببعضهم ارتباطاً تكاملياً تعاونياً بشكل إنساني راقي، ممزوجٍ بإقبال إيماني ومستندٍ على قواعد شرعية وقيم إسلاميه...

ومن جمال الإسلام، وكمال تشريعاته، أن فتح أبواباً إلزامية على كل مسلم، فيها تفعيلٌ للكفالة الاجتماعية، ومن ذلك باب الزكاة ومنافذها، وباب النفقة على من تجب عليهم الإِعالة، وباب حفظ الحقوق، وغيرهُ مما وضحه الشارع الحكيم، وفي نفس الوقت تم فتح أبوابٍ اختيارية وتم بيان فضلها، وجزيل أجرها، ومالها عند الله من تكريم في الدنيا والآخرة، ومنها باب الصدقات وباب الإحسان والمعروف، وباب منع الأذى، وباب الكفالات، وغير ذلك الكثير الكثير، وكل تلك الأبواب إنما تُفتح لصاحبها تمهيداً للبرِ والإحسان وطريقاً إلى الجنة.

وان الله قريبٌ من المحسنين

***

الحق لغةً هو الشيء الثابت دون ريب، وهو ما قُيِمَ على العدالة والإنصاف، وهو للفرد والجماعة، ويتبَعه واجبات.

وحقوق الإنسان في الإسلام: هي تلك الحقوق التي تقوم على مبدأ وحدة الجنس البشري، بغض النظر عن عرقه أو لونه أو مكانته الاجتماعية أو حتى دينه، والتي يراد منها إعمال الكون في إطار التعاون والتكافل، فتكريم الإنسان بما أراد الله سبحانه وتعالى أَساسٌ للقيام بدوره في المجتمع، ويتحقق تقدم المجتمع من خلال رقي وتقدم الفرد.

والإسلام الكريم وضع الإنسان في دائرة من الإحاطة شاملة كاملة، واثبت له حقه وبين له واجباته، وألزم الإسلام المجتمع ومن يقوم عليه بحفظ حقوق الفرد وفق منهج راقٍ مستمدٍ من تشريعٍ رباني كامل.

فتكرم جل في علاه بأن أراد العدل، والمساواة، والرقي، في كل شيء لمن استخلفه في الأرض وحمل رسالته، فجعل في شريعته إليه أرقى وأكمل السبل لحصول ذلك التكريم الذي يناسب تلكم الرسالة وتلكم الإنسانية التي أكرمها الله سبحانه. فالإنسانية مكرمة بأصلها على العموم في الأمر الإسلامي، ويحصل التفاضل بما حمل الإنسان من إيمان، وزاد من تقوى، وهو الأساس في إيجاده وما وجب من لزوم حاله.

وقد حَفِظ الإسلام حق الإنسان في الحياة من بداية خلقه وتكونه فَحُرِّمَ التعدي عليه بأي شكل يمس حياته، أو كيانه، وحفظ له كرامته وحريته، فلا يُسمح بانتهاك حقوقه، أو المَس بإنسانيته بما يسبب له الأذى، جسدياً كان أو نفسياً، أو أخذ شيءٍ من ممتلكاته بدون حق، وضمن الإسلام أَيضاً حقه في العمل والتعلم، فالإسلام لم يترك جانباً يخص الإنسان إلا وأوجد الطريقة المثلى في التعامل والتبادل بينهم، بما يحفظ حقهُ، فيكون ايجابياً، مدركاً لعلو إنسانية، وقيمته الراقية، فيعود ذلك بالخير على الفرد والمجتمع، وان انبثاق حقوق الإنسان من الشريعة الإسلامية بكونها منحة من الله

سبحانه، وشاملةً لكل أنواع الحقوق، واتسامها بالثبات أوجد تلك الأنا العليا للمسلم وللإنسان في ظل الإسلام، فاستشعر مكانته وعلو إنسانيته، فتجلت نفسه بأخلاق وتعامل وتكافل يناسب تلكمُ الحالة.

إنَّ الله سبحانه وتعالى خالق البشرية، وخالق كل شيء، وهذا هو المنظور الإسلامي والحقيقي للإيجاد والخلق، فأوجد الإنسان ورفع منزلته وكرمه على سائر المخلوقات، وأوجد تلك التشريعات والنصوص التي تحفظ ذلك وتبقيه على الأصل وعلى ذلك التكريم، وان التزام الإنسان بما شرعه الخالق لهو الطريق الصحيح، والنجاح الأكيد له في دينه ودنياه، ومن ذلك التكريم بأن تكون العلاقة الإنسانية بمجملها مبنية على العدل، واحترام حقوق الآخرين، وهو فرع عن أصل التكريم، وواجبٌ على الإنسان تجاه أخيه الإنسان أن يحافظ على ذلك وأن يحفظ حق نفسه، وحق غيره ،وذلك بإكمال واجباته بإعطاء كل ذي حقٍ حقه ومعاملته معاملة إنسانية تليق بما جعله الله عليه من منهج قويم وأصل منزله.

ومن جمال الإسلام في مسألة الحقوق، بأن جعلها غير مجزأة، وغير متغيرة، وجعلها غير مُطْلَقةٍ بل مقيدة بعدم التعارض مع الشريعة الإسلامية، وأكملها بما وضع من حدودٍ وروادع لمن أسرف وتعدى على حق غيره، فأوجد بذلك مانعاً يحفظ حقوق الجميع على حد سواء بعدلٍ راقٍ لا نظير له، كيف لا والله هو الحق وهو العدل.

وإن الشريعة الغراء قد جمعت بين الحقوق والواجبات، فحفظت الحق للإنسان بأعلى مقاييسه، وأَوضحت الواجبات التي تلازم ذلك، فتكون بذلك أوجدت المعادلة المثالية للفرد، بان اطمأن واستقرت نفسه بما أدرك من أمنه على نفسه، وفي نفس الوقت علم دوره وحق غيره في ذلك الأمن وتلكم الايجابية، التي ترتقي بالجميع الى مجتمع متكافل متراحم يقوم أساسه على التقوى والعدل والمساواة.

وننوه إلى أمر وان كان الحزن يلازمه، فان تلك السلوكيات الصادرة عن البعض والتي لا تمت للإسلام ولا للإنسانية بصله، فالإسلام شريعةً وأصلاً وأَتباعاً منها براء، وما هي إلا انعكاس لشخصهم وليس لغيرهم من مجتمع أو منهج ...

***

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

الكرامة الإنسانية: هي قيمة معنوية، تولد مع الإنسان، وقائمة على احترام الإنسان لذاته، والشعور بالأنا الراقية، وهي حق طبيعي وقيمة مجردة تلازم الإنسان.

إنَّ الله الكريم المتعال خلق الإنسان، وجعله مُكرماً، ووهب له العقل مناط التكليف، وأكرمه في السماء غاية الإكرام بأن أمر ملائكته بالسجود لأبيه آدم سجوداً تكريمياً، وأكرمه سبحانه بأن استخلفه في الأرض، وسير كل شيء لخدمته، وأكرم خِلْقَتَهُ وهيئته، وجعله في أحسن تقويم، وجعل التفاضل بين العباد بالتقوى، وأكرمه بأن خلقه على الفطرة السليمة، وأن أوجده على تلك الصورة الكريمة، وأعلى مراتب الكرامة أن تعرف على صفاته سبحانه وأن حَمَّله الرسالة السماوية وذلك غايةُ خلقه.

إن الإنسان له كيان مادي وهي هيئته التي خلق عليها وأكرمه الخالق بها، وهناك كيان معنوي ملازم لتلك الهيئة وهي قيمته الاعتبارية، وكرامة الإنسان هي تلك القيمة التي يرتقي بها الإنسان وبها تبنى وتعزز الذات، وان سعادة الإنسان واستقراره النفسي مرهونةٌ بذلك.

إنَّ الإسلام الكريم أكد وأثبتَ حق الإنسان بأن يعيش بكرامته طول حياته، بَل وحفظ له كرامته بعد موته أيضاً، فمنع الإسلام أي تصرفٍ أو تعدي قد يصيبه في كرامته أو ينتقص من إنسانيته، فإن الحال المعنوي لأمر معتبر في الشريعة الإسلامية أيما اعتبار، فحياة الإنسان المادية محمية وكذلك الاعتبارية، وإن تلك المرتبة التي أكرمه الله بها محمية بنص الشارع الكريم، فقد حفظ الإسلام للإنسان تلك الحالة النفسية وأوجد لها المناخ المناسب من امن واستقرار، وذلك بمنع ما قد يصيبها من عوارض يُنقِصُ من قيمتها أو يخدشها، فالمسلم كإنسان يستشعر بإنسانيته وكرامته، وكفرد في جماعة المسلمين يستشعر بكرامته وكرامة أُمته، فتصبح الكرامة الفردية جزءاً لا يتجزأ من

كرامة الأمة و التي يرتقي بها ويعلو قدره بعلوها، ولذلك فهذه الجزئية جزء من الكلية الحافظة ومجموعها.

وقد بيَّنَ الإسلام أن الكرامة للإنسان تُعَزَز بارتفاع الإيمان وزيادة التقوى، فَأَمرهُ بالابتعاد عما يُنقص من كرامته، وذلك بتجنب المعاصي والمخالفات، وأن يُبقي نفسه بدائرة التقوى، فيحفظ بذلك نفسه وكرامته، فإن الإنسان متى ما جانب الصواب أو خالط من كانت المادية البحتة أو الشهوانية المسيطرة دأَبهم، ونمط حياتهم، فقدْ فَقَدَ جزءاً من كرامته بذلك، فالإسلام لا يرضى إلا بالكمال والرقي في الأمر كله، وذلك ما يريده من الإنسان، بأن يرتقي إلى تلك المنزلة التي خلق عليها بفطرته السليمة، فيكون راقياً في نفسه راقياً مع غيره، عزيزاً، كريماً، وذلك هو نمط وحقيقة المجتمع الإسلامي كما أراد ربنا سبحانه.

***

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾. [الحجرات: ١٣].

قال ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» رواه أحمد.

الطبقية هي مفهوم يقصد به ذلك التنظيم الاجتماعي، الذي يقوم على تقسيم الناس إلى طبقات، بناء على أسس مادية أو اجتماعية أو ثقافية. ونستطيع القول أن هنالك انتماء شعوري طبقي للفرد، وهو انحيازه إلى طبقة ما بانتسابه إليها، أو محاوله الاقتران بها، ويكون في بعض أحواله متشابهاً مع إفراد تلك الطبقة من ناحية العمل السلوكي، والانطباع العام غير المنهج أحياناً، ويرافق ذلك الشعور بالانتماء لتلك الطبقة نظراً للاستشعار بالفوقية، وتتفاوت تلك السلوكيات وذلك الشعور، لما لتلك الطبقة من تميز ومكانة في المجتمع الذي تكون فيه.

وان التطور المستمر لحال المجتمع، وازدياد العلاقات وتفرعها، مع وجود إضطراد مستمر في عمليات التبادل بين الأفراد، أوجد ذلك التباين في المحيط المادي والإنساني، مشكلاً أساساً للتشكل الطبقي والتفاوت الاجتماعي في المجتمع الواحد، وذلك لاقتران الأفراد في تلك العلاقات والتبادلات بعنصر جذب للتوحد من أجل تحقيق المصلحة وزيادة التشارك بالقوة، فيكون التكتل لهؤلاء الإفراد نواةً لتحقيق ذلك، وقد يتأتى التشكل لبعض النؤى نتيجة الارتباط الثقافي أو الاجتماعي أو غيره مما يُكَوِنْ عنصراً مشتركاً بين مجموع من الأفراد، ولا بد من ذكر ذلك التجمع الذي قد ينسب إليه جموعٌ من الأفراد، ويشكلون طبقةً عريضةً من المجتمع ولكنهم بمقياس الطبقية المادية المجردة هم الأقل حظاً والطبقة الكادحة من المجتمع، والتي عادةً ما تتأثر بالجانب السلبي من المتغيرات والسياسات التي يفرضها الأسلوب المتداول للنظام الطبقي في المجتمع، وهذا هو فهم تلك المجتمعات التي لا تملك قاعدة ذات نهج إسلامي صحيح.

وبالنظر إلى الطبقية من وجهة نظر الثقافات المادية، والنظريات الفلسفية والتي اتخذت من التجربة، والقياس الواقعي، والأخذ بالممارسات المتداولة للعملية الاجتماعية لتلك المجتمعات، مع النظر في نشأتها ومراحل توسعها، وما أفرزته من نتاج اجتماعي، وتباينات داخل المجتمع العام أساساً للاعتقاد بها. كانت على وجوه وأشهرها ما كان يتبنى نفي الطبقية وأنها سبب للصراع بين الأفراد، ووجه آخر تبنى فكرة تأصيل النظام الطبقي وإنَّه شيء أساسي في المجتمع والقانون الطبيعي المسير لحركة المجتمع.

أما المفهوم والنظرة إلى الطبقية الاجتماعية وفق المنهج الإسلامي فكانت على وجه معتدل، ومتماشيةً مع حال الناس ولكن ليس بتلك الصور السابقة ، فالإسلام أقر ظاهرة التفاوت الاجتماعي بين الأفراد، واعتبر ذلك من المقتضيات الملازمة للحياة الاجتماعية، واستمرارها وان الاختلاف والتباين عنصرٌ أساسي وطاقة محركة للعملية الاجتماعية بأَشكالها المتنوعة داخل المجتمع ومحيطة، بما يُوجدُ نوعاً من التكامل وتنوعاً بالأدوار المطلوبة للإعمار... ومع ذلك فالإسلام يحد من التفاوت ولا يدعو إلى ترسيخه، والإسلام لا يضع قيداً للترقي في المجتمع أو يشترط الانتساب لطبقة اجتماعية معينة للحصول على ذلك، أو حتى التعدد بالمقدرات العامة بناءً على المقياس الطبقي، فهناك فرق بين التفاوت الذي أقره الإسلام وبين منطق الطبقية الذي ينكره، فالتفاوت ميزانٌ للكفاءة، والطبقية إذا اتخذت الشكل الذي يدعو إلى الاستعلاء والاحتكار فهذا مرفوض من وجهة نظر الإسلام فالناس سواءٌ في الحق وفي الواجب، وان مقياس التفاضل الأصيل بين الأفراد كآفة قائم على مقياس التقوى، فالارتقاء مقترن بالإيمان ودرجة التقرب إلى الالتزام بالتشريعات والمنهج الإسلامي، وعلى ذلك فقس، فعلو الدرجات التي فيها تقرب إلى المشرع الحكيم يلازمها ولا بد خيرٌ خاص، وخيرٌ عام يصيب المحيط والأفراد، وَكل أمر بُني على الاستعلاء والنظرة الدونية للآخرين مرفوض بكافة الأوجه ومذموم شرعاً، فالإسلام يريد تلك الحالة الفاضلة،

القائمة على أسس صحيحة وريادة عملية مستمدة من المنهج القويم والشرع الحكيم، بما يضمن تطبيق العدالة وتكافؤ الفرص، والمساواة الفعلية بين الأفراد ضمن إِطار مُجتمعي يجمعُ في طياته معنى التكافل، والتكامل، وذلك في أرقى صوره عملية يُتحصلُ من خلالها على الصورة الأمثل والأكمل للمجتمع المطلوب في مناخٍ راقٍ في ظل الإسلام العزيز.

***

الباب الخامس والأربعون الإسلام والرفق بالحيوان

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها ركبت بعيراً فيه صعوبة فجعلت ترده، فقال له رسول الله ﷺ «عليك بالرفق» رواه مسلم.

وفي الحديث الذي رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ سُأِلْ وإِنَّ لنا في البهائم أجراً؟ قال عليه السلام «في كل كبدٍ رطب صدقة».

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم». رواه الترمذي.

إن الإسلام دين الرفق والرحمة، وهو دين الإحسان في كل شيء، ومما لا يُنْكَرُ عقلاً، ولا عدلاً، أنّ الإسلام يوجد تلك الشخصية الملتزمة بالمنهج القويم على صورةٍ راقية من السلوك الكريم، ويجعل الإنسان في شعور دائم، وسلوكٍ عملي للإحسان والرفق بما يتفق وجمال وكمال هذا الدين.

والرفق هو باب للإحسان، والجمال في التناول في كل شيء وفي أصل أي شيء، فإحسان المسلم مع نفسه وذاته ظاهر في تميزه بالخيرية، وإحسانه مع الآخرين من بني جنسه واضح بسلوكه ومعاملاته، وحالُ الرفق بمن خلقهم الله ممن لم يقع عليهم التكليف معلومٌ بالالتزام بالتوجيهات الشرعية في التعامل مع الحيوانات، والتي بَيَّن الإسلام أن لها حقوقاً، وان الرحمة سِمة المنهج وفعلٌ ملازم للسلوك المطلوب، ونسرد بنقاطٍ بعض ما وضحه الإسلام في التعامُل والبيان لحقوق الحيوان:

* وضح الإسلام النظرة للحيوانات وأَنها أُمم، ويراعى معها الرفق في التعامل، وان العلاقة المنفعية القائمة بين الإنسان والحيوان إكمال لحلقة الاستخلاف للإنسان وأنها لم تخلق عبثاً.

* بيَّنَ الإسلام أن الحيوانات مخلوقة ذات روح، وإنها ذات إحساس غريزي في بعض المواقف، فيراعى الرحمة والرفق في ذلك، ولا يجوز تعذيبها أو إلحاق الأذى بها بدون حق، ويؤجَرُ من يحسن إِليها، ويَأْثم من يسيء إِليها.

* نهى الإسلام عن التحريش بين الحيوانات بجعلها باباً من أبواب اللهو المؤذي لها.

* نهى الإسلام عن تكليف الحيوانات ما لا تطيق من العمل، ونهى منع الطعام عنها بما يسبب لها الأذى.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، ذلك الدين الرحيم الذي راعى حقوقاً لمخلوقات أدنى من البشر، فكيف مراعاته للبشر.

***

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

قال ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا». رواه الترمذي.

إن التقريب لفهم معنى الصحة النفسية، هو بالأخذ بالمعنى المشترك والعام للموضوع، وذلك مفهوم للجميع في عموميته وأصول فهمه، ولكنَّ إدراك حقيقة ماهيته تقع على كل نفس، لأن حالة الرضا والتصالح الداخلي هي المقياس الشخصي لكل فرد، والتي يأخذها كمعيار لنفسه، يقيس عليها مدى توافقها مع المثالية الطبيعية للصحة النفسية، أو ما كان دون ذلك.

ونستطيع القول إن الصحة النفسية، هي حالة الاستقرار الشعوري للإنسان وفق المثاليات النفسية المُعْتبَرة داخل إِطار معزز من التوازن الداخلي، مع ايجابية التقييم للذات ويرافقه حُسن الاستقبال والإرسال السلوكي والعاطفي العام.

فالصحة النفسية أشبه ما تكون بمثالية الهدوء لبحر المشاعر ومقاييس الأَنا الذاتية للإنسان، مع قوامة الصورة الذهنية والشعورية في التعامل مع المواقف الحياتية، والمؤثرات المحيطة، وإِنَّ تلاطم الأمواج في بحر النفس لهو اضطرابٌ يُحدثُ خللاً في الاتزان العاطفي والشعوري، ونقصاً في الاستقراء النفسي للإنسان في نفسه، وفي مثالية التجاوب مع الانفعالات الذهنية العاطفية والسلوكية مع الغير، وقد يصاحب ذلك كله ألمٌ داخليٌ قابض، وإحساسٌ بالخوف أو الحزن، أو كلاهما معاً، وتلك الأعراض المصاحبة مع أصل الحالة الطارئة إنما تتفاوت حسب الرصيد النفسي الايجابي للشخص، وقوة إدراكاته، ومدى قابليته للاندماج مع الحالة النفسية الجديدة والمؤثر

الواقع عليه، مع التركيز على أهمية القدرة والقبول للاستشفاء والعودة الى الحالة المثالية الأصلية الثابتة طبعاً وخَلقاً، والتي يكون فيها الإنسان في توازن واتفاق عام.

أما بالنسبة لدور الإسلام في إيجاد وتثبيت واقع الصحة النفسية بهيئتها الأمثل، فإنما كان ذلك نابعاً من منهجه العام، والذي يسعى دوما في كافة منابعه لتحقيق السعادة والتوازن النفسي للفرد، مشكلاً تلك الشخصية الثابتة والمثالية ومتوافقاً بذلك مع أصل تكوينه وسمو الرسالة التي حملها وجمال الشرائع التي يمارسها والتي تحمل طابع الكمال والرقي، فقام الإسلام بإحاطة الفرد بدائرة من الحفظ الوقائي والتأسيس المعنوي والتوجيه الأمثل، فالخالق سبحانه أعلم بمن خلق، وان تأدية الدور الحقيقي والمنوط به الإنسان لهو متمم لخلقه وأصل وجوده، وان وجوده في تلك الدائرة الإيمانية والاعتقادية إنما هو إِعمالٌ حقيقي لذلك وتوافقٌ مطلوب بين الإيجاد والتأدية.

ومن الأحوال والأمور المُفَعِّلَة، والتي تناولها الإسلام لإيجاد الصحة النفسية في الشخصية الإسلامية للفرد وجعلُها جزءاً منها ما يلي:

أولاً: إيصال الإنسان للإدراك الصحيح والفهم الإيماني الأمثل لأصل الإيجاد والاستخلاف في الدنيا، والدور المنوط به، وبأنها دارٌ للعمل والعبادة، وبالإيمان العملي للمصير بعد ذلك بالتيقن بوجود دار الجزاء والآخرة، وهذه الحالة النفسية المدركة إنما هي تثبيتُ قدم العبد في أمره مما قد يعتريه من تساؤل عن السبب في الوجود وما بعد ذلك.. وتخرجه أَيضاً من السكون السلبي وتضعه في دائرة الفعالية وذلك وصولاً لتحقيق الخيرية في الدنيا والآخرة.

ثانياً: تقوية الصلة بالله سبحانه وتعالى وما أَعظمها من صلة، فإن المجاورة في الدنيا لمن ملك أمراً من القوة لفيه امتدادٌ لذلك واقتباس منه فكيف الصلة بالقوي العليم، مالك الملك، العظيم الكريم، فهنا أعظم الصلات وأقوى الهبات وكمال الروحانيات، وإنما تكون تلك الصلة مع رب البريات بالامتثال بالشرائع، وتأدية العبادات، والأخذ بالتوجيهات الشرعية في الإقبال على ما يرضي الله سبحانه وتعالى

من قول أو فعل، والإكثار من الأذكار والتلاوة لكتابة الكريم، وإعمال الجوارح بأعمال الخير والتقرب بكل ما فيه برٌ وإحسان.

ثالثاً: إيجاد التفاعل الأجمل ممزوجاً بالشعور الإيماني لما بيَّنه الشارع الحكيم من فوائد وجماليات الصبر، والرضا، والدعاء، والقضاء والقدر، وجمال القيم، وعلو الهمم، وغير ذلك الكثير مما يوجِد المثالية في التقبل للأحداث المتفاوتة في قالب إيماني ورضا انفعالي.

رابعاً: ترسيخ وثبات التوافق الأمثل والحقيقي للإنسان مع نفسه بالتزام الصراط القويم في حياته وفق الاعتبارات الشرعية والإيمانية، وإيجاد التوافق مع الغير بالتمثل بالشخصية الإسلامية ذات الطابع الأخلاقي العالي، والسلوك الراقي، والإحساس الإنساني الأمثل، وكل ذلك وفقاً للمنهج الإسلامي.

خامساً: بيَّنَ الشارع الكريم أن الخروج من الدائرة الإيمانية وارتكاب ما نهى الله عنه باقتحام المعاصي، والإعراض الإيماني، لهو سببٌ رئيسي في الإضراب الوجداني والاعتلال النفسي، وذلك لخروج النفس عن طور الصواب، ومحاسن الأمور، وأصل الفطرة، ودليل ذلك الجلي الواضح في قول ربنا سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

فوجب الإقرار والاستقرار بالإيمان والعمل به، وتفعيلهُ قلبا وقالبا، ومجاورةَ أهله وملازمةَ أصله.

إذاً لا بد أن نعي ونؤمن أَن الله سبحانه وتعالى يعلمُ أنَ الإنسان يمر بحالاتٍ فيها ضعف، وان هناك أحاسيس تصيبه كباقي البشر، وأمورٌ قد تعتريه، فأراده متمسكا بحبل الرجاء والبقاء في دائرة الإيمان، وأَن ذلك الطارئ ليس بالأصل، وإنما هي أمور عابرة، فوجهنا الكريم سبحانه إلى الرضا والقبول، وعلى ذلك جَعَل الأجر وتكفير الذنوب وأَن الحقَّ والكمال حينما نلقاه، فلا حزن ولا هم بل جمالٌ وكمالٌ ونِعمْ.

وقال خير من قال من البشر ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصبٍ، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه». متفق عليه.

***

الباب السابع والأربعون مفهوم الحب في الإسلام

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

بدايةً ما هو الحب؟

تلك الكلمة التي حملت أوجهاً كثيرة، ومعاني عديدة، فحيرت من أراد تفسيرها وتعددت المقالات في تعبيرها...

وإنما نريد هنا الراقي منها، الذي يرقى من بها محمول وتصل به إلى المأمول،

والحب: هو توجه القلب ليربطك بمن أحببت ويريك جمالَ ما به تعلقت، وهو الميل إلى الشيء.

والحب نوعان: حب عقلٍ، وحب عاطفة، فعقلك يدلك على الخير والرجاء، فتجد بذلك الفلاح والثناء ويوصلك لمبتغاك ويربطك بمنتهاك، وحب عاطفة تلك التي تحرك إحساسك وتزيد لمن أحببت إقبالك.

وكيف لا تجد ذلك في الدين، بل تجده وذلك أمر يقين، فالإسلام دين المحبة الذي أنعم الله سبحانه علينا به، وترى صورَ المحبة فيه في كل شيء، تجدها في الإحسان والإيثار، وفي التسامح والعفو، وفي علاقة الأفراد بينهم، وعلاقتهم بمن حولهم، وتدركه في عملك وعبادتك، فأداؤك للعبادة متكرر برغبة وحب، يرفعك للرقي بزيادة العمل والإقبال على الله، وحلقة الحب محيطة بالأنفس، والتحرك داخل المجتمع الإسلامي فتحس برغبتك بتعميم الخير، فإن رقي المعاملة من أصل حبك الفطري للسعادة والخير للجميع، ومن أصل رسالة الإسلام التي ربطت الجميع بحب الدين، والخير والبر، والامتثال بالشرائع والتوجيهات، التي عملت على تنقية وتهذيب النفس والرقي بها لأعلى درجات السمو والمحبة...

فالإسلام راعى جميع السلوكيات والنوازع والميول البشرية ووضع لها قالباً وطريقاً سوياً لا تُخرجُ الإنسان عن أصل فطرته، ولا يكون فيها ميلٌ إلى الشهوانية العمياء،فهذب تلك السلوكيات والنوازع لتكون دافعاً راقياً لحياة الإنسان ، فالإسلام

دين جمال وسلام، ودين محبة ورقي إنساني،وصفاء وجداني، وهذا ما أراده الإسلام ودعا إليه وحث عليه، وما أراده في كل أمر بأن يكون الجانب القلبي منه سامقاً مائلاً إلى عموم الخير والمحبة للجميع، فسلوك أتباع هذا الدين الكريم في أنفسهم ومحبتهم هم رسالة دعوة للعالمين.

والإسلام بنظرته ومفهومه للحب، أراد أيضاً كأساسٍ للأعمال والمعاملات أن تكون مبنيةً على حب الأصل الموجد، وهو حب الله سبحانه وتعالى، وأن يتقرب الإنسان لله بما يحبه الله، وإنما يكون ذلك بقبول شرعه وتنفيذ أمره، وذلك القبول ترى فيه كمال المحبة بالإقبال القلبي والامتثال العملي لمراد الله سبحانه وفق ما شرع.

وإن من أسماءه سبحانه الودود، بمعنى المحب لخلقه وعباده و الرحيم بهم، وقد جعل الله سبحانه وتعالى محبته ومحبة رسوله الكريم أعلى درجات الحب وأرقاها، وعلى ذلك يثاب المسلمُ أجراً عظيماً وقرباً كرياً، وإن محبة الإسلام من محبة الله، فحُبك للإسلام هو امتدادٌ لحب الله وحب رسوله وطاعة لهما.

***

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨].

السعادة: هي شعور داخلي يراه الإنسان بإحساسه بالرضا وبانشراح للصدر مع طمأنينة قلبيه وسرور بالنفس.

إن مفهوم السعادة يختلف من شخص إلى آخر، ولكنَّ الشعور الايجابي والإقبال النفسي مشترك لدى الغالبية، وذلك لاشتراك الجميع بإدراكات الحواس الفطرية وعوامل الاستقبال النفسي والانفعالي في المجمل، مع وجود تفاوت في درجة الاستقبال للإيحاء وما يقابله من ردود انفعالية شعورية لدى الإنسان.

والسعادة مُصطلح نسبي، ونستطيع القول بأن تعريفها الحقيقي مرتبط بتعريف الإنسان كفرد لها، من ملازمة الشعور الحاصل من خلال تجربة أو استشعار بالرضا في الأَمر الذي يَرتبطُ بهْ ويكون عندهُ ذو بال، ولا ينحصر الأمر بالمادية البحتة، أو المعنوية المجردة، أو غير ذلك، فكل إنسان قد يرى أمراً له فيه سعادة لانطباعٍ احتوته نفسُهْ، أو منفعة متحصله وقعتْ. ولكنها لغيره قد تكون ليست كذلك، فكلٌ ينظر ويدرك بزاوية مختلفة، مع وجود تماثل وتقابل في كثيرٍ من الأوجه، وهذا مما يجعل الأكثرية يتشاركون في الميل والسعادة لأحوال مشتركة توجِد السعادة والرضا، وذلك لأنها في حد ذاتها أحوال ايجابية وذات نفعية على عدة أوجه.

و أما مفهوم الإسلامي للسعادة فكان أشمل، وذو نظره مثالية مطابقة للواقع ألإيجادي والشرعي لهُ، وكنتاج لأداء التكاليف، فلم يقتصر المفهوم على المنفعة المجردة، والحياة المادية، والشعور الموافق للتحصيل، لأنها مرحلة آنية مؤقتة، فالإسلام بيَّنَ أن الإنسان يكون في رحلة خَلقه على مرحلتين مرحلة الحياة الدنيا، ومرحلة الحياة

الآخرة، والإسلام أراد التحصيل الإجمالي للسعادة في الدارين بشكلها الجزئي في الدنيا – وتأتي جزئيتها من عدم الديمومة ومما قد يعتري الإنسان من أحوال تطرأ عليه فتجعله في تفاوتٍ في أمره، أو ما قد يصيبه من أمر يعود عليه، لّما كانت داراً للمرور وللاختبار- فهي لم تجمع الكمال للإنسان في نواحيها أو بكل ما فيها إلا ما كان من عند الله الحكيم العليم...

ففي أمر الدنيا:

أتى الإسلام بالضوابط والشرائع التي تكفل السعادة للإنسان، فالإطار الشرعي العام محيطٌ به إِحاطة تجعله في دائرة من الطمأنينة، والاستشعار العالي بالرضا، وعلو الذات، لما كان فيه من التزام بالمنهج، وتحكيم للشرائع، ورُقيٍ في السلوك والمعاملات في نفسه كفرد وفي علاقته مع الآخرين، والذين انضبطوا هم أيضاً بنفس الضابط الشرعي، فكانت الدائرة التكاملية حين إذ حافظةً للجميع وموجدة للسعادة في النتاج والشعور العام، ويكون ذلك واضحاً ومتزامناً برؤيتنا لارتفاع معدل السعادة وارتقاء الحالة الكلية للأفراد مع معدل الالتزام والتحاكم القلبي والانفعالي للشرائع الحكيمة، ولا بد أن نذكر هنا أنَّ إدراك الإنسان لذاته عن حقيقة أمره وسبب وجوده وحسن مآله، والذي وضحه الإسلام وبيَّنهُ بصورةٍ مثالية، قد أوجد ذلك الاستقرار العام والطمأنينة الفعالة، وذلك كله يكون مصاحباً لحركاته وانفعالاته ومسير حياته، وبشكل ايجابي في نفسه وعلى غيره.

أما بالنسبة للآخرة:

فهنا يبرز المفهوم الحقيقي للسعادة وماهيتها بنظر الإسلام.

فالسعادة الحقيقية هي السعادة الدائمة، التي لا يشوبها نقص، ولا يخالطها كدر، ولا يرافقها عِلَلَ، وهي الممتدة بلا انتهاء، بكمال وجمال بلا فَناء، وتلك لا تحصل إلا برضا الرحمن، ودخول الجنان، وهي المطمعُ الحقيقي والثواب الأجزل، وهي وعد

الرحمن لعبادة المؤمنين حين يلقاهم، وبالنعيم المقيم في جنته برحمته يجزيهم، فهناك السعادة الحق، والجمال الحق، والثواب الحق.

وهنا ندرك أينَ السعادة الحقيقية، وكيف هيَ، ونتيقن أنَّ مفتاح الباب لتلك السعادة يكون بالنجاح في مرحلة الدار الدنيا، وذلك بالامتثال لمنهج الله وتنفيذ أوامره وتحكيم شرعه، فتلك هي نظرةُ الإسلام الأكمل ومفهومِهِ الأشمل.

***

الباب التاسع والأربعون مفهوم الجمال في الإسلام

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم.

قال ﷺ: «إن الله جميلٌ يحب الجمال» السلسلة الصحيحة للألباني.

الجمال هو الشعور بالرضا بما تحقق من متعة البصر وسرور النفس.

والجمال في المفهوم الإسلامي ذو معنى شمولي، فهو دلالةٌ على الصورة الأبهى في كل شيء، والإسلام لم يمنع الجمال أو يعاديه، بل سما به سمواً راقياً، ووجهه وأَحاطه بالإطار الشرعي لئَلا يخرج عن مضمونه وأصل استحسانه.

فمفهوم الجمال انبثَقَ من وجدان الإنسان وهو قيمة أصلية في الفطرة الإنسانية، وإِنَّ استشعار الجمال والميول للحُسن في إدراك الأمور لموافق لنقاء الفطرة والاتزان في الميول الإنسانية السليمة.

وللجمال مساران: مسارٌ مادي، ومسار معنوي، أما المادي فهو ما يراه الإنسان بعيني رأسه، أو يَحُسُهُ بجوارحه، فينفعل بذلك بإقبالٍ واختلاجٍ قلبي لطيف، يشعر به بالميول والإعجاب بالصورة الحسية، وتراه في العُلو في الترتيب، والتقديم المادي للمحسوس، وأجمل وأكمل ما تراه في ذلك، إبداعُ الخالق سبحانه في مخلوقاته، وما أَكرم علينا به، فحالتها كما خُلقِت ملازمٌ فيها صفة الإبداع والجمال الذي بلغ حالةً لا يُقدر على مُشابهتها... أما المسار المعنوي: فهو ما يراه الإنسان بعين قلبه، وعقله، فيدركه إِدراكاً داخلياً يستشعر به بالرضا النفسي والأمان الانفعالي، وتجدهُ في كل أمرٍ أنتجَ صورةً خيرية، أو حالاً صاحَبَهُ حُسنٌ ونقاءٌ في السلوك، وصفاءٌ في السريرة، وما كان في رقي وتعاطي القيم.

فالإسلام يريد للإنسان أن يكون التناول المادي عنده مصاحباً للقيم الفضلى والنقاء الداخلي وكل ذلك في إطار إيماني وامتثال شرعي.

فالجمال الحقيقي هو ما كان فيه ظاهر الإنسان وباطنه في اتجاه خيري واحد، ومن منبع نقي واحد، فينتج عنهما سلوكٌ موافقٌ لمراد الله سبحانه، فبذلك يكون الجمال هو تحقيق القيم الخيرة والتوجيهات العلوية في كل الأشياء والأفعال.

ونضيف أمراً وَجَّه الإسلام إِليه وحث عليه، فالصورة الشكلية للمسلم لا بد أن تكون جميلةً في كل وقتٍ وحال، وكذلك السلوك والانفعال، فوجب أن يحمل بسلوكه وداخله ذات الصفة الجمالية الظاهرة، وان يعطي كُلاً من جمال الهيئة وجمال الفعل الصورةَ المطلوبة، والتي تعكس جمال الإسلام في الظاهر وفي المضمون.

***

الباب الخمسون الإسلام والحث على حسن الأخلاق

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

قال ﷺ: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً» البخاري ومسلم.

الخُلق: هو هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بدون تكلف، وهو طلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى، فصاحب الخلق الحسن في الإسلام الكريم سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة.

إن قواعد السلوك، ومعايير الأخلاق، وآداب التعامل، هي مقياس واضح من مقاييس الالتزام بالإسلام وعنوان جَلي من عناوين الرقي، وسِمَة من سمات الارتقاء والسمو الحضاري.

إن دين الإسلام الكريم كُله خُلق، وان للأخلاق مكانة رفيعة في الإسلام وقد حث الإسلام على التخلق بها، والعمل على الارتقاء بها لأعلى درجات القبول والجمال، فهي تلك الصورة التي تعكس حال الأفراد في تعاملاتهم وفي كافة دوائر حياتهم، من دائرة الأسرة، فالمجتمع، إلى دائرة الإنسانية العامة، فقواعد السلوك والآداب التي تحكم العلاقات بين الناس بكافة أطيافهم، وقنواتهم، يتولد عنها حُسن العشرة وسعادة الأفراد.

إن الإنسان يخاطب الآخرين بفعلة وقوله، وان لغة الأفعال واضحةٌ جلية لدى الآخرين، وتترك ذلك الأثر الذي لا يقل معنى عن القول، لهذا وجب على صاحب الخُلق أن تتماشى أخلاقه مع حياته وان تتلازم معها، وان لا تكون آنية، فان الأفعال والأقوال لتتشابه لدى الجميع، لكن يرتقي بعضها على بعض بما يتصاحب معها من حسن الخلق وحسن المناولة.

إن الأخلاق الإسلامية تطبيقٌ لشعور راقٍ بمراقبة الله سبحانه وتعالى لحياة المسلم، وأَفعاله، فإن من خصائص الخلق الإسلامي أنه اوجد ذلك التوازن المتوافق أيما اتفاق مع الفِطر السليمة، والطريقة بين متطلبات الجسد والروح، وكيفية الحصول عليها،

ووضع تلك المتطلبات في إطارها الشرعي المناسب لها، فأوجد الصورة الكريمة لحال الإنسان مع رغباته ونوازعه بشكل راقٍ ومقبول للجميع.

وقد أراد الإسلام من المسلم، أن يبذل ما يستطيع من التخلق الحسن، والرُقي الإنساني، والأخذ بالقيم العالية، لما في ذلك من خير للفرد وللمجتمع إضافةً لما يحصِّلُ على حُسن خُلقه من الأجر والثواب الشيء الكثير، فإن من أعظم الأجور عند الله تبارك وتعالى ما كان فيه التقوى وحسن الخلق، وإن الرجل ليبلغ منزله العابد بحسن خُلقه، وإنك لترى تلك الروح وتلكم المحبة التي تحسها الجوارح والقلوب بحسن الخُلِق منَ الخَلْق، وترى السعادة والطمأنينة دائما مصاحبةً لحسن الأخلاق وأدائها.

ولنا في رسول الله ﷺ قدوة عملية في ذلك، فما بلغ أحدٌ ما بلغهُ رسول الله ﷺ، كيف لا وقد كان خُلُقُهُ القرآن، فبلغ بذلك ﷺ مبلغ التمام، وهو سيد الأنام، فإن الصورة العملية لخُلق الرسول الكريم لهي نبراسٌ وتوجيه يقتدي به كل مسلم، وان حسن الخلق لباب من أبواب الدعوة العملية، وهي دليل على صحة الرسالة، تلكم الرسالة التي بلغت الكمال، ومرادها كل خير وعلو وجمال، وهي من الله الكريم المتعال.

***

الباب الواحد والخمسون الإسلام ومفهوم الروح

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩].

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

إننا إذا قمنا بتشريح الإنسان تشريحاً معنوياً لفهم وإدراك كنهه، وما جمعَ كيانه، وما هو عليه، لرأينا بعين النظر وبالحواس الإنسانية المعروفة جسداً مادياً وأعضاءً رُكبت بنسق وترتيبٍ بديع، وأُوجد تناغمٌ بين تلك الأعضاء بشكل تكميلي يعطيها القدرة على الاستمرارية وقيام مادة الحياة، ولكننا نقف هنا أحيانا حائرين، ما هي تلك الطاقة التي تحرك ذلك، وما هو الشيء الذي جعل المادة في شكل حي، وما الفرق بين جسدٍ نابضٍ بالحياة متحركاً فيها وبين آخر لا يتحرك، مع أنهما يشتركان في كل شيء من حيث الأعضاء الوظيفية، ومن حيث الهيئة البشرية العضوية، فنسأل أنفسنا ما هو ذلك الجزء الحقيقي وجوداً والمخفي نظراً وهو ملازم لمعنى الحياة وبه يكون؟

وهنا أعطى الإسلام الإجابة الشافية والحقيقة الإيمانية لذلك، فقد بينت الأَخبار، وما وَرَدَ من الثوابت في دين الإسلام ماهية ذلك، ولكنها لم تبينه كشرحٍ لأمر دنيوي مادي، بل أخرجت تلكم الحيرة، وجعلت الفهم والإدراك مرتبطٌ بحقائق أخرى نؤمن بها فهي من جملة ذلك الفهم والاعتقاد العام، وتلك الحقائق والأمور إنما هي من عالم الغيب، وعالم الغيب أمرٌ اختص به سبحانه، ولا يعلم به أحد إلا من اختصه الله سبحانه بعلم منه، وهو من ثوابت الاعتقاد واليقين في الدين الإسلامي، فليس كلُ أمر يجب على الإنسان أن يعرفه، أو يدركهُ إدراكاً كاملاً، فإن الإنسان في حقيقة أمره وجسده الذي هو بين جنبيه، لعاجز على إدراك كل شيء فيه، أو الاطلاع على دقائق بعض الأمور، فهل يجب عليه معرفة كلُ شيء، طبعاً لا، فما شاء الله من أمور الغيب و اختص بها فهي عائدة إليه سبحانه، فليس لنا عَقْلاً ولا إيماناً ولا اعتقاداً أن نتعدى على

ذلك، أو نتجاوز الأمر بالطلب بالمشاركة فيما لم نؤمر به بالتوسع، فهو في عالم غائبٍ عن إدراكاتنا وقدراتنا، ولا نعلم منه إلا ما أُخبرنا عليه من الله سبحانه ومن رسوله عليه السلام بوحي الله سبحانه.

وإنَّ الإنسان ليرى الجهاز المادي يتحرك بحركة تلقائية لسريان التيار فيه، فهل أدركت حواسه رؤية التيار، وهل يجب عليه أن يرى حقيقة التيار مع نَظرِهِ للجهاز، فإنه يكفيه ما يراه، ولا يؤثر عليه أو يعطل جهازه إن لم يدرك ماهية التيار.

والإسلام عُلمَ منه الصورة العامة للأمر، وبتوضيحٍ لا يبقى الإنسان في حيرة وتخبط في أمره، وبُينَ له أنه في عالمين:

العالم المشهود وهو العالم الحسي الذي يدور في فلكه، ويتأثر به ويؤثر، وتكون فيه حياته ويمارس فيها أعماله بشكل ووعي كامل.

وهناك عالمٌ غيبي مخفي عنه، وهذا لا يستطيع الإنسان الولوج إليه، ولكن له فيه ارتباط من نواحي معينة غير مكلف بالتعمق فيها، لأنها خارجةٌ عن إدراكاته وإمكانياته، ومن تلك النواحي أمر الروح، فالروح جوهر شريف وخلقٌ من أعظم مخلوقات الله، وقد نسبها الله سبحانه لذاته العلية، فأختص جل في علاه بعلمها ، فلا يعلم أحدٌ بكنهها ولا أمرها، ومن أدعى عِلماً بها، فلا يصح ذلك منه أبداً، فلا علم لنا إلا بما علمنا الله، ومما أُعلمنا به: أن الروح مستقرها الجسد، وذلك الجسد هو كوعاءٍ لها، وهما متلازمين أبداً ما دامت هناك حياة بالجسد، و إن الروح لتنفخ في الجنين وهو في بطن أمه بعد أربعين يوماً من وجوده، و مما بيَّن لنا الخالق الحكيم انه إذا جاء أجلُ الإنسان وحانت منيته فلا مقدم لذلك أو مؤخر إلا بأمر الله، ومتى ما سُحبت تلك الروح من الجسد، ذهبت معها الحياة...

الخلاصة:

إن معرفة الشيء إما تكون من بيانٍ عنه، أو من أجزاءه الذاتية، أو مما يُعرف به كمعرفة أصل استخدامه أو سبب وجوده أو غايته، والروح هنا مخلوقٌ غيبي غير

ملموس ماديا، غائبٌ عن الإدراك الحسي، لكنه موجودٌ عقلياً وإيمانيا ومُثبَتٌ وجوداً في ديننا وهو الإسلام فكفى بذلك دليلاً، والأكفى بقول ربنا:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥].

***

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام:٨٢].

الأمن هو ضد الخوف، وهو حالة الطمأنينة التي تصيب النفس فتميل إلى الشيء ميلاً واثقاً راضياً مرتبطاً بالقبول والسكون النفسي، وهناك أمن خاص وأمن عام، أمنٌ يحيط بالنفس وأمنٌ يستشعره الأفراد مجتمعين، والأمن بعمومه رأس التوفيق والنجاح الذي يصل إليه الفرد والمجتمع، وهو نتاجٌ لمنظومة التعامل الناجح والاستقرار النفسي في كافة الأدوار التي يقوم بها الفرد داخل المجتمع مع أقرانه، ويقوم بها المجتمع مع غيره من المجتمعات الأخرى.

والإسلام وضحَ مرتبة الأمن بجعله من أهم الضروريات الإنسانية، ومن أكبر المقاصد الشرعية فهو هدفٌ لكل شرائح المجتمع بكافة أطيافه وعلاقاته، وجعله أساساً لكل شيء ونتاجاً لأي شيء، فمنظومة الحياة لا تتحرك بغياب الأمن والاستقرار، فراعى الإسلام ذلك، وسن الشرائع والقوانين التي تحفظ للفرد كافة النواحي التي تجعله في بيئة مستقرة آمنة، من الأمن النفسي على حياته وحقوقه، ومن الأمن الاقتصادي في معاشه وممتلكاته، ومن الأمن العاطفي والاجتماعي بعلاقته مع الآخرين واحترام خصوصيته وخصوصية علاقته، وفق منهج شرعي تبنى مراعاة توفير المناخ الذي يُقَوِّمْ ويعين الإنسان على أداء رسالته ووظيفته في الأرض.

وقام الإسلام الحنيف ببيان مرتبة ومكانة الأمن لحياة الفرد، وتكامل أمان المجتمع مع أفراده ومع المجتمعات الأخرى، وقد تناول الأمنَ للمسلم وغير المسلم، فما دامت هناك علاقات بين أطياف كثيرة فلا بد من وجود الأمن لحفظ تلك العلاقة وفق منهج سوي وعادل يَأمَنُ كلُ فرد فيها على نفسه، وعلى غيره.

وقد قام الإسلام بوضع التشريعات، وبَيَّنَ النصوص والأحكام التي تُجَرِّم من تعدى واعتدى وقام بما يؤثر على امن الفرد وأمن الجماعة الكلية، وسَنَّ القوانين،

والحدود، والعقوبات للمخالف، فبذلك يكون قد ردعَ المعتدي من الإقدام عليها، وحفظ الأفراد من التعرض لحقوقهم أو التأثير عليهم، بما يؤثر على استقرار حياتهم في كافة ممارستهم المشروعة.

والإسلام قد أولى أهمية الأمن للفرد وفق منظومة امن كلية يدور بفلكها، فَيَأمنُ على نفسه وعلى من يعول، فيرقى بذلك العقل والإنتاج وتقديم ما هو صالح لنفسه ومصلح لغيره، فإن شعور الفرد بالأمان يكون في حد ذاته دافعاً أساسياً في التقدم والانجاز في كافة مناحي الحياة، ولم يغفل الشارع الحكيم على بيان أمر الأمن الأبدي للمؤمن في العالم الآخر كحصيلةٍ لما قدَّمَ في حياته الدنيا، فعلم واطمأن أنَّ الخير الذي قدمه، والعبادة الحق التي أداها، ليليها ثوابٌ جزيل يناسب ما قدم، فاطمأنت روحه بذلك الأمان والنعيم الذي لا تشوبه شائبة ولا يعكر صفوه أحد، فاستقرت روحه بالعبادة لله طمعاً بما عند خالقها، وتعلقه بالله سبحانه أعطاه ذلك الأمان الحقيقي عندما أيقن بالأمان الكلي بعد أن يتعدى ويجتاز مرحلة الاختبار الدنيوي،

فكما استشعر بالأمان في دنياه بما حفظته له الشريعة، أَيقن أيضاً بالأمان الكامل فيما بعد ذلك.

***

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤].

وقال سبحانه تعالى في الحديث القدسي «يا عبادي إنّي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» رواه مسلم.

وقال ﷺ «الظُلم ظلمات يوم القيامة» رواه البخاري.

الظلم ما هو الظلم؟

فيكفي لنا تعريفاً ذلك الشعور الذي ينتابك حين تقرأ تلكم الكلمة، أو ترى موقفاً يعتبر فيه ظلمٌ واقعْ.

فشعورك المستمد من نظرتك السليمة ونفسك القويمة يأبى ذلك ويمقته، فالظلم هو الجور، وهو وضع الشيء في غير موقعه مما يترتب على ذلك إيقاع الأذى بالمقابل على المظلوم وهو الطرف الذي تعرض لما يؤذيه في نفسه ككيان، أو في ما خَصَهُ من مقدرات، أو ما يعنيه ويكون ذا بالٍ عنده، فالظلم غيابٌ لنور العدل، وذهابٌ لرؤية الحق في مكانه، وللظلم أنواع في الإسلام، فحسب الفهم الإسلامي فهناك ظُلمُ الإنسان لنفسه، وظلمه لغيره؛ أما ظلمه لنفسه فبإقحامها المعاصي وممارسة ما يخالف الشرع، وأعلاها ظلماً أن يشرك الإنسان مع خالقه شيئاً يعبده، فَيَحيدَ عن أصل الإيجاد ويستعمل نفسه في غير مكانها وأصلِ خلْقتها وهو عبادة الله وحده لا شريك له، أما ظلمه لغيره فهو التعدي وإيقاع الضرر بالغير ونزع صفة الأحقية بالشيء عند من يستحقها، فظلم الغير بعموم معناه أن تُغَيِّبَ الحق وتنصر الباطل، فيترتب على ذلك أذى يصيب المظلوم في حالٍ من أحواله أو أكثرُ من ذلك.

إن الإسلام الحنيف هو دين العمل وان استقامةَ الحياة والعمل لا يكون إلا بالعدل، وإن دخول الظُلم على ميزان الحياة يعمل على الإخلال بذلك التوازن وعلى

ذهاب منظومة الاعتدال في الأمور، وإيجاد الصورة المعتمة للحياة لغياب الطمأنينة والاستقرار المصاحب للعدل...

والإسلامُ دعا و أوجبَ العدل، ونبذَ الظلم في كل شيء، وتوعَّدَ الظالمَ وأهله أيما وعيد وأنكر أفعالهم أيما إنكار، وان الله العزيز الحكيم من صفاته العدل فسبحانه قد حَرَّم على نفسه الظلم قبل خلق الخلائق وجعله محرماً بينهم حين خلقهم، وإنه سبحانه لا يُظلمُ عنده احدٌ مثقال ذرةٍ أو أصغر من ذلك، وإن إدراك ويقين الإنسان ذلك (وهو كذلك حقاً لا ريب فيه) جعل الإنسان في دائرة من الاستقرار والأمان العام والقلبي لعلمه انه بين يدي الرحمن العدل، وأَنَّه لن يناله ظلم من خالقه بأي شكل كان، وأنه سيأخذ حقه ممن ظلمه.

والإسلامُ بيَّنَ في تناوله وأحكامه ذلك التوعد والوعيد للظالم من الله سبحانه وتعالى، ومن الرسول الكريم بأن لا تناله شفاعته عليه السلام، وان يرى انعكاس ظلمه على نفسه بعقاب في الدنيا قبلَ الآخرة، وإنما تلك الشدة والوعيد ذكرت لتكون رادعاً وسداً مانعاً ليمنع الظلم قبل وقوعه، ولبيان عظيم العقوبة لعظَم الظلم، وذلك لعلم الشارع الحكيم بعظم الأثر الذي يلحقه الظلم، وأَنه معول هدمٍ في جسد المجتمع، وبابٌ من أبواب الفساد وضياع الحقوق، وانتشارٌ لنوازع الغل والسخط بين الأفراد، وحجرُ عثرة في الحركة الحياتية للمجتمع بكافة أشكالها.

إنَّ الإسلام يريدُ مجتمعاً متماسكاً، عدلاً بين أَفراده منصفاً باراً بمحيطة، فالمجتمع يحوي كافة الأطياف والطبقات الاجتماعية ويضم بين جناحيه المسلم وغير المسلم، وتدورُ خلاله معاملات، وتبادلات، وتفرعات، أصعب من أن تحصى، فلذلك كان ولا بد أن يقوم كل ذلك على ميزان العدل وغياب الظلم، فيعرف كل فرد ماله وما عليه، وينتظم داخل الدائرة العامة باتزان واستقرار وهذا لازمٌ لاستمرار الحركة الآمنة والسليمة للمجتمع، وسببٌ أكيد في تطورها ورقيها، وبروزٌ لحاله الطمأنينة العامة بين الأفراد وانتشار الرضا.

فالإسلام يريد مجتمعاً متميزاً بأرقى نظامٍ مبنيٍ على العدل وذلك كانعكاس حقيقي للالتزام بالمنهج والتوجيه الإسلامي الحكيم، وجَعْلُ ذلك في صورة عملية حياتية يُتحَصَلُ منها على الغاية الأسمى في الصورة المثلى للتطبيق.

***

الباب الرابع والخمسون الإسلام ومنعه للربا

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وفي الحديث الشريف عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لعنَ رسول الله ﷺ آكلَ الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء» رواه مسلم.

والربا بالمفهوم الشرعي الإسلامي هو زيادةٌ مشروطة مقدماً على رأس المال مقابل الأجل لوحده، ويفهم أيضاً بأنه زيادةٌ مخصوصة لأحد المتعاقدين خاليةٌ عما يقابلها من عوض وهو نوعان ربا الديون وربا البيوع.

والربا في الإسلام سببٌ لحرب الله ورسوله، وهو من الموبقات، وقد نص الشارع الحكيم على تحريمه، وتَوَعَّدَ فاعله بالعقاب في الآخرة وبنزع البركة والمحق في الدنيا، وذلك لما للربا من خطورةٍ متعدية وجورٍ يقع على الفرد والمجتمع، فإن ضرره الجائر يترك الأثر السلبي على حياة الفرد في النواحي المعيشية ومن ناحية الكسب، فيكون زيادةً في العبء على الفرد بما تم إضافته بوجه غير مشروع على أصل المال، ويترك أيضاً ذلك الأثر النفسي المترتب على الربا من شعور بالظلم والكراهية لما وقع من استغلال الدائن لحاجة المدين، ويوجد أيضاً تأثيراً ضاراً وواضحاً على الناحية الاقتصادية في المجتمع فيؤدي إلى ارتفاع الأسعار، وزيادة نسبة التضخم، وزيادة تكاليف الإنتاج، ويعمل على الحد من الاستثمارات وعمليات التبادل التجارية، والذي يعود كل ذلك بأثرٍ رجعي على الأفراد والمستهلكين وعلى عموم المجتمع ككل، ونرى آثار ذلك واضحةً في تدني مستوى المعيشة والنقص في تأمين الاحتياطات الأساسية والحالة السلبية العامة التي يستشعرها الأفراد في ظل الدول التي تتعامل في الربا .

إنَّ الإسلام يشترط في المعاملات التجارية والمالية أن تكون قائمة على نظام متوازنٍ وعادل يُراعى فيها تطبيق التوجيهات الشرعية لتعود بالمنفعة العامة على جميع الأطراف، ولتشكل اقتصاداً مثالياً، ونفعياً تكافلياً، وتكامليا للمجتمع الإسلامي يرفع من مستوى

معيشة الفرد، ودرجة رفاهيته، وتأمين احتياجاته، وان تخلو العلاقات التبادلية بين الأفراد من أي صورة من صور الاستغلال والطبقية المادية المتحكمة برؤوس الأموال.

وان ملكية المال في الإسلام محددةً في الكيف وغير محدودةٍ بالكم، فالمال مال الله والإنسان مستخلفٌ فيه، وإنما المال وسيلةٌ لتحقيق متطلبات واحتياجات الأفراد فإن تم احتكار واستغلال تلك الوسيلة لتحقيق المكاسب غير المشروعة لبعض الأفراد أو المؤسسات على حساب احتياجات الناس وعوزهم فإن ذلك مما منعه الشرع وأغلظ في عقابه، فالربا كما انه نموٌ زائف في الأموال، أيضاً هو عملية جائرة بين طرفين احدهما ثَبَّتَ أصل ماله وزاد عليه بلا وجه حق ولا أمر شرعي، والثاني مدين أضيف عليه عبئٌ وضرر مركب إذا عجز عن السداد، فهو ضمان لطرفٍ لم يقم بعمل تجاري أو أمر ذي منفعة على حساب طرف ثانٍ احتاج للمال وأراده بوجه غير مشروع، لذلك فالإسلام حارب الربا وتوعد فاعله، لأن مرتكبه قد أَعلن العداء على الجميع ابتداءً بالفرد وامتداداً للمتجمع.

ومما يجدر التنويه إليه، أَن الربا يعمل على إيجاد طبقيةٍ ماليةٍ في المجتمع لها ذلك الأثر الواسع في الضرر العام على الدوائر الاجتماعية كآفة، وذلك لأنهم في طبيعة حالهم وأمر كسبهم بعيدين عن الشرع والامتثال بالأحكام، فيُكَوِّنونَ صورة من صور الفساد والانتهاكات الأخلاقية والشرعية، فما يأتي من بابِ كسبٍ غير مشروع لا يكون دافعاً لصاحبه في إمراره على ما فيه خير وما فيه نفعٌ وأجر، بل يذهب بصاحبه إلى قنوات تصريف يكون فيها معصيةٌ وأهواء وهذا ميزانٌ يرافقُ أصلَ الشيء وطريقةَ إنفاقه.

***

الباب الخامس والخمسون الإسلام والحكمة من التوبة

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال ﷺ: «ومن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» رواه مسلم.

التوبة هي الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، وترك المعصية والنَّدَمُ على فعلها، مع العَزم على عدم العودة إليها.

والتوبة أمرٌ تفضل الله سبحانه بها على عباده، وليس لها بابٌ يُغلق ولا وساطة تجب، فالأمر مَكرُمَةٌ من التواب الرحيم إلى عبادة أجمعين، لعلمه سبحانه أنهم ليسوا على كمال وأن فيهم ضعفاً وقد يحيدون عن الحق أحياناً لغلبة شهوة أو لضعف إرادة، فهو أعلم بهم لأنه خالقهم ،وليست العصمة إلا لمن شاء الله سبحانه من خلقه ولأنبيائه، وان الإنسان كخلق مكرم من مخلوقات الله فإن فيه جوامع كثيرة في كيانه وخِلْقَتِه ففيه العاطفة والعقل، والشهوة والرغبة، والضعف والقوة، وغير ذلك، فيمرُ أحياناً بحالة يميل فيها عن المطلوب أو يسير وراء غفلته فأوجد الله سبحانه وتعالى له باباً يعود من خلاله إلى المنهج القويم والى السلوك المستقيم، وهذا الباب لا يغلق أبداً ما دامت هناك حياة للإنسان...

وان كمال التوبة في المفهوم الإسلامي هي بالرجوع للحق، وترك المخالفة، والندم على فعلها، وإِرجاع المظالم لأصحابها، وان التوبة لها فضائل وحسنات للمذنب وللمجتمع ومن يحيط بالمذنب، أما بالنسبة لمن تعدى واخطأ فهي مانعة له من التطاول في التعدي أو العلو في اقتحام المخالفات، وذلك بجعله في حالةٍ لا يفقد فيها الأمل ولا يقنط من رحمة الله سبحانه لما اقترفت يداه، فإن الإنسان إِذا ما انتهى من أمرٍ خالفَ فيه الصواب فإنه يدخل في حالة من الصراع بين نفسه بما حوت من قيم شرعية وبين ما صارت عليه، فتأتي التوبة هنا لإصلاح ذلك، والعودة به إلى طريق السلامة والى طريق

الحق، فيعود مثالياً في حياته بالتزامه بالمنهج الشرعي، وإيجابياً في دورة الحياتي من جديد، وأما بالنسبة للمحيط والمجتمع فالتوبة توجد السلامة المجتمعية العامة وتحُدُ مما قد يصيب المحيط من جراء التمادي من طرفَ المعتدي، فإن الإنسان إذا أذنب أو أَخطأ وأُعتُبرَ بذلك الفعل معزولاً أو مفصولاً نهائياً فذلك يجعله في حالة من الفقدان العام والكامل للقيم والوازع الديني فلا شيء يخسره بعد ذلك، فكانت التوبة هنا باب عظيم من أبواب الصيانة، ومنهج للتقويم، وللتوبة أيضاً كشعور وجداني بالندم، وانكسارٌ للنفس عند باريها تكون دافعاً للمذنب بالتعويض عما سلف بزيادة التقرب والطاعات وبذل الطاقة بأعمال الخير وإرجاع الحقوق لأصحابها، فهي إِصلاحٌ للنفس وتزكيةٌ لها بالإنابة الى الاستقامة وبذل الوسع في ذلك.

ونذكر هنا نسمة من نسمات الرحمة التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في أَمر التوبة، فالتواب الكريم لم يقطع حبل الصلة بينه وبين عباده بالذنب الذي ارتكبه العبد، بل أمهله وأمهله، وإذا عاد العبد وأناب وتاب فرح ربنا عَزَّ في علياءه وتقدست أسماءه بذلك، فسبحانه ربي وسعت رحمته كل شيء فهو يقبل التوبة ويعفو عن كثير، فكيف لا أعبد رباً وأتبع ديناً بلغ من الرحمة والكمال والجمال والجلال منتهاه.

***

الباب السادس والخمسون الإسلام والصدق

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وان البر يهدي إلى الجنة، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وان الكذب يهدي إلى الفجور، وان الفجور يهدي إلى النار، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» متفق عليه.

الصدق في المفهوم الإسلامي هو قول الحق ومطابقة الكلام للواقع، وأيضا يفهم انه (صلةُ مطابقةِ الباطن مع الظاهر في إطار الإخلاص)، وقد أمر الله به إذ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

إن للصدقِ منزلةً عاليةً في الإسلام، وكفى به عُلواً وجمالَ وجلالَ قيمة أن وصف الله به نفسه جل في علياءه، ووصف الله به رسله وأنبيائه، وجعله من صفات أهل الصلاح ومن كان على الهدى والإيمان.

والصدق يعتبرُ من أعلى مراتب الجانب الأخلاقي في الإنسان، وأول دروب البر، وهو صفة مقترنة بأهل الإيمان وملازمة لحالهم فهوَ الأصل في الأحوال كلها والقالب الأساس الذي تقاس وتقام عليه الأمور، ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة، فقد جمع الأخلاق بكمالها، ورَأينا في سنته جمالها، فهو الرحمة المهداة ولسان الصدق المخبرُ عن الله. وان الصدق لأمر جامع فهو صفة حميدة وسلوكٌ راقٍ وكلمة صحيحة، فهو مدحٌ وعلو وجمالٌ وسُمو، وهو المطابقة مع الأمر، فيُحصَّلُ بذلك الوضوح، ويأتي منه القبول، ويكون الإنسان فيه في دائرة النقاء والطمأنينة، وجمال حقيقة الشيء بصدق التناول وعلو التداول.

وان الإسلام أراد ذلك الإنسان الصادق في أمره كله بفعله، ونقله، وسريرته. والصدق يكون على مراتب وأعلاها صِدقهُ مع الله، وذلك بإخلاص عبادته وأعماله بأن تكون كلها لله وتخلو من الرياء، ولها مقاصد علياء، وهناك صِدْقُهُ مع نفسه، فظاهره وباطنه يكون في النقاء سواء، وان يكون باطنه راقياً مؤمناً فيتمثل ذلك بحركة جوارحه وإخلاص أعماله وصفاء نفسه وعلو هِمته بالخير. وهناك صدقه مع الآخرين وتلك الصورة التي يراها الناس عنه، ويحسونها بفعله، ويعرفونها بقوله، فوجب ان يكون أمينا صادقا في حديثه صادقاً في نقله وافياً ملازماً لأعماله ومعاملاته مع الصواب، فيكون بذلك أعطى الصورة التي يحبها الله سبحانه وتعالى فيكرمه سبحانه عليها، وترتفع بها منزلته، ويكون بها قريباً من الناس يأتمنونه ويحملون له المودة والحب.

وان الصدق لهو حلقة تواصل، ودوام تفاعل، بين أفراد المجتمع كآفةً مع أنفسهم ، و خارج إطار مجتمعهم مع الغير، فالإسلام حث عليه وأوجبه في كل شيء لما لهُ من دور في إيجاد الترابط والطمأنينة بين الأفراد، وما يعود به ذلك بالخير على العموم، وحث الإسلام أيضاً بالصدق في المعاهدات والمعاملات وأي أمر مع الغير فإن ذلك من قيم وأخلاق الإسلام وأهله... وان للصدق ثمرات يجدها أهل الصدق وهي دائمة الإثمار والطرح، وتتجلى في تحقيق العبودية كما أراد الله سبحانه، وعلو القدر في الدنيا والآخرة، والطمأنينة، وتحقيق المصالح بأكمل وجه، وارتقاء السريرة، وصفاء النفس، وانتشار المحبة والتداول، والحصول على المقصود وغيرها الكثير، فسبحان ربنا أَنْ أرادَ لنا الخير والعُلو في الأمر كله والحُسنى في الدنيا والفوز بالجنة.

***

الباب السابع والخمسون الإسلام والقيم

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩].

إنَّ القيم الإسلامية هي مجموعة الأحكام والمعايير النابعة من تصورات أساسية عن الإنسان، ومحيطة العام، وعن الحياة، والكون، والإله، كما صورها الإسلام، فالإسلام أراد تلك الصفات الإنسانية الايجابية الراقية التي يجب أن يلتزم بها المسلم وتكون راسخة لديه ويستوحيها من الدين الإسلامي، لتتمثل لديه في الاتجاهات السلوكية والصورة العامة لإدراكاته وأفعاله في مجالات حياته كلها.

إن المدلولات التشريحية والتعريفية للقيم تشترك في الفهم العام لها، لكن تتميز القيم الإسلامية عن القيم في المجتمعات الأخرى بأنها محددةٌ ضمن الرؤية الإسلامية وتصورها العام، فمنظومة القيم في الثقافة الإسلامية تقوم على مصادر ثابتة عالية لإيجاد شخصية ذات ثبات إدراكي وسلوكي ضمن الإطار العام للمنهج الإسلامي بمفهومه الشامل ونظرته التكاملية، وأما القيم المتداولة وأن كانت تحمل في كثير منها القيم السامية والرقي الإنساني، إلا أنها تعاني من الوحدة والتجرد بعدم الامتثال لقواعد ذات مرجعية عالية وأسس ثابتة، مما يجعلها أحياناً تتخذ شكلاً مرناً يحيد بها عن الفطرة والسلامة السلوكية، فينتج عن ذلك إخضاعٌ للقيم لأسس فردية ومصلحية، وغيابٌ للاستيعاب الأمثل؛ لقصور الإدراك البشري عن الصورة المثالية.

إنَّ نظرة وفهم الناس للقيم متباينة، وذلك عائد لاختلاف المحيط الاجتماعي والنهج السلوكي العام، ومعدل الإدراك الفعلي لمنظومة القيم، وبما أن القيم هي المعيار القائم لقياس السلوك بين الأفراد، فقد راعى الإسلام ذلك أيَّما مراعاة فعمل على ترسيخ القيم العليا، وإيجاد التصور الكامل والأمثل لها وفق المنهج الشرعي، وجعله في إطار نسقي عام وذلك بصورة دافعه محفزة للامتثال، ودعا الى التنمية الفعالة لاكتساب القيم والتمثل بها وذلك من خلال إصلاح وتفعيل الدور التربوي للأفراد ورفع

المستوى العام المُقدم في حال النشأة، واتخاذ القدوة العملية في الأسرة والمحيط المجتمعي، و طبعا هنالك الدور الأساسي للتعليم بتنمية القيم، وذلك برفع مستوى الكفاءة التعليمية وتطوير القنوات والآليات لإيصال الإدراك الصحيح لمفهوم القيم ودورها الفعال في البنية الاجتماعية والسلوك والتصور الأمثل للأمور.

وبما أن القيم هي الإِطار الذي يُقَيِمُ به الإنسان نظرته وتصوره العام للحياة والدين والمادة والعلاقات مع الغير، وأَيّ أمر يَمسهُ مادياً كان، أو معنوياً شعورياً، فالإسلام كتشريع رباني موحى به من الله العزيز الحكيم فقد أوجد تلك القيم المثلى والعليا من خلال مصادر ذات سمات وصفات كمالية وشمولية وذات طابع جمالي ونفعي دائم للفرد والمجتمع.

وتبرز أهمية الأخذ بالقيم الإسلامية للفرد والمجتمع على دورها الفعال والملازم لتشكيل الشخصية الفردية ومساعدتها في تحديد الأهداف ضمن تماسك مجتمعي ذو أهداف حياتية مُثلى ومبادئ ثابتة، وتظهر أهميتها أيضاً بإيجاد ذلك الشعور العام بالأمان وتعزيز الذات، والوقاية العامة من العوارض والسلوكيات السلبية، وأيضاً الإدراك للعالم المحيط بالنسبة للفرد، وإيجاد التنسيق العام فيما يخص المجتمعات الأخرى من حيث التعامل الأمثل، وإعطاء الصورة الخلاقة والتبادل النافع بما يتوافق مع المبادئ الإسلامية، وهناك الأهمية العظمى من خلال الربط الداخلي بين أفراد المجتمع من خلال وضع نظام مجتمعي ذو منظومة قِيَمِيَةٍ ثابتة مستمدة من التشريع والاعتماد الإسلامي، معطياً شكلاً وصورةً حقيقية للالتزام بالمنهج الإسلامي،فأساس تلك المصادر هو القرآن وهو مصدر التشريع الذي ارتضاه الرحمن، وهناك سُنة النبي العدنان ﷺ ففيها تجد كلَّ شيء بأرقى صورة، وبأكمل توجيهه، وأتم معنى، ومن المصادر أيضاً القيم الخُلقية والعملية وما أُجتمع عليه وعرفه المجتمع وأيده والتي كان قبولها لوجودها ضمن القبول العام للمطلب الإسلامي و استسقاءها من نبعه وبيانه أو ما سكت عنه الشرع الحكيم لموافقتها ما هو محمود .

ومن باب الإنصاف القول بأن دورنا الحضاري الحقيقي وترتيبنا الأصيل في المجتمعات ودورنا في توجيه الآخرين إلى المعروف لا يكون إلا بالعودة للأُسس الإسلامية الصحيحة والتمثل العام والترسيخ لمنظومة القيم الإسلامية والتي نرى الآن في وقتنا الراهن مدى تراجعنا عن ركب الحضارات وما كان ذلك إلا لبعدنا عن ديننا وقيمنا الإسلامية الحقيقية.

***

الباب الثامن والخمسون مفهوم الحرية في الإسلام

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

بدايةً لابد لنا أن نعلم أن الحرية في العموم مصطلحٌ ومفهوم عملي مرن، يتناوله كلُ طرفٍ حسبَ أمرهِ وحالهِ الذي ينتمي إليه، وقناعاته من إدراك ثوابته وأصوله التي لديه. ولِنُعرِّفْ الحرية في المفهوم الإسلامي لا بد لنا أن نتطرق لها من وجهة نظر الآخر لِيَعرِفَ القارئ ويميز ما هي الحرية عندنا كمسلمين وما هي عند غيرنا، فيتزن بذلك فهمه، ويعلم بإنصاف عقله وصفاء قلبه، إلى ما يدعو إليه كل طرف، وبناء عليه يعرف إلى أي طرف يميل، وأي طريق في الأَخذِ يسلك، طريق الحق وهو الإسلام أو لطرفٍ قد تناول الأمر على غير حقيقته منقاداً فيه لغيره ومفسراً الأمرَ على هواه.

إنَّ الحرية في عموم معناها ومما أدركته جميع الأفهام أنها الإرادة الكاملة في الاختيار بلا إكراهٍ أو إجبار، وفي الإسلام نجد انه هو الذي أوجد الحرية الحق، والكاملة للإنسان في صورتها النقية، وضوابطها العلوية، وذلك بأن قامت الشريعة المكرمة بكسر قيد العبودية والتبعية للأشياء والهوى، فوضعت بذلك الإنسان في حالٍ من الاستقرار والميل للعلو والتكريم، فمن قواعد النظر والمقاصد الإسلامية للإنسان انه أُوجِدَ لغاية العبادة بتوحيد الله وطاعته سبحانه وتعالى وجُعلت الأرضُ مسخرةً له، فكان بذلك في أعلى قمة التشريف وأعلى مراتب التكريم؛ التشريف بالعقل وهو مناط التكليف

وبالتالي حمل الرسالة السماوية، والتكريم بأن جُعل ذو إرادةٍ حية، وعقل واعٍ يحافظ فيه على مكانته ويتَّبِعُ طرق الهُدى والأسمى في الحياة بما هو الأصلح والأكرم، فالحرية في الإسلام هي انتظامٌ وتوجيه؛ وذلك بأن للإنسان في مقاصد الشرعية الحفظ والكرامة وأعلى درجات الاعتبار، والحرية جزءٌ من ذلك. ومما ينبغي أن يُدرك ويُفهم على وجه كامل، أن الحفظَ والتكريم مرتبطٌ بالالتزام بالتوجيه، فالخالق سبحانه وهو الموجد للإنسان أعلم به وأعلم بما فيه خير له ، فليس الانضباط تحت أحكام الشريعة هي إلغاءٌ للحرية، بل على العكس تماماً، هي الحرية الكاملة، والتفعيل بالتحرك في دائرة التكريم والكرامة، وذلك لأن الإنسان لا يَصلُحُ أن يكون هو المشرع والحاكم على الأمور ما دام هناك خالق له فهذا لا يستوي مع أصل الإيجاد والغاية منه، ولذلك ترى الإسلام الكريم قد ترك تلك المساحة الواسعة للحرية مع مراعاةٍ وحكمةٍ ورحمةٍ لا توجد عندَ غيره، فأوجد الإرشادات والاعتبارات لتوجه الإنسان للطريق الصحيح للسلوك فيه، وأُخبرَ مع التوجيه أن الخروج عليها إنما هو خروجٌ عن أصل الفطرة وتلويثٌ لنقائها، و أنَ عوارض ذلك الخروج تتنافى مع درجة التكريم وعلو التحصيل ونُبل الغاية الذي أُريدَ للإنسان، وإنه بعد كل ما وصل إليه من إيضاح وتبليغٍ وإعلام تركت له حرية الاختيار وهذا تابعٌ لإرادته وإكمالاً لعدالة الاختبار الذي هو فيه، وهذا هو معتقدنا نحن أهل الإسلام، فما أُعطي لنا من حُريةٍ فاقَ ما ينادي به الآخرين، فحريتنا لا ترجع علينا إلا بخير، أما غيرنا ممن لا يعتمد المنهج الإلهي في الرؤية والعمل فقد انحرف عن الصواب ونَصَّبَ نفسه مشرعاً وأراد لغيره ممن وافقه أن يحذو حذوه، فضل بفعله وأضلٍ غيره بما أحدث من فِكرهِ وعمله، ولنضرب بعض الأمثلة ليتضح بها المقال، ولتشحذ الأفهام، فالإسلام مثلاً قد احترم العقل وشجَّعَ على التفكير، والتدبر، والنظر، ضمن دائرةٍ لا يستطيع أحدٌ أن يحصرها لاتساعها فيساعده ذلك في إدراك نفسه، وعلو همته، وطمأنينة جوارحه، والميل بذلك عقلاً وقلباً إلى معرفة ربه، وتنفيذ أمره، وقد نال المؤمن ذلك وزيادة، أما الطرف الآخر فقد ترك الحرية لعقله بلا عقال، فتخبط في أمره

واشتعلت حيرته، واضطربت جوارحه، فمثله كمثل رجلٍ ألقى بنفسه في محيط واسع بحجة أنه يتقن السباحة فما يلبثُ أن يغرق، فلو كان على خيرٍ، وكفاية عقل، لركب سفينة الشرع فأيقن النجاة. ومن الأمثلة الأوضح شكلاً وعيناً في هيئة الإنسان وشكله الخارجي، ما أوجب الإسلام من ستر الجسد والحشمة والمكارم في العلاقات، ونهى وتوعد لمن تعدى وأسرف، أما الطرف الآخر فقد تكشف واقترب من البهيمية في السلوك، وربما تعداها بما أحدث من منكرات، وحوادث لم تكن تتخيلها العقول المتزنة، ومن ذلك أن أصبحت المرأة عندهم سلعةً، والغيرةُ رجعية، والارتباط الشرعي تقييد، ووصلَ حالهم من حريتهم المكذوبة إلى أن تزاوج الرجل مع قرينه وارتبطت المرأة مع حيوان، فأي دونيه هذه وأي حرية يدعون إليها، فالأحرى أن تسمى حيوانية، فهذا أنصف لوصفهم وبيان حالهم، فما يفعلون إن هوَ إلا عكسُ الحرية تماماً، بل هو عبوديةٌ للشهوة، وتحكيم الهوى والغفلة، ولنضرب مثالاً آخر ليتضح التفريق بين حريتنا وحريتهم، بحريتنا وهي مقام التكريم والحفظ للنفس وللآخرين، وبحريتهم والتي ظُلمت الحرية بما نَسبوا إليها من أفعالهم وأفكارهم، ومثالنا يكون كيف تم تناول الثوابت والأصول بين الطرفين، فنحن كإسلام فأصولنا هي المرجع الأول، والتقدير الأعلى، والامتثال بالالتزام بالتوجيهات والأحكام التي تصدر عنها، وقبول ذلك في أنفسنا يكون بحب وإيمان، وتقربٍ إلى رضا الرحمن، لأننا بذلك نكون في طاعة المولى وفي تحقيق الغاية فنُحَصِّل الموعود ونؤدي المطلوب، ونستشعرُ سعادةَ الدنيا ورجاء الآخرة، وعدالة التقييم، ورقي العلاقات، ومثالية الفهم في الصورة العامة والخاصة والسلوك المقترن بهما، أما الطرف الآخر فَقَدْ فَقَدَ التقييم، وانعدم من الأصول، فاعتباره قائمٌ على الفرد وانه الأساس والحاكم والمصدر، ولا شيء له سيطرةٌ عليه، والغريب بالأمر أن ما يدعون إليه وطريقة تفكيرهم متضاربٌ مع الحرية التي يدعون اليها، فنبذهم للخيرية وتركهم للمثالية العليا، وتقييد أنفسهم بتخبطات العقل والهوى هو في ذاته تقييد وإخلالٌ بالحرية، فهل ترك التوجيه الأكمل واعتماد الأرذل هو الحرية، بل

الأصح والصحيح أن يقال عنه عنادٌ وإنكار نابع من رفض الشريعة، وبعنادهم ذلك عندهم، قلبوا فيها موازين الجمال ومظاهر الكمال وصارت حالهم كما يراها كُلُ عقل واعٍ وعين منصفة حياةً حيوانية، وبهيمية الغرائز والسلوك، مغيبةَ العلو. ونطرح هنا سؤالاً نريد الإجابة عليه من هؤلاء، وهو ماذا استفدتم من حريتكم المزعومة؟ وماذا أفدتم البشرية من أفكاركم المسمومة؟ فلم نرى منكم إلا تكشفٍ في الأجساد، وعريٍ في الأفكار، وتخبطٍ في حياتكم، بما أحدثتم من تجاوز على كل محمودٍ وكريم، وإن أردتم الحق في تناولكم للحرية فليكن لها الغاية أسمى والمصالح العليا، وان يكون خارجها عفيف، وقلبها على التقوى صريح، وذات فهمٍ قويم ومرجعها الأمثل والأكمل، ولا يأتي عنها ومنها إلا الخير، وأَصدُقُكُم وأَصدُقُ نفسي لا تجدون ذلك إلا في الإسلام؛ ففيه حريتكم في الدنيا والآخرة، فدونكم فاغترفوا منه شفائكم، ودليل حياتكم. ولا ينظر لنا ناظر أن بلادنا حالها الآن قد اختلَ فيه الحال في أمر الحرية، فليس ذلك من الإسلام ولا من الشريعة في شيء، فإنما هو سلوكُ أفرادٍ لم يحسنوا تطبيق الدين، أو كانوا له فقط بالاسم منتسبين، أو أدواتٍ مستأجرة لهدم الدين، فماضينا كله خير وسيره نبينا عليه السلام، والخلفاء الكرام، و أَأمه الإسلام، تشهد لنا على ذلك، وما تلك السنون العجاف التي أصابت بلادنا إلا لبعدنا عن تطبيق الدين، ومن كيد المنافقين، ومؤامرات وهجمات من تراهم اليوم في صورة من يَدَّعون الحرية، فإلى الله المشتكى.

ملاحظة: ليُعْلَمْ من باب الإنصاف أن الإسلام يحترم الإنسانية والرقي فيها.

وبعض النماذج في سلوكيات غير المسلمين يقدرها الإسلام ولا يُكِّنُ لها أي اعتراض، فهي التقاء بين الجميع في المشترك الإنساني، وإنما كان تقديره لها لأنها بقت على أصول النقاء، ولم تتعارض مع الاستحسان، ومما نريد أن يُعلم ويرسخ في الأفهام وهو كلامٌ حق لا ادعاء فيه، أنَّ أي صورةٍ من الجمال أو النقاء والتي تحمل الخيرية آنياً ومستقبلاً إلا ولها من الإسلام توجيه ومكانه.

***

الباب التاسع والخمسون الإسلام والصبر

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم.

الصبر في المفهوم الإسلامي هو حبس النفس للقيام بأوامر الله سبحانه وتعالى وفعل الطاعات، وحبسها عن ارتكاب المحارم والمنهيات، ومنعها من السخط والشكوى من أقدار الله وما قد يصيبها من ملمات..

إن الإنسان ليعيش في الدنيا، والتي هي دارٌ للمرور والاختبار، لينتقل بعدها إلى دار الجزاء والقرار، وان معترك الحياة الدنيا لا ينتظم على الكمال في كل حال، فحياة الإنسان تتفاوت بين السعادة ونقيضها، وبين الإيجاد والفقد، وبين الإقبال والبعد، وكل ذلك واقعٌ تراه النفس وتعاينه، فلا كمال إلا في الآخرة، ولذلك مما أكرمنا به الله علينا ومَنَّ به بعد أن جعلنا مسلمين، أَنْ جعل تناول الأحداث بالرضا هو بابٌ من أبواب الطاعة لأمره والإيمان بقضائه وقدره، وجعل له خير الجزاء، والفوز بعد العناء، وتكفيراً للذنوب، وسعادةً عند اللقاء.

إنَ حال الصبر عند الإنسان في الإسلام لا بد أن يكون تابعاً لثلاثة أقسام أو ما كان في حيزها.

الأول: هو الصبر على تنفيذ أمر الله، وتوجيه النفس بالامتثال، وترويضها على الطاعات والإقبال على ما يرضي رب البريات، وفيه مخالفةً لطبع النفس المائلة إلى أمر

الراحة وعدم التكلف بالمشقة او البذل، وهذا الصبر هو صبرٌ لطيف فيه رفع للهمة والمثابرة، مع تقويمٍ للنفس على الإقبال، وكل ذلك يَتَحَصَّلُ الإنسان به على رضا الرحمن، وتحقيق الإيمان، بالتزامه بالدين وتطبيق الأحكام وأداءِ الأركان وأن تكون شريعة الإسلام له عنوان.

الثاني: وهو الصبر عن اقتحام المعاصي وفعل المنكرات، ففيه منعٌ للنفس على اغتراف الشهوات، والقبول بالدنيات، مما حرمه الشرع ونهى عنه، فقد ترى فيه النفس لذةً ورغبة، لكن منعُها من ذلك طاعةً وتَصَبُّراً أمر مأجور، وحفظٌ من العزيز الغفور.

والقسم الأول والثاني هو تحقيقٌ للطاعة وتنفيذٌ للتكليف بالأمر بالفعل أو بالترك.

الثالث: وهو ما يقع على الإنسان في حياته، إما على نفسه أو على من يهمه أمرهم، وتلك أحداث تقع على الجميع فليس أحدٌ إلا مفارق، وان الأيام دول، والعمرُ يمضي، والصحة تبلى،والمال يذهب ويأتي، وكل شيءٍ عند الله سبحانه بقدر، لهذا بين الرحمن الكريم أن الرضا والقبول أمرٌ عظيمٌ جزاءه، وكريم ثناءه، وان الصابر في معية الله سبحانه، وأَن الأمر بيد الله، ولا مفر من قضاءه إلى إلا قضاءه، فكان باب الصبر والاصطبار بابٌ للرحمة للعبيد، وبه ترفع الدرجات وتمحى السيئات، وان كانَ الصبرُ يحملُ طَعماً للمرارة تجده النفس حين وقوع الأمر؛ لأنها تأنَفُ ما يعكر صفوها، أو يجعلها مضطربة، لكن عند قطف ثماره، والقبولُ إيمانياً بأحواله، تجد النفس حلاوةً ورضاً قلبياً وذلك للخيرية التي تيقن منها المسلم في مآله وحاله، وهو من دلائل الإيمان والقبول بقضاء الرحمن.

***

الباب الستون الإسلام والرزق

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

الرزق هو ما تقوم به الحياة للكائن الحي مادياً كان أم معنوياً، ونستطيع ان نقول هو النعمة التي تجري على المخلوق وتلبي حاجاته.

إن الإسلام الكريم تناول موضوع الرزق تناولاً شاملاً، وذلك لما للزرق من حساسية بالنسبة للنفس البشرية، فإن الله الخالق الرازق خلق الإنسان، وهيأ له الأسباب لتحصيل معاشه، وسخر له ما على الأرض لبقائه ولإعمار الأرض، فَقَدْ أُستخلف فيها، وذلك الاستخلاف تَكرُمَةً من الله لا بُدْ أن يرافقه تلكم التهيئة وذلكم التجهيز. وقد بين الإسلام أَن الرزق هو عطاء الله، والمال مال الله.

والرزق مصطلحٌ واسع يشمل الأمور المادية المباشرة وغير المباشرة، ويشملُ أيضاً الأمور المعنوية، وإنَّ هناك أرزاق تكتسب (والكسب هو قيمة الأعمال البشرية لتحصيلها) وأرزاق يحصل عليها الإنسان بلا بذل ولا سؤال. وان اشتراك الرزق المادي مع الرزق المعنوي لتجده في كثير من الأمور، فتحصيل الإنسان لمكسبٍ مادي ومرافقة ذلك المكسب نعمة البركة، فهنا كانت البركة رزقاً معنوياً له أثره الواضح...

والرزق لا يرتبط بالمال فقط، بل بكافةِ مناحي الحياة التي يحتاجها الإنسان، وان نِعَمَ الله لأكثر من ان يقدُر على إحصائها، والرزق في التناول الإسلامي يكُتبُ للإنسان قبل أن يولد، وهو يطلبك كما أنت تطلبه، وحكمةُ الله سبحانه في أنَّ الإنسان لا يعلم ما كتب له، حتى لا يستكين بل يُعمِلَ جوارحه لطلب رزقه، فينفع نفسه ويفيد غيره، مع بقاء قلبه متوكلاً على رازقه معتمداً عليه ملحاً بالطلب والدعاء، وهذا باب من أبواب التعبد إلى من بيده مفاتيح الرزق وخزائن لا تنفذ أبداً، فما قَدَّرَهُ الله للعبد آتٍ لا محالة، وما لم يُقَدَّرْ فلن يستجلبه العبد ولو بذل ما بذل في سبيل ذلك، فلا تحايل على الرزق ، فالله الكريم يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لم يحب، ولكنه لا يعطي الإيمان إلا لمن أحب.

فالإسلام أراد لتلك لنفس التي خُلقت لغاية كريمة وهي عبادة الله وحده، أن تكون مستقرةً مطمئنة بأن رزقها قد قُدِرَ لها، وان ما كتب لها لا بد أن تُحَصله وذلك حق كتبه الله قبل خلق الخلائق.

وان الشرع راعى حال الإنسان قي كسب عيشه، فنظم تلك العلاقة بين جميع الأطراف التي تقوم عليها عملية التداول، أو المتعلقة بمسأَلةِ الكسب فأوجد أرقى النُظُم والتشريعات التي توازن تلك العملية، وتجعلها في ميزان العدل والإنصاف والمشروعية، واتخاذ السبيل الحلال للحصول عليها، فإنها مما سيُسأل عنها الإنسان ويحاسب عليها.

وقد بين الإسلام الكريم أن هناك أسباباً كثيرة، وطرقاًعديدة، يبارك الله فيها الرزق ويبسطه، وأصلُ تلك الأسباب كامِنٌ في تقوى الله، وترك المعاصي، وفي ذكر الله والاستغفار، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، وبيَّنَ أيضاً أنَّ هناك أسباباً لضيق الرزق وهي إتيانُ ما خالف الشرع الحنيف من ذنوب ومعاصي، وطلبٍ غير مشروع للكسب من بابٍ حرام.

***

الباب الواحد والستون الصدقات في الإسلام

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ١ – ٤].

قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال ﷺ: «الصدقة تطفئُ غضب الرب وتدفع ميتة السوء» رواه ابن حبان.

قال ﷺ: «كل معروفٍ صدقة، وان من المعروف أن تلقى أخاكَ بوجهٍ طلق، وان تفرغ من دلوك في إناء أخيك» رواه الترمذي.

قال ﷺ: «كل معروف صدقة» رواه البخاري.

بدايةً لا بد أن يُعلم أنَّ الصدقة على حالين:

الأولى: حالٌ مفروضة وهي الزكاة ولها بابٌ أوردنا فيه ما يوضح أمرها وهو موجود لمن أراد الرجوع والاستزادة.

والحال الثانية: وهي هَمُ أمرنا ها هنا ، وهي الصدقة النافلة على عمومها، ونستطيع أن نقول عنها إنها مجتمعةٌ في أمرها مع الصدق، لأنها الإخلاص في العطاء لوجه الله ، والصدقةُ في مفهومها بعموم أمرها وارتباطها بالإسلام هيَ كلُ أمرٍ فيه خيرٌ للآخرين، مع اشتراط النية أن تكون خالصة لله سبحانه، وذات أصلٍ طيب، وهنا في هذا المفهوم لم نجعلها محصورةً بالمال أو بالمادة، بل أوسعناها كما أرادت سعه الرحمة في الإسلام بالآخرين، وما وجهنا إليه نبينا الكريم، وما فيه رضا الرب الرحيم، فالصدقة باب مفتوح لكل أعمال البر، وهي نتاجٌ راقٍ من التصديق والإيمان والرحمة والإنسانية، فهي كلُ شيء جميل يَصدُرُ عن المسلم تجاه الآخرين، فشعوره بهم، ومراعاته لأحوالهم، وتقديم يد العون لمحتاجهم، وإغاثة ملهوفهم، فكل هذا خير على خير ومن باب الصدقة، فهي شعورٌ وعملٌ من المسلم تِجاهَ أخيه المسلم، وللإنسانية، ولكل شيء حتى الحيوان، وهيَ تبادلٌ في الخير والمشاركة الوجدانية مع الآخرين، فالمتصدق إنما يقتطعُ

جزءاً مما لديه إن كان مالاً أو عيناً فيجعله أمانة عند ربه يُكافئ عليها حين يلقاه سبحانه، فهي هنا ادخار نافع وخير راجع، وان لم تكن مالاً وكانت بذلاً من وسع في خير للآخرين وإسعادهم والمشاركة في تلبية احتياجاته فهي أيضاً خيرٌ مأجور وداخلةٌ في حسنِ الثواب.

وان من جمال الإسلام وحسن مراده، انه يريد زيادة الفعالية للمشاركة الانفعالية، والمودة الشعورية، والمؤاخاة بين الأفراد، ويريد من تلك الأيادي الخيرة والقلوب المؤمنة أن تسد الثغرات في المجتمع والحياة، وذلك بكل أعمال البر، والخير، والصدقة، والناظر بنظرةٍ إيمانية ليَعلمُ مدى تلك الدرجة الإنسانية التي وصل إليها المسلم تجاه أخيه وتجاه الآخرين، لأنها دلالةٌ من دلالات الإيمان عنده وعلامةٌ من علامات إطاعة الرحمن.

وان الصدقة في الإسلام لخيرها قد تعدى وتعدد، فهي تصيب آخذها ومعطيها، أما آخذها فقد استشعر بالمحبة والمشاركة من طرف إخوانه وتحصل لديه سدادٌ لحاجته فاطمأنت بذلك نفسه واستقرت حالة وزادت محبتهُ لمن يشعرون تجاهه، وأدرك أنه فردٌ في هذه الأُسرة المتراحمة المتكافلة، وهناك فوائد قد لا يراها الفاعل أو يستشعر بها عياناً لكن خيرها قد أصابه، ومنها أن يمنع الأذى عن الناس أو يذودَ عنهم وعن أعراضهم الشر، فهذا لا يُرى حينما فعل الأمر من الناس، لكن الذي يعلم هو رب الناس، فكون فعله كان خالصاً لربه وليس لغيره فيكون الجمالُ هنا جمالين جمال الإخلاص، وجمال الصدقة وحب الخير، فالإخلاص أساسٌ لكل أمر ومفتاح لكل خير.

أما نصيبُ المعطي للصدقة أو الفاعل لها فيكفي أن نقول أن من يكافئه هو سبحانه من عُمِلَتْ ابتغاءَ وجهه وتنفيذاً لأمره، وهو سبحانه يعطي على قدرته وبمشيئته وهذا من أعظم الخير والعطاء، فالمتصدق أجره عظيم في الآخرة وحاله كريم في الدنيا. ومن ثمار الصدقة أنها تزيد نبض القلب بالإيمان وبمحبة الإخوان ويُحس معها بالرضا ويرتفع بها الإحسان، وهي كذلك ماسحةٌ للخطايا موجدةٌ للبركة، وعملها تقرب إلى

الله سبحانه وطاعة وهي ظل لصاحبها يوم القيامة، وإنها لعلامةٌ ورمز على الكمال في الإسلام الذي جعلَ خيرَ وبرَ الإنسان لأخيه الإنسان بإِحاطةٍ إنسانيةً بالمحبة وتقديم العون وسد الحاجة وكلِ أعمال البر فالحمد لله، ثم الحمد لله أن جعلنا من أهل هذا الدين الذي لا ترى جانباً فيه إلا وترى جمالاً على جمال، وكمالاً على كمال، وليُعْلَمْ أنَّ الصدقة تجسيد لحب الآخر وحب الخير له وتماثلٌ في الشعور الجماعي بالإحسان، وتلك رابطةٌ إيمانية، ونزعة في قمة الإنسانية ودليل على الرحمة وتأكيدٌ على إعمالِ الكفالة الاجتماعية في تلك الأُسرة العالمية فأي جمال هذا وأي رحمة تلك.

***

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ [فاطر: ٣٨].

ومن حديث البخاري حينما سُأل ﷺ: «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك».

الرقابة الداخلية: هي وسيلةٌ من وسائل تعزيز النفس ووضعها في حالة من التوازن مع القيم وتماثلها مع السلوك الفعلي للإنسان.

وفي المفهوم الإسلامي هي نورٌ تفاعلي داخلي للحث على ملازمة المنهج والتعاليم الشرعية في الأمر كله لاستشعارٍ أَولي من مراقبة الله سبحانه.

إن الإسلام قد أوجد ذلك الاستحضار القلبي والداخلي للعبد من خلال عِلم العبد وتيقنه باطلاع خالقه عليه وكان لذلك الاستحضار صوراً عديدة ومنها تلك الحالة المستمدة نشأتها من الإيمان الحقيقي والعلم اليقيني بأن الله سبحانه وتعالى هو الرقيب وهي تمامٌ لدرجة الإيمان والسلامة ، وحاله الرقابة الكلية هي العموم والتي أحاطت بكل شيء وأي شيء وتلك لا يَقْدِرُ عليها إلا الله سبحانه وتعالى، وتلك الرقابة الكلية الحكيمة أوجدت للمسلم رقابة داخلية وجعلته في دائرة فعالةٍ من الثبات السلوكي في أعماله وتصرفاته، فالإسلام يربي الإنسان على ذلك الشعور الداخلي والحافز العملي للميل إلى الارتباط بين الفعل والأمور عامة وما يقابلها من التشريعات والتوجيهات والمنهج الأصيل، وذلك لما فيه من إيجاد التطبيق الصحيح، والوصول بالأمر إلى تمامه وفقاً للمطلوب الشرعي وتحصيلا لعموم الخير والمصلحة.

وإن الرقابة الداخلية للإنسان الأصل فيها أن تكون ذاتيةً وملازمةً لكل حال متخذةً شكلاً ايجابياً محفزا للنفس للحصول على المراد وفق الأُسس والقيم الصحيحة

في إطار من الاستقرار النفسي والاقتناع الذاتي المتأصل عن القبول والالتزام بالمنهج القويم والقياس عليه.

والرقابة الذاتية عندما تكون كشكل من أشكال الوازع والمحاسبة الآنية على الأمر، فهي تارةً تكون في مسار القبول للعمل لتوافُقِهِ مع الصواب، وتارةً أُخرى تكون مخالفةً له ومتوجهةً لترك الفعل لإخلاله بالقياس المعمول به أو وجود ما يَحُثُ على اجتنابه، وكلا الأمرين بالتوافق أو الامتناع إنما هي مستمدةٌ من أحكامٍ وتشريعات وما تولد عنها من أوامر ونواهي ضمن دائرة تعاليم الإسلام العام ومفهومه...

وان تلك الحالة الداخلية، والتي أرادها الإسلام، لم تكن من نوعٍ الاضطراب الداخلي للنفس، بل هي مرتبةٌ عالية من الارتقاء والتمكن وتوحد الجوارح والقلب والإدراك العقلي في مضمون واحد وأصل واحد، وتلكم العملية الذاتية تعدُ كنوع من أنواع العبادة التي يُتقَربُ بها إلى الله سبحانه وتعالى وذلك لما فيها من إعمالٍ للجوارح بما شرع الله وترك للنواهي كما أمر الله مقترناً كلُ ذلك بقبولٍ وإيمانٍ قلبي.

***

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

قال ﷺ: «من سمع بي من أُمتي، أو يهودي، أو نصراني، فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة» رواه أحمد.

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أقام الحجة على عباده، بأَن أرسل لهم الرسل والأنبياء مبلغين ومعلمين، وكان مع الرسل كتباً موحاةً من عندهِ سبحانه وهي المنهاج والتوجيه لأمر الدين ولأَوامره للعالمين. والدين عند الله هو الإسلام، وهو دين العالمين ورسالةُ الأنبياء والمرسلين منذ آدم إلى نبينا محمد عليهم الصلاة والتسليم، حيث قال جل في علياه ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وكان الإسلام المعروف والمعمول به الآن آخر الرسالات السماوية بكتابه القرآن الموحى به إلى الرسول الأمين محمد ﷺ الدين الخاتَمْ وهو للجن والإنس كآفة ولذلك فعليه يقوم الحساب وهو المطلوب ولا يقبل دينٌ سواه بعدما أُرسل، ومن تمام أمره وكمال نهجه ومن رحمةِ منزلهِ سبحانه أن يسَّره بالبلاغ للجميع، فشمسه على الجميع سطعت ونوره أضاء كل شيء وكَشفَ كُلَّ ظلمة، وان خُفِيَ على أحدهم زمناً ضياءه فلا بد يوماً أن يكاشفه لسعة الدعوى وعظيم البلاغ لهذا الدين الكريم. ومع ذلك فرحمةُ الله وسعت كل شيء فالإسلام أوجب البيان وإقامة الحجة قبل المؤاخذة على المكلف، فالحجة قائمة على الجميع ممن وقع عليه التكليف إذا بلغَتْهُ على وجه صحيح وبصورة يفهمها، فاختلاف الزمان والمكان والألسنة وتوالي الأحداث أوجبت معها على القائمين على أمور الدين والمبلغين لرسالة رب العالمين من المسلمين أن يبينوه للناس ويوصلونه كما ينبغي، ويدحضوا عنه الشبهات التي قد يعتري بعض العقول خاصةً التي تجهله منها شيء

فتتشوش نظراً لما يقع من اعتداءات قد مورست لتشويه صورة الدين. والإسلام من جماله وكماله أن راعى ذلك كله رحمة من الله وبأمره، وكلٌ يعلم الله حاله فمن كان يَأبى الحق عناداً وكبراً غَيرَ من لم يتبع أمر الله جهلاً وعدم علم، وكلٌ لما عَمِلَ ملاقيه.

الخلاصة: الأمرُ أمر الله والدين دينه، والخلق عبيده، وهو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ولا يُظلم عنده أحد، والكريم سبحانه خَلقَ الإنسان لعبادته وبيَّن له أمره وأقام عليه الحجة، فمن أعرضَ بعدَ أن علمَ أو سمعَ وفهم فهو من الخاسرين، ومن أطاع وأقبل فهو من الفائزين، وكلٌ أعلم الله بأمره فمن لم تصله الرسالة فمردهُ إلى الله وحسابهُ على الله، والحمد لله أن جعلنا من عباده وأرسل إلينا خير عباده فَبَلَّغنا الدين وكُنا مسلمين.

***

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم.

المعروف هو ما وافق الشريعة الإسلامية وعَرَّفَتْهُ بالقبول والحث عليه، وهو ما عرفه الناس في أمور الخير وأحوال الخيرية، ويتناول ما تعلق بأمور الدنيا وما عليه ثواب الآخرة، وعكس ذلك تماماً المنكر، وهو ما أنكرته الشريعة لكونه مخالفاً لها أو مناهضاً للقيم والسلوكيات الإسلامية الخلاقة والشرعية ويكون في ارتكابه إخراجٌ للحال الخاص أو العام عن الاستقامة.

إنَّ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر شعيره من شعائر الإسلام العظيمة، وسمة ملازمة له وصفة من صفات الخيرية للأمة الإسلامية، ومن جوانب الكمال والديمومة، وركنٌ من أركان الإحاطة والوقاية للمنهج وما اتصل به من ذي بال، وأضف إلى ذلك أنها علامة تعبدية ودعوية فرديةً وجماعية، أما فرديتها فميل النفس للصواب وتجنيبها الخطأ، وأما بروزها العام والمجتمعي فهي اجتماعُ الأفراد على كل ما هو مقبول في ميزان الشرع وما يتَحَصَلُ منه على الخيرية في الأمر والتعاون العملي والواضح في العمل على نشره والحث عليه، وأيضاً من حيث الاجتماع والإجماع على نبذ وإنكار ما قد يترتب عليه مفسدةٌ أو ميل وخروج عن المنهاج، وكل ذلك من حيث الأمر أو النهي إنما يكون نابعاً من الالتزام بالمنهج واعتماد الشريعة للعمل والقياس، وذلك أمر كله مأجور وبابٌ من أبواب الطاعة لله سبحانه وتعالى وعمادٌ من أعمدة الاستخلاف والقوامة.

إن الامتثال بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو تفعيلٌ للمسلم في حركة الخيرية التي كان قد حظي بها وكان من ضمن دائرتها بانتسابه لأمة الإسلام، وان تلك الفعالية إنما هي خيرٌ على خير ومما يتحصل عليه الفرد من أداء الطاعة واستشعار الخيرية الممتد من ذات الفرد إلى عموم المجتمع ومن كان في محيطه الاجتماعي الخاص أيضاً، فهي تذكيرٌ وحث على الخير ونشره، وكل ذلك إعانةٌ وتشاركٌ وجداني عام في المجتمع الإسلامي على الإقبال والامتثال، فالكلُ ناصحٌ لأخيه ومؤشر فعال وإيجابي في التوجيه إلى ما فيه ثوابٌ ومنفعة وما فيه حفظٌ للدين ولشعائره وما ينبثق عنه من قيم وفهم سليم، ومتى ما كان التفعيل للأمر بالمعروف آخذاً شكله الصحيح وفعاليته المحمودة المستمدة من العلم الشرعي وحسن التناول وجمال التداول كانت كل طريق في السلوكيات المجتمعية والأعمال التعبدية تجد عليها موجهاً للخير وتذكيراً بها وهذا والله من جمال هذا الدين وتعاون أفراده وضمان استمراره، ومن حكمة الله سبحانه في أمرهِ بالمعروف عظيم منافع، وتحقيقٌ للخيرية بين الجميع، وإيجادٌ حقيقي لشعور المسلم بحبِ الخيرِ لأخيه وجمع الناس على ذلك وتشجيعهم عليه، وتذكيرهم وتذكير نفسه بما يحبه الله وبما أمر به، ومن تمام الحكمة أن الأمر بالمعروف في حد ذاته مغلقٌ لباب المنكر، ففتح باب الطاعات وأداءُ المعروف والأمرُ به فيه إغلاق ذاتي لأبواب الشر والمعصية، فكم هو عظيم وكريم هذا الدين الذي أراد كل ذي بال في أمر المعروف والخير أن تجد عليه أعوانا وموجهين.

وفي ذات الوقت كان هناك التعاون والاجتماع على منع ما قد يستهدف الدين أو يشوش على المسلمين ويخترق مجتمعهم وقيمهم بما هو شر ومنكر، فكان النفور العام لما خالف الشرع وما يؤذي متبعيه سمة من سمات المناعة للمجتمع الإسلامي وأَنَّه رافضٌ لكل جسم أو آفةٍ غريبةٍ قد يترتب عليها ضررٌ أو مخالفةٌ شرعية، فوجب بذلك النهي عن المنكر وفق حُكم الشريعة وحسب قدرة الناهي ومكانته في المجتمع الإسلامي، فكل فرد على حمى من حمى الدين، ومن الإيمان إنكارُ المنكر والنهي عنه ومنع خطره،

فالمسلم لبنةٌ في جدار الإِحاطة والوقاية عن نفسه وعن غيره من المسلمين وعن شرعه وما يَتبَعُ من دين، وانه مما يدرك حالاً ويقبل عقلاً إن إِغلاق باب المنكر والشر خيرٌ يتبعهُ فتح وتيسير لأبواب الخير.

ويجدر العلم أن الإسلام في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر قد عمم ذلك في حفظ الجانب العقدي من توحيد وشريعة وما ارتبط بهما، وعلى الجانب السلوكي والأخلاقي وما تعلق بهما.. فمن ناحية التوحيد الشريعة فهناك الأمر بالتأدية والامتثال وفق مسار وتعاليم المنهج القويم والنهي عن المخالفة والابتداع. ومن ناحية الجانب السلوكي وما تعلق به من ممارسات، فالأمر بكل ما هو محمود وموجِد للمنفعة وما يتأتى عنه الخيرية في تداوله وكل ذلك مشروطٌ بموافقته للشرع الحنيف، وما كان مخالفاً للشرع فيُنهى ويُنأى عنه ويُترك ويؤمر بتركه، وإِن كانت له صورةٌ قد يعتقد البعض لقصورٍ في عقله أو غوايةٍ في نفسه أو لغلبة شهوته أنها مواكبة لعصره أو فيها توسعٌ في حريته أو رضاءَ نفسه فإن الصواب ما أمره الشرع ورضيه المشرع، وخلافُ ذلك يُضرب به عرض الحائط، وان مما نراه ويُحزِنُ القلب في زماننا هذا كثرة المنكرات، وعموم البلوات، وهجر الطاعات، بل وتعدى ذلك بأن أصبح بعضاً ممن ينسبون نفسهم للإسلام يقلبون الصورة كما تتطلبها مصلحتهم الشخصية أو أهدافهم الشيطانية فينكرون المعروف ويحببون المنكر، وما هذا إِلا لضعف أصابَ الأمة وعجزٍ عن أداءٍ حقيقي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك بما تسلط علينا ممن يكيد للدين ويعادي المسلمين وما رافقه من تقصير من بعض المسلمين بأن ركنوا إلى الدنيا وقصروا بحق الدين، ولكن ما هذا الحال إلا أمر عارض ومرضٌ زائفٌ زائل، فالأمة بفضلٍ من الله تتعافى وبرعاية منه سبحانه تعود لمكانتها وتسترد عافيتها، وان الخيرية ما زالت فيها ولن تزول بأمر موجدها سبحانه، لذلك وجب علينا أن نحمل هم الدين وهم الأمة والإنسانية معها، ونشعلَ نور الخيرية في قلوب المسلمين كما كان في عهدهم الأول وذلك على الله معتمدين وبشريعته وبالعلم مستنيرين.

فعلو هذه الأمة وكرامتها، عندَ الله بعلمه الأزلي معلومة بما حملت من صفات محمودة وإيمان ورضا بشرعه الكريم ومنهجه القويم، فلابد علينا من البقاء على هذا العلو التكريمي الذي حظينا به بفضل هذه الرسالة وهذا الدين ونِعِّمَ به من دين ومن أَخيرُ ممن كان من المسلمين؟

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

***

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية» رواه البخاري.

إن الدعوة الإسلامية نورٌ يضيء للبشرية طريق الوصول إلى الخالق سبحانه وتعالى، ودلالةٌ إلى الحق وإرشادٌ إليه، وهي توجيهٌ للسعادة بتنفيذ أمر الله بالوحدانية والعبودية والتسليم لأمره سبحانه.

وهي نبعٌ صافٍ يُستسقى منه العلم، ونقاء النفس والإيمان، وكيفية عباده الرحمن، والدعوة هي أصل إبلاغ الرسالة، وعملُ النبي الكريم وأَصل بعثه وإرساله للعالمين وهي نهجُ من كان قبله من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلوات والتسليم وذلك رحمة من الله بالعالمين وحجةً عليهم.

وكان رسول الله ﷺ خير من أدى الأمانة وبَلَّغَ الرسالة ودعا إليها، ومن ثَمَ تَبِعه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فبلَّغوا ودَعوا إلى الله وتابعهم على ذلك المسلمين وحملوا راية الدعوة، وهي باقية خافقة سامقةٌ ما بقيت السماوات والأرض.

والدعوة واجب عظيم وعمل كريم، ويكفي الداعي شرفاً وتكريما انه مبلغ عن رب العالمين ودعوته وعمله امتدادٌ لعمل الرسول الكريم وانه معرف للدين العظيم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إنَّ حَمْلَ هم الدعوةِ حملاً إيمانياً وتقرباً تعبدياً أمر كريم وله من الله أجر عظيم، فإن الإسلام وهو آخر الرسالات السماوية وما وَجَبَ إتباعهُ كان ديناً ورسالة للعالمين،

لذلك فالدعوة إليه مأمور بها وفرض كفاية على المسلمين وعيناً إذا تطلب ذلك، وأن يكونوا عونا وداعيين لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن التيه إلى اليقين، فإنه من مَلَكَ مشعل الطريق إلى الهداية بفضل الله، وحمل راية التبليغ، فلا بد أن يدل ويدعو إليها، وهذه من صفات المسلم والداعي المحمودة فإنه محبٌ للخير لغيره ومستشعرٌ بالإيمان في قلبه مريدٌ لنشره وهذا من نهج الإسلام ومما تعلمنا من القرآن وما استقينا من سيرة ودعوة النبي العدنان عليه الصلاة وأزكى السلام، فالإسلام أرادَ الخيرَ والسعادة للجميع ودعا إليها وحث متبعيه أن يدعوا إليها وهذا من رحمة الإسلام وعِظيمِ رحمة موجده سبحانه الكريم المنان....ولكَونِ الإسلام آخر الرسالات فنستطيع القول أنَّ التبليغَ والدعوة إليه منوط بأَتباعه تكريماً وعبادةً وتكليفاً.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

إن الدعوة في الإسلام ويمثلها في كثير أوجهها الداعي إليها وجب أن يكون أُسلوبها وجمال طرحها ومثالية تقديمها متناسباً مع علو الرسالة وأصل الطرح وماهيته، فإن المبلغ والداعي يُعَرِّفُ الناس إلى رب الناس ويوجههم إلى إتباع أمره والدخول في دينه، لذلك لابد له كداعي أن يكون مرآة تعكس ما يدعو إليه ومثالاً عملياً يحتذى به، فظاهره بسلوكه وأخلاقه وحسن التزامه دعوةٌ في حد ذاتها وعامل جذبٍ إلى الآخرين لإتباع ذلك الدين الذي هكذا هم أَتباعه وكذلك باطنه لكونه جميلاً كظاهرة، ويزداد ذلك منه تأثيراً ويُستحسنُ تقديماً بما مَلَكَ من عِلم ودراية، وحكمةٍ في التقديم وشرح الغاية، فيحصل بذلك المقصود ويؤدي ما هو معهود، ولنا في رسول الله ﷺ القدوة المثلى والحكمة العليا، وكفى بالداعي تشريفاً أن اشترك في أمره وكلمته بشرف العمل بعمل نبيه الكريم ودعا إلى الدين القويم وبَلَغَ مرتبة التبليغ والدعوة إلى الله، وحَصَّل أجراً مع أجره بمن كان سبباً في تصويب أمره وأعاده إلى رشده بتوحيد الله وإطاعة أمره ودخولِ الإيمان إلى قلبه وكل ذلك برحمة من الله وهداية.

وفي المفهوم الإسلامي أَنَّ الدعوة عماد الإسلام وأساسه، وإِنَّ ثمارها أجمل من أن توصف وأكثر من تُقْطَفْ ومن بعض جميل ذلك:

* إنها دعوة للتوحيد، وتحقيق الغاية من أصل الخلق وذلك بإتباع مراد الحق بالعبودية لله سبحانه.

* إنها دعوةٌ لإقامة شريعة الله في الأرض وتوجيه حركة الحياة ان تكون في إطار شرعي إيماني.

* إنها توجيه وإرشاد لمعرفة الإسلام وحقيقة أمره وعلو شأنه، وتنقية صورته إِن استدعى الأمر لما قد يعتري الوصول إليه عثرات المبغضين، وتشويه الهالكين، أو حتى رواسب المنكرين ممن كانوا من المخالفين.

* إنها نورٌ للبشرية ودليلٌ لسعادة الإنسانية بالالتزام بالمنهج القويم بما يصلحهم ويكون فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإيجاد المجتمع المتحاكم والمطبق لذلك.

* إنها عظيم رحمة من الله بالعلم والتبليغ لنفي الإنكار من الخلق بالجهل بالرسالة.

* إنها امتدادٌ لعمل الأنبياء والرسل، وتشريفٌ عظيم، ومرتبه عالية، وخصيصةٌ من خصائص خير الأمم، وإنها توجيهٌ عملي لدمج السلوك للأفراد لحسن الامتثال بالشرائع والسلوكيات لاستشعارهم أَنهم دعاةٌ وحاملين لرايةٍ ورسالةٍ راقية وأَنهم واجهةٌ لذلك التمثيل وسفيرٌ له.

***

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ﷺ: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» البخاري ومسلم.

إن الإسلام وهو شمس الهداية ونور الحياة قد أحاطت به أقْمار عكست نوره ونَقَلت تعاليمه، وهذه الأقمار التي مررت تعاليمَ الهدايةِ للبشرية أجمعين إنما كانوا مثالاً وقدوة في وقتهم ولمن كان بعدهم، وهم رموزٌ لأهل الإسلام ومثالُ الأمانة والعدل في النقل، وإنَّ رموزنا في الإسلام بعدد النجوم فأكثر من أن تحصى وأعظم من تُخفى، وإنَّ عظيم قدوتنا ورمز رموزنا هو الرسول الأمين عليه الصلاةُ وأتمُ التسليم، وهو المعلم الأول ومنبع العلم والدعوة، فبهِ بدأَ الأمر، وعليه أنزل الوحي، وبه عليه السلام ختمت الرسالات، ومنه استقى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أمر دينهم وفِهمَ أَمرهم، فكانوا أول من استقبل الخير وتلقى الأمر، وهم خير الأتباع وقد رضيهم الله سبحانه لِصُحبةِ نبيه ورضي عنهم، وقد تلاهم من نقل عنهم وتمثل بهم بعد تمثلهم جميعاً بنبينا ونبيهم عليه السلام وهم التابعين وأتباعُ التابعين وهؤلاء رضي الله عنهم أجمعين وعلى من سار على دربهم وانتهج نهجهم وسلك طريقهم إلى يوم الدين كانوا في العهد الأول للرسالة وفي القرونِ الأُوَلْ، فكانوا صفوة الصفوة والمتلقي الأقرب عن نبع الهدي النبوي والوحي الإلهي، وتلاهم من المسلمين من كان من أهل الدين وأتباعه وعلماءه وقادته وكلهم خيرٌ على خير ونور على نور، نور لأنفسهم بالامتثال والتطبيق ونور لغيرهم بالدلالة والإرشاد والتعليم، فخط النور ممتدٌ من رحمةِ وتعاليم رب العالمين فالنبي الأمين ثم من اتبع الهدى إلى يوم الدين.

ومما يُعلم أنَّ لكل أمرٍ ذي شأنٍ دلالات ورموز، وان تلك الرموز لها تعلق بأمثل الشيء وكنهه فالرمز دلالةٌ عليه ومقياس معنوي ملازم ومؤشر عن محتواه، لذلك نقول

أن رموز الإسلام وأعلامه لهم قيمةٌ اعتبارية، وهم قدوةٌ عملية فعليهم قام أمر الإسلام وفُهِمَ مضمونه، ورموز الإسلام وهم من أجمعت عليهم الأمة بالرضا والقبول، وكانوا نجوماً يهتدى بهم في سماء الحياة لما كان لهم من مكانةٍ في الالتزام والتطبيق من ناحية، ومن الدعوة والإرشاد من ناحية، وكما قلنا فرجالات الإسلام ورموزه منذ العهد الأول لهم تزكيةٌ وعلو شأن في الذكر من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله الكريم وما نيلهم لتلك الدرجة في الرفعة إلا نتاجاً لحملهم وتطبيقهم أمر الدين كما أُنزل وكما أرادَ رب العالمين فكانوا خيرَ مستقبلٍ وخيرَ ناقلٍ للخير وتبعهم على ذلك النهج من اصطفاه الله سبحانه بفضله وجعله ممن التزمَ الحق ودعا إليه.

وان بابنا هذا اختص برموز الإسلام وأَعلامهم وذلك لمعرفةِ جلالة قدرهم وعلو منزلتهم في قلوب المسلمين وأنهم مرآة عاكسة لأخلاق هذا الدين وتعاليمه مع الأخذِ بالاعتبار أنهم بشر ولا كمالَ إلا للدين، ولا عصمةَ إلا للنبي الأمي ﷺ، وإنَّ حبهم حبٌ للدين، وان ما قدموه من خير وجهدٍ في دعوتهم ونشرهم للدين بما أخذوه عن الرسول الكريم والقرآن العظيم لنبع دافق لا ينقطع أجره ولا يفنى علمه فهم من حملوا راية التوحيد وبلغوا الدين وبذلوا في ذلك جهدهم وأمضوا أعمارهم، ودفاعاً عنه قدموا حياتهم، فطوبى لهم ثم طوبى لهم، فهم فخرنا وقدوتنا وبهم واليهم يَنتسبَ الإنسان بعد الدين فقد جمعوا من العِلم أحكمه، ومن المقام أرفعه، ومن الرضا أنفعه، فمن رضي الله عنه فقد فاز.

وان رموز الإسلام بدءاً من سيد الأنام وأهل بيته الكرام، وصحبهِ خير السلف ومن بعدهم من خير خلف، وأهل العلم والقادة ومن ارتقى بالزهد والعبادة، ومن خدم الإسلام والمسلمين وأعز الله به الدين، فإنه لجميعهم ومن كان من المسلمين، فله عندنا المكانة المرموقة، والحظوة المشهودة، والكرامة الموفورة، وإن جَنابَهُمْ مصان، وذكرهم بالخير في كل مكان، ولا ينال منهم إلا مُهان، ولا ينتقصُ من قدرهم إلا جاهلٌ حركهُ شيطان، وليسَ أحدٌ يبغضهم إلا وقلبهُ بالحقدِ والحسدِ لملآن، فمن عاداهم فما

أراد إلا التمادي وما له إلا الخذلان، وهو بسوء فعله من أهل الخسران، وما النيل من رموزنا إلا نيلٌ من آخر الأديان فمحالٌ أن تخفيَ شمساً بنعيقِ غربان.

فهذا الدين ديننا وهو الإسلام، وهؤلاء هم رموزنا، فمن كان هؤلاء الرموز سلفه فهو في خير وعلى خير وله الفوز والجنان فإن حبهم طاعة وبغضهم معصية فالله الله في رموزنا...

***

الباب السابع والستون أهل الذمة

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قال ﷺ: «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وان ريحها ليوجدُ من مسيرة سبعين عاماً» رواه النسائي وأحمد.

أهل الذمة هم رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين، والذين تعاقدوا مع المسلمين على إعطاء الجزية بشروط معينة في مقابل بقائهم على دينهم وتوفير الأمن والحماية لهم.

حينما نشأت الدولة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، لم تكن المدينة قاصرةً على المسلمين من حيث سكانها بل حوت غيرَ المسلمين من اليهود والنصارى وغير ذلك، ومن عدل الإسلام وسماحة الأحكام أن جعل رسول الله ﷺ وثيقةً وعهداً بينه وبين أهل الكتاب من اليهود آنذاك، وتشمل تلك الوثيقة أو الصحيفة أحكاماً وبنوداً تسري على جميع رعايا الإسلام من غير المسلمين في حينه، وقاعدةً تبنى عليها أحكام أهل الذمة بالنسبة للدولة الإسلامية فيما يخص ذلك الجانب من ناحية التعامل والأحكام، ومن تلك البنود في مجمل الأمر حفظ الحياة بعدم التعرض لها من المسلمين ما لم يكن هناك سبب شرعي لذلك كصد التعدي من طرفهم، أو لمناصرتهم الأعداء على المسلمين فهنا أصبح الطرف المتعاقد معه في منزلة المحارب، ومن تلكَ البنودِ أيضاً أحقية التملك وممارسة الحياة اليومية بشكل طبيعي مع البقاء على دينهم و أن لا يُتعرض لهم بإجبار أو إكراه على الإسلام.

ولهذا فأهل الذمة هم نسيجٌ وجزءٌ من الدولة الإسلامية ولهم أحكامٌ وحقوق، وعليهم واجبات، وكل ذلك معلومٌ ومبيَّن عند أهل الشريعة وعلماءها ومن ذلك ما فُرِضَ عليهم من جزية، والجزية يُقصد بها مبلغٌ يدفعه كل ذمي للدولة الإسلامية في مقابل حمايته وإِسقاط القتال عنه في معارك المسلمين، وتُدفع من قبل القادرين وتسقط عنهم حال العجز أو الدخول بالإسلام.

ولننظر هنا بعين الروية لمسألة الجزية، فالإسلام يطالب المسلمين بدفع زكاتهم والمشاركة في الدفاع عن الدين والبلاد وهذا غير مطلوب من أهل الذمة، إضافةً إلى أن الدولة تؤمن لهم الحماية وترفع عنهم ما قد يضرهم، وأيضاً لو كان الذي يحتاج إِلى المساعدة والعون منهم لكان على الدولة الإسلامية أن تعينه وتحفظ كرامته وتنفق عليه، وهذا له من الشواهد بأكثر من أن يُحصى في تاريخنا.

إذاً فالإسلام احتضن أهل الذمة في المجتمع ولم يجبرهم على شيء، بل وتوعد من يتعرض لهم ما داموا على العهد بالوعيد والعقوبة، وهذا هو عنوان الإسلام وسماحته وعدله، فالإسلام كدين ودولة نظم حركة الحياة والمجتمع أيما تنظيم، ومن ذلك أن نظم علاقة المسلمين مع غيرهم في نفس الدولة بما يحافظ على النسيج والاستقرار العام وحفظ الأمن والكرامة للطرفين، ومما لا يخفى على المنصف أن كلمة الذمة تعني العهد، بمعنى أنهم في ذمتنا، فأي عهدٍ وجمالٍ في هذا الدين الذي يحفظ غير المسلمين ويدفع عنهم ما قد يضرهم كأنه يحفظ أفراده من المسلمين، ومما تيقن خَبرُهُ عن الرعيل الأول أن المجتمع الإسلامي بكافة أهله كانوا على وفاق وحسن تعامل من جانب المسلمين، ولنا في رسول الله ﷺ قدوةٌ وفهمٌ واعٍ في كيفَما عامل به غيرَ المسلمين، فلقد أحسن إليهم، وجاورهم، وتعامل معهم في تجارتهم. والشريعةُ أوضحت جوازَ الزواج من نسائهم المحصنات، وأكل ذبائحهم، فكيف تُرى تكون المرأة الكتابية زوجةً لمسلم وأُماً لأولاده ما لم تستشعر أنها نالت كرامتها وإِنسانيتها وحقوقها في ظل الإسلام، فلولا قناعتها في عدالة وسماحة الإسلام لما قبلت ذلك الاقتران، ولولا إنصاف وعدالة

الإسلام وعدم إكراهه الآخرين على الدين لما رأيت من هم على غير دين الإسلام بين أظهرنا للآن في بلاد المسلمين.

* ولا بد لنا أن نشيرَ إِلى أَنَّ أَحكام أهل الذمة من ناحيةِ الجزية خاصةٌ بالدولة الإسلامية، وبما أنه لم تعد في عصرنا الحالي دولةٌ إِسلاميةٌ قائمةٌ على أمور المسلمين كآفة، فقد توقف العمل بذلك الأمر لحين. ويعتبر الجميع مُسلماً وغيرَ مسلم من المواطنين لذلك البلد الذي يقيمون فيه، ومع ذلك فالإسلام يمنع التعرض لغير المسلمين بلا وجه حق إلا كصدٍ لاعتداءٍ على أفراده أو للذود عن بيضة الإسلام، فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يعيد للإسلام مَجدَه ونرى عِزَه، وترتفع راية الإسلام واحدةً مُوَحِدة في بلاد المسلمين، ويُحَكَّمَ أمر الدين وهذا كائن بأمر الله وسيكون، والحمد لله رب العالمين.

***

الباب الثامن والستون الرق والعبودية الحديثة

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور: ٣٣].

قال ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه» رواه البخاري.

العبودية -من البشر للبشر- تلك الكلمة القاسية عند قراءتها، والتي يَشعرُ فيها القارئ بالقيود تلتف حول الكلمة فينطقها مسرعاً ليخرج من إحساسها ويعود لحريته من جديد، ولا اعتراض في ذلك الشعور ولا عاقل ينكر قسوتها، ولكننا لسنا هنا لنبرر بل لنوضح جانباً مشوهاً في ذلك، فالإشكال لعدم الفهم، أو بالشبهة الكاذبة حول ما يتناوله الإسلام مع العبودية هو المقصود هنا بالتوضيح والتفنيد، ولنبيِّنَ أيضاً الصورة العالميةَ الجديدة للعبودية والتي يتبعها غير المسلمين عموماً، والتي أخذت مضمون العبودية وحلت محلها بشكل مبتكر وبتأثير واسع، والتي نستطيع تسميتها بالعبودية المقنعة أو الحديثة والتي يرفضها الإسلام، ويرفض معها أي تعدي على الإنسانية الفردية أو العالمية .

أولاً يُعلَمْ أن مُصطلح العبودية بين البشر هو استملاك الإنسان للإنسان، وهذا أمرٌ قديمٌ متداول رافقَ الحضارات منذ القدم، ولكنْ الذي حدثَ وغيَرهُ الإسلام بعد إشراقه على العالم أن قَيدهُ ومَنع أمرهُ بما كان يُتداول على مر التاريخ من إذلالٍ وقهرٍ للإنسان وإفقاده للآدمية، فالإسلام لم يُحرم العبودية، إذ كانت موجودة، وهذا مما لا ننكره لنرضي من لم يفهم ما تناوله الإسلام بالنسبة لذلك وكيف تعامل معه، فلو أن المتكلم وعى وأدرك إنسانيةَ الإسلام وحفظه للإنسان، لعلمَ ما قدمه الإسلام للإنسانية من رقي وإبداع في التناول، ولفهم ذلك لابد للقارئ أو الناقد أن ينظر بعين الإنصاف والعقل والعدل لما فعلَ الإسلام، وسَيعَلَم حينها انه اقرب ما يكون من فعله انه أوقف العبودية والرق وأعادَ للإنسان الحرية، فأول شيءٍ بدأَ بهِ الإسلام أن أَغلقَ أَبوابَ

الاستعباد من جميع الأوجه ومنع أشكالها بأي طريقةٍ كانت إلا من بابٍ واحد وهو بابُ الحرب المشروعة؛ والذي تقديراً من الإسلام لحياةِ الإنسان الواقع تحتَ الأسر فبدلاً من الذهابِ بحياته، جعلهُ مملوكاً لآسره فمنعَ عنهُ بذلكَ القتل أو الاعتداء، وهذا حفظٌ لروحه وإبقاءٌ عليه، ولم يكتف الإسلام بأن أغلق جميع منافذ العبودية بل أوجبَ أن يُعاملَ المملوك معاملةً إنسانية، وان لا يكون لأحدٍ عليه من أمر إلا صاحبهُ، وأوجب للعبد أي المملوك شرعاً بشروط، أن يَكتَتِبَ مع سيده، فَيكاتِبهُ على حريته.

والإسلام لا يُحِلُ الاعتداء ولا الإذلال للنفس البشرية، بل يعاقب من تعدى وأسرف وتطاول عليها، وهنا نسألُ أولئك الذين يتغنون بالحرية وهم ليسوا حقيقةً من أهلها فما بالكُم ألَم تفهموا أنَّ الإسلامَ أغلقَ الأبوابَ كلها إلا بابُ الأَسرِ في الحروب فإنكم بما فعلتموه وما تفعلون معَ الأسرى كان حقاً عليكم أن لا تتكلموا في أمر الإنسانية حتى تعرفوا قيمتها، فلو خُيرَ الأسير بينَ أن يوضع في (جوانتانامو) وسجن (أبو غريب) أو أن يكون خادماً لآسره يأكل مثل ما يأكل ويعامل بآدمية حتى حين فماذا تراه يختار.

وأضيفَ إلى ذلك أمراً ليُفهمَ عن الإسلام حالُه وبعض تشريعاته، فإنهُ مع تقييدهِ أبوابَ الدخول للعبودية فقد فتحَ البابَ على مصراعيه للعتق، فتعددت المنافذ والأسباب والحالات الموجبة لذلك، فالإسلام أتى موجهاً للعتق وليس راغباً في الاستعباد، وان الصورة المغلوطة التي يتناولها المبغضون للإسلام والمدعين للحرية بزعمهم، فلينظروا لحالهم بإستخرابهم للبلاد واستعبادهم للعباد، وتاريخهم المقيت بما ارتكبته أيديهم في حق البشرية وفي هدر كرامة الإنسانية، على عكسِ ما فعل الإسلام بأن أكرم الإنسان وحفظ أمره. فالإسلام يمنع أيَ شكل يأخذ مضمونَ الاستعباد من طرفٍ لآخر، أو العمل بالعبودية المقنعة وهي استغلال الحاجة لفرض السيادة، ولننظر إلى ما هو أخطر وأكبر من العبودية الفردية بشكلها الظاهر في عصرنا الحديث، فهؤلاء وهم من يتشدقون كذباً بالعدالةِ والحرية ألا يرونَ ما تفعله دولهم من استعبادٍ وقهر

لغيرهم من دول العالم، أَلم يستعبدوا الشعوب ومقدراتها، أَلم يحتكروا مواردها وموادها، أليسَ من أكبر أسباب الفقر والظلم في العالم تلك العبودية المقنعة التي تتحكم بأقوات الناس وحرياتهم، أليسَ قمحُ العالم يلقى في البحر للمحافظة على سعره بدلاً من إطعام الجائعين، بل والأنكى من ذلك أنهم يمنعون زراعته عند الدول الفقيرة لزيادةِ التحكم بهم، أليست الحروب التي يشنونها ليستعبدوا أمر تلك البلدان وسيادتها، أليس التحكم بالمقدرات العالمية بما يَصُبُ في مصلحة الأقوى عالمياً على حساب مصير الشعوب الأضعف استعباداً، أليست الشركات العملاقة والبنوك الدولية والنُظم التجارية العالمية والتي تحتكر أقواتَ وعلومَ ودواءَ المحتاجين من فقراء العالم وتمتصُ دماءهم بدلاً من مراعاة إنسانيتهم استعباداً، أليس صندوق النقد الدولي يفرض سياسات متحكميه الدولية ويتحكم استعباداً من عوز الآخرين، أليست طرق الاستعباد العالمية تأخذ أشكالاً تتناسب مع رغبةِ من نصَّبوا أنفسهم أسيادَ العالم، أليسَ فرض الرأي والرؤية من وجهةِ نظرِ الأقوى اقتصادياً أو عسكرياً استعباداً للأضعف، وما نراه من تقسيم العالم على شكل طبقيةٍ مقيتة فهؤلاء من العالم المتقدم وهؤلاء من دول العالم الثالث أليس هذا شكلٌ من إشكال الاستعباد، أليس استعباد العقول والأقلام وامتلاك الإعلام استبعاداً، السنا في زمن أصبحت الحرية عبئاً علينا من جراء تمادي ظلمهم علينا... فالصورةُ واضحة والعاقل يفهم، وشاهدنا صفحة العالم، ومن دلائلنا واقعُ أمرنا فمن لا يحتفل من بلادنا إلا نادراً بعيد استقلاله..

فنحن كإسلام نشرنا الهدايةَ والعزةَ والكرامة، وكان أمرنا أن نوجه الإنسان للخير والأمان، وأما الطرف الآخر فما كان أمره إلا احتلال واستعباد وظلمٌ للإنسانية

والتاريخ يشهد معنا على ذلك ولكنهم قوم لا يعقلون.

***

الباب التاسع والستون الإسلام وموقفه من الخصومة

لا يقفُ الإسلامُ هنا في دور المتهم ويطلب منه الرد والدفاع عن نفسه، فهذا ليس من الإنصاف ولا من العدل، فهو دين الله والدين الحق، رضي من شاء وعاند من ضل وبذنبه قد باء، وان باب الرد هنا على أمر الخصوم ليس لطرحٍ نواقصٍ عنه أو لتصحيح قصورٍ ألمَ به، إنما كانت الخصومة ممن ملك عقلاً فما وعى أو لشهوة فهوى، أو ظلماً لغايةٍ فعدى، وان هاهنا توضيحٌ لأمر الإسلام، فإنَّ بيانه وفِهمَ أمره من خلالِ طرحه وما حوى، وانه قائمٌ بذاته، ودالٌ على نفسه بتشريعاته ومفرداته، وان الفهم الصحيح والعدل الصريح أن يُفهمَ ويُعلمَ عنه من خلاله لا من خلال ما قد ينسبُ إليه ممن لم يكن من أهله، وليُعْلَمْ أَنَّ من كانت في نفسه شبهةٌ فنادى بها لقصور في إدراك عقله، أو لتلوث أصابَ فكره فذلك يجعله في موقع لا يصح، و من كانت عنده صورةٌ لم يحسن جمعَ أطرافها فتاه في تشكيلها فبعلمِ وإدراك الصورة الحقيقية والميل للحق يجد البيان ويذهب عنه ما سبب له التوهان، ومن كان على باطل ونصرَ ما كان عليه على حساب الحق فهذا خللٌ قائمٌ على خلل وباطلٌ بني على باطل، وأيضاً من كان غير ذلك واجتمع مع من هو على شاكلته في الندية للحق فالباب مشرَعٌ على مصراعيه لفهم واستيعاب المنهج الذي كادوا له الخصومة، فإن العلم والبيان ليس حكراً على أحد ولا قهر لتبني الدين على أحد، ولا يوجد في الإسلام خصوصيةُ التخفي في إبداء الأحكام والشرائع، فهذه خاصيةٌ إنما تكون لأمر قد يحمل جانباً من الشك أو خوفاً من كشف نقص، والإسلام عَكْسُ ذلك تماماً فهو واضحٌ وجلي البيان، وليس فيه محاباةٌ لأمرٍ فيه منفعةٌ لمُشَرعِه، أو إخفاءٌ لسدِ بابٍ من قبيل الخوف أو العجز، فالمشرع هو الله سبحانه وهو المالك القهار لا يحتاجُ إلى أحد، ولا يزيدُ أو ينقص ملكه بأَحد، فالإسلام شرعٌ كريم ورسالةٌ ربانية، وهدايةٌ عالمية، وهي واجبه على العبيد لمن خلقَ الخلقُ ثم يعيد .

والعاقلَ يرى وضوحهُ وجلاءَ قدره وعلوَ أمره في أولِ أُصوله في القرآن الكريم فهو ثابت مُثبتٌ للدين مُتَعَهَدٌ بحفظه فلا نقصٌ يعتريه ولا زيادةً قد تجد فيه تنزيلٌ مـــن رب

عليم .

وكذلك فيما ثبت عن رسول رب العالمين فقد بَلَّغَ الرسالة وأدى الأمانة وما نطق عن هوى إنما وحي من الله سبحانه يوحى فعليه الصلاة وأتم التسليم.

والإسلام كدين حي ومنهجُ حياة فقد حمل في نفسه بواعث البقاء، وكمالات النقاء، لأن مصدره غير بشري ولم يبنى على مبدأٍ تجريبي أو اكتشافٍ علمي، بل هو أمرٌ إلهي بتدبير علوي أمر به الله سبحانه ورضيه ديناً للعالمين.

والإسلام بناءٌ شامخٌ، وان قَصُرَ النظر عن إدراك رقي أحكامه ومبانيه، وجمالِ ما يحويه؛ فَلِعيبٍ في عينِ وقلب الناظر، وقصورٍ في إدراكه، وتقويمُ ذلك كله وضحه الإسلام وتناوله في شرعه وبَيَّنَهُ وعللَ أَحكامه.

ففي الإسلام ما يكون أساساً حقاً يَعرفُ به الإنسان سببَ إيجاده وما بعد حياته، فتذهب عنه حيرة أمره في خلقه وابتعاثه. وما يكون فيه من صورٍ من كمالِ وجمالِ خلق الله سبحانه وتشريعاته فيستنير العقل إِدراكاً لقدرة الله وإعجازه، وما يرى فيه تنظيماً لكل حياته، وموجداً لسعادته فيعرف ويطمئن انه محاطٌ بحفظ الله ورعايته. وما يحسُ فيه إيماناً موافقاً وبه يكون متحركاً، فأيقن تطابقاً مع فطرته. وما يعاين إِعْمالَهُ في محاسن الأمور وأَعلاها فيوقن انه تكريم وسمو بإنسانيته.

وأوضح الكلام أن الإسلام دين الله وشرعته، وفيه بيانٌ لكل شيء، وان الخصومةَ معه إنما هي رفضٌ لمنهج الحق وهي إما لقصور إدراك، أو سوء غاية، أو إعراض عن الحق، ومن أرادَ جانب الصواب وملازمة الحق فلينظر بقلبٍ صافٍ وعين باحثه وسيجد ضالته في الالتزام والقبول بالمنهج الرباني القويم وهو الإسلام الكريم.

***

الباب السبعون الإسلام وسبب العداء القديم له

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

إنَّ الإسلام هو دين الله، ودين الحق الذي ارتضاه سبحانه وتعالى للعالمين وللبشرية أجمعين، وكان آخر الرسالات، و بهِ ختمَ الله النبوات، فكان بعد نزوله بأنَّ عليهِ يقومُ الحساب وعليهِ وجبَ الإتباع، فمَن أدركهُ وعلمَ به وَوصلت إليه دعوتهَ فقد أقيمت عليه الحجة، وذلكَ أمرُ الله الذي أَنزلَ جميعَ الرسالات السماوية ولأمره وجب التسليم.

وعند نزولهِ كانَ الناسُ على أحوال وأقسام وأديان كثيرة، فمنهم من كان يتبعُ الديانات السماوية السابقة للإسلام ولكنهم كانوا على منهج حصلَ فيه تحريفٌ وخروج عن أصل المقصد وهو التوحيد، وذلك مذكورٌ بنص كلام الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ومعلومٌ لمن نظرَ بعين الحق أَنهُ سيرى ويجد ذلك الاختلاف والتحريف الذي نال تلك الرسالات عندَ النصارى واليهود. وهناكَ قسمٌ آخر كان على الشرك، بأن عبد بزعمه آلهةً أخرى مع الله، واعتقدَ بضلاله أَنها وسيلةٌ يتقرب بها إليه. وقسم جعلَ لكل أمر أو منفعةٍ أو موسم إلهاً يُعبدُ من دون الله وكانَ ذلك بدلالةٍ من شيطانهم ومن عقل ضال وأهواءٍ عائمة، معتقدين أنهم على شيء وهم ليسوا على شيء.

وقسمٌ قليل كان على ما بقيَ وتناقله الناس من الحنيفية فكانوا باحثينَ عن الحق وسط ذلك التَوهان العام.

وعندما سطعَ نجمُ الإسلام وظهرت دعوته، ظهر ذلك العداء لهذا الدين الجديد الذي يدعوا إلى التوحيد، والى قيمٍ جديدة، وشرع قويم يوجبُ الإتباع، فكان لكل قسم مما ذُكِر أو غيره ردةُ فعل مختلفةً عن الأخرى مع اشتراكِ بعضها في جوانب معينة من ذلك العداء، فأما المشركين وهم من كانت فيهم بداية الظهور والدعوة، فكانوا على يقين وعلم بسمو الرسالة، وصدقِ الداعي إليها متمثلةً بشخص رسول الله ﷺ فهم يعرفونه ويعرفون أحواله وصدقه وعلو أخلاقه، ولكن ذلك يتصادم بالنسبة إليهم مع كثير من أمورهم التي كانوا عليها، فالإسلام بتشريعاته يُوجد حَداً لتلك الممارسات التي كانوا عليها، وكانت مخالفةً للمنهج والتشريع الجديد، فالإسلام يطالبهم بوحدانية الله، ونبذ الشرك، والمساواة، والعدل، ومكارم الأخلاق في الأمور كلها، فرأوا بأفقهم الضيق آنذاك أنَّ ذلك سيسحبُ البساطَ من تحت أقدامهم، من حيث سيادتهم ومن حيث المنافع المادية التي كانوا يحصلون عليها، وذهاباً لمكانتهم الاجتماعية والقبلية التيَ حصلوا عليها بفضل موقعهم آنذاك بكونهم مجاورين لمكة والبيت العتيق، ووجدوا في أَنفسهم كِبراً وعُلواً بأن يتركوا ما كان عليهِ أَسلافُهم وان يلتزموا بذلك الدين الجديد، وان يتقيدوا بتلكم القيم التي تحدد علاقتهم مع الآخرين ضمن إطار العدل والمساواة وتَحُدُ من سلوكياتهم وشرور نزواتهم التي اعتادوا عليها.

ومع اشتراك الأقسام الأخرى للعداء في باب تغليب المصلحة الفردية والكِبر والعناد والتعصب وتغليب الشهوات، لكن كانَ أَشرُ تلك الأقسام رفضاً للحق هم اليهود، فإنهم كانوا يحملونَ حقداً وحسداً للإسلام شديد، وتمكَّنَت تلك العوارض القلبية منهم أيما تَمَكُّن مع علم أحبارهم وعلماءهم أنَّ هذا هو الدين الذي أُخبر عنه في التوراة، وأنهم كانوا ينتظرون ظهوره، ولكن أعماهم حسدهم وحقدهم عن قبول الحق، ونرى ذلك في سيرتهم وبشنيع أعمالهم مع المسلمين ونُدركُهُ بعَدَدِ الذين اتبعوا الإسلام منهم فما كانوا إلا قلةً قليلة، وقد اشترك معهم في إنكارهم للحق مع علمهم به النصارى وذلك بعد ظهور الإسلام وانتشاره، ومع ذلك فبعدَ حين دخلَ الكثير منهم

في الإسلام، فبلاد الشام كان أكثريتها على النصرانية فأصبحت أرضاً إسلامية وأصبحوا جزءاً من أهل الإسلام، ومن كان منهم في جزيرة العرب فقد آمن واتبع الحق أيضاً، ومع تمدد الدعوة وانتشارها و سمو المنهج ورُقي الدعوة آمن الكثير، فمن كان باحثاً عن الحق وجد ضآلته وأيقن أنَّ هذا هو الدين الحق، ومن كان على ضلال وقارن بين حاله والحال التي يريدها الإسلام له فكان لا بد له أن يتبع ذلك الدين لما وجدَ فيه ما يُكَّرمهَ ويرفعَ شأنه ويُجعله في دائرة الإيمان والكمال الإنساني والعدل والخير في كل شأن.

ونضيفَ هنا قِسماً خفياً في مظهره وعميقاً في ضرره، وهم من أظهر الإسلام وأبطن الكفر وهؤلاء هم المنافقين.

ونستطيع أن نلحق أَسبابَ العداء للإسلام في بدايةِ ظهوره بما يلي :

* تغليب المصلحة الفردية والقبلية وما تعلق بهما من المصالح المادية والاعتبارات السيادية.

* التقليد الأعمى للسابقين، والتعنت في قبول الحق والكبر على الإيمان.

* وجود ذلك التقييد على النوازع والشهوات.

* الحقد والحسد.

* الخوف على نزع السُلطة الدينية أو السُلطة الدنيوية.

***

الباب الواحد والسبعون الإسلام وسبب العداء الحديث له

إنَّ العداء الحديث للإسلام -ويقصد هنا بالحديث (الفترة الراهنة)- مع شموليته لرواسب القرون الماضية من زخم الصراع الذي حصل بين الإسلام والغرب، فان العداء هنا لا يقتصر على الغرب فقط، بل على كُلِ من حمل رايةَ العداء للإسلام حتى وإن كان بين أَظهر المسلمين، فالكلام هنا عن سبب العداء العام بعد بروز الحضارة الإسلامية امتداداً لوقتنا الحاضر، وحتى وإن ظهرَ في أماكنٍ أو فتراتٍ مختلفة بشكل قوي وملحوظ فنحن إنما ندرجهُ جميعاً تحت باب المعاداة والتصدي للإسلام وما هو أَسبابه بنظرهم.

بدايةً لا بُد أن ندرك إن العداء الحديث للإسلام مُستمدٌ جذوره من أصل العداء القديم، فكل الأسباب أو جُلها نستطيع القول بأنها تتشابه، مع وجود أمورٍ استحدثت وأخذت أشكالاً جديدةً في العداء، ونذكرها هنا في أقسامٍ رئيسية وبإعمال العقل فيها نجد أَنها الصورة الحديثة للعداء القديم لكن بشكلها الأوسع والأعنف.

القسم الأول: وهو ما كان أصل العداء فيه تابعاً لمن تعارضت رسالته مع رسالة الإسلام، وان كانوا على أصل واحد وهو الرسالات السماوية، لكن أَبَوا الانخراطَ وإتباعَ الأصل والمقصد من الرسالات وهو التوحيد بعبادةِ الله وحده، فنافحوا عن معتقداتهم المحرفة وأنكروا الطرف الآخر وشككوا فيه، بل وقادوا الحملات المتتالية على بلاد الإسلام لنُصرةِ معتقداتهم، والقضاءِ على من يعتقدون أنهم خصومهم، وأيضاً رفضهم للحق الذي كانَ مِن باب الكبر والحسد والعلو على أمر الله، ونرى كثيراً من السياسات المتبعة حديثاً من أصحاب القرار عندهم، أنها تحمل ذات المضمون ولو بشكل جزئي في سياستها، لاندماج التوجه المَصلَحي مع الالتزام العقدي بنظرهم .

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

القسم الثاني: وهو من كانت لهم سُلطةٌ وسيادةٌ عالمية، فرفضوا الإسلام وحاربوه وأوجدوا الفتن والصراعات في الدول الإسلامية، ليبقوها على ضعفٍ وتفرقة فيسهلُ عليهم استغلالُ وسرقة مدخراتها، وأنشئوا فكرةَ أنَّ الإسلام لا يقبل الإصلاح ولا يتأقلم مع المجتمع الدولي، فأوجدوا بذلك نوعاً من العُزلة ورفضاً لقبول الإسلام، وفي نفس الوقت أكنوا له العداء؛ خوفاً من بسط الإسلام لنفوذه على المجتمعات الغربية وصبغها بالصبغة الشرعية وهذا فيه تعارض مع سيادتهم ومصالحهم.

القسم الثالث: وهم قسم كان يحمل انطباعاً سيئاً عن الدين عموماً، وأَنَّهُ سببٌ للتخلف والعنصرية والظلم، وذلك بما حصل وأصابَ مجتمعاتهم على مدار قرون، حيث كانت السلطة المسيطرة آنذاك هي السُلطة الكنسية والتي تحمل الصفة الدينية، ولكنها كانت على غير هدى ولا منهجٍ صحيح، بل كانت قائمةً على إيجاد تبعية وعلاقة نفعية قائمة على استغلال الحس الديني لتنفيذ المصالح الخاصة إضافةً للتحكم العام بالمقدرات والنواحي الاجتماعية والثقافية، فاستغل الكثير ممن عادى الإسلام، والديانات عموماً، ذلكَ الحنق والشعور السابق فقاموا بربطه وإسقاطه على الدين الإسلامي، فأوجدوا للمحيط ولأنفسهم جهلا وظلماً الخوفَ من تكرار تلك التجربة.

القسم الرابع: وهم قسمٌ من ضَلَ به عقلُه، وتحكَّمَ بهِ هَواه، فرفض الدينَ بالكلية، وهم على جُزأين، الجزء الأكبر منهم من أرادَ حياةً شهوانيةً غريزيةً غيرَ منضبطة ولا يصاحبها التزام ولا تقييد فيرتع فيها كما يشاء بلا تأنيب ولا مُحاسِب، والجزء الآخر هو من نَصَّبَ عقله القاصر على الحُكم على حقيقة الأمور وأصل الوجود وأدوار الحياة بنظرياتِ من سبق، ممن أنكروا وجود إله أو دين، فقلدوهم ذلكَ التقليدَ الأعمى واتبعوهم في غيهم وضلالهم، وانساقوا لتلك الأفكار التي ما كانت إلا مزيجاً من نقص الإدراكِ والفهم، وتلبس الشيطان، وغياب الفطرة السليمة، فأنكروا كل شيء حتى حقيقة أنفسهم.

القسم الخامس: وهوَ من أَخذَ الصورةَ الخاطئة بالفهمِ الناقص عن الإسلام، وإنما حصل ذلك إما إعراضاً عن الفهم وطلب الحقيقة وذلك خوفاً من الالتزام بالمنهج الذي قد يُقَيدهُ بنظره عن أسلوب الحياة الذي نشأ عليها -وهذا الخوف ليسَ في محله-، وإما أخذَ الصورةَ الخاطئة لِكَثرةِ ما تَعرضَ لهُ من الأقسام المعادية الأخرى، والتي زرعت بذور الكراهية والفهم المغلوط عن الإسلام، وبثِ الافتراءات والشبهات والكذب مما أوجد هالةً من السواد التي تحيط بتعاليم الإسلام عند البعض.

ولنكن منصفين، في أن البعض ممن أَبدوا الخوف والعزوف عن الدخول في الإسلام، إنما كان لما رأوه من تصرفِ قلةٍ ممن ينسب نفسه للإسلام وهو على غير هدي وتعاليم الشرع الحنيف، والواجب علينا وعليهم معرفةُ المضمون الحقيقي والمقصد والتوجه الصحيح للإسلام ونشرُ ذلك وتوضيحه، وأَن يُعلَمْ أَنَّ الإسلام كدين هو المقياس وليسَ الأفراد، فَهُم على مراتب في درجة الالتزام واستيعاب الدين.

القسم السادس: وهو القسم الأخير، وتستطيع أن تقولَ عَنهُ إنه جامعٌ للشر من كل قسم سبق؛ وذلك بأنَّ صاحبهُ زَعَمَ أنَّه من أهل الإسلام وأعطى ظاهراً يفيد ذلك، لكنهُ حقيقةً حاربَ الإسلام مِنْ داخله، وأوجد تلكَ الصورةَ المنافيةَ لواقعِ الإسلام وأَحكامهِ وتشريعاته، فكان هنا عبارةً عن سلاحٍ ذو حدين، حدٌ يُطعن به الإسلام وأهله من ناحية، وحدٌ كونُهُ أصبحَ سداً يمنع انتشار الدعوة والكلمة الحق ونشر الصورة الصحيحة عن الإسلام، وهذا القسم إنما هو أداةٌ بيد بعض تلك الأقسام والتي اتخذت من النفاق أسلوباً قديماً وحديثاً لمحاربة الإسلام وللصد عن الحق ودين الحق.

***

الباب الثاني والسبعون سبب اختلاق الشبهات على الإسلام

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: تلا رسولُ ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» رواه مسلم .

الشبهة هي الالتباس والغموض والشك، ونَقْصُدُها هنا بتلك الحالة لإيصال الأمر إلى حالةٍ من الالتباس في فهم وإدراك حقيقة الشيء والى أي جانب يُصنف ويوضع.

إنَّ اختلاقَ الشبهات على الإسلام أمرٌ قد جُمعَ فيهِ جوانبُ الشر، وانَّ من برزَ لذلك الأمر فهو تارةً يهاجم الأصل وتارةً يبحث عن المتشابهِ من الأمر فَيُخفي جانباً ويُظهر الآخر، وتارة يأخذُ الكِذبَةَ فيخلطها بجانب من الصواب وأصل من الأمر فيوجد بذلك حالةً من عدم الإدراك الحقيقي للمسألة ومفهوماً خاطئاً تم تَقَصُّد إظهاره، وإن أكثر ذلك ليجد وقعاً في نفوس من لم يرتضي بالإسلام، أو لم يكن له علمٌ به، وقد يصيب من كان من عوام أهل الإسلام وأتباعه الذين لم يحملوا علماً كافياً ليدركوا حقيقة الأمر.

وان الهدف الأوحد لمن يبث تلك الشبهات ويضع تلك الاختلاقات هو النيل من الإسلام والوصول به إلى مرتبة الطرف المهزوم، وبالتالي إفقادهُ هويته وإضعافُ رسالته، فيصبح طوعاً للإملاءات، وقابلاً للانطواء تحت ظِل الأنظمة والإيديولوجيات والمعتقدات الموافقة لفهم المعتدي. فالمراتبُ المرجوةُ من المشكك والمعتدي على درجات، فالتركَ بالكلية من الأولويات والإتباع مطمعٌ أساسي، وإيجادُ حالةِ التيه

والتخبط في نفوس من اتبع الإسلام من أعظم الانجازات، وتشويهُ الصورة العامة والنفور من الإسلام أمر يرتجى ومقصدٌ أصيل.

وكلها ظلمات في بحر ظلمات.

إن بداية إلقاء الشبهات في أول الدعوة كان يُقصَدُ منه العزوف عن الدخول في الإسلام، وذلك لتغليب المصلحة عندهم آنذاك، وحينما انتشر الإسلام وظهرَ أمره ذهبت تلك الشبهات واندثرت ودخل من كانوا يبثونها إلى دائرة الحق، ومع التوسع ظهر عداءٌ جديد متخذاً النفاق غطاءً له، ولكن لم يكونوا ذي بال، فأمرهم مكشوف وعددهم وتأثيرهم محصور. ثمَ توالى على امتداد الزمان من يلقون الشبهات وكان الحقُ بأَهله لهم بالمرصاد، فيطمسونهم ويفندون شُبهاتهم، ومن ثم ظهرَ في الفترة الحديثة أسلوبٌ جديد للتشويه والاعتداء فتمَ تجنيدُ العديد من الإمكانيات والأفراد لدراسة الإسلام والبحث عما قد يمكن الاستفادة منه في التصدي له، وإحداث الهدم الداخلي في بناء الإسلام، وهنا يحق لنا ولكل منصفٍ أن يستغرب فبدلاً من البحث عن الحقيقة الواضحةِ الجلية في تعاليم وتشريعات الإسلام للاستفادة منها في الرقي البشري والسمو بالقيم، قُصِدَ في تلك الجهود إكمالُ العدة والعتاد لحرب المسلمين والإسلام والنيل من تراثهم .

فإن إيجاد الاضطراب الداخلي والتشكيك بالثوابت والأصول ليُحدِثُ أثراً لا يقل عن استخدام السلاح بما يوقع الوهن في نفوس أهل الإسلام وتاريخهم، فقام المستشرقون ومن على شاكلتهم بالبحثِ عما يصلح بنظرهم القاصر لاستخدامه كورقة تستخدم في ذلك، وإنَّ من كان منهم ذا عقل راجح وقلب صاف فقد أيقن أن ذلك الدين إنما هو دين الله ولا نقصَ يعتريه ولا يوجدُ خللٌ فيه ، ولا تتضارب أهدافه أو تشريعاته، وأَنَّه جمع بين الكمال والجمال، ولكن للأسف فَجُلهم كانوا على غير هدى، فهم مُجندون لخدمةِ هدفٍ واحد وهو الهدم، فاتخذوا كل أسلوبٍ خبيث، وخالٍ من الأمانة، بأن اقتطعوا ما أرادوا بكيفية منقوصةٍ، واجتزاءٍ مُتعَمَد، مع إخفاءِ الجانب

الحقيقي للجانب الإسلامي للأمر، وإظهار الشبهات والأكاذيب على أنها هي جانب الصواب، فأُخِذَ ذلك ومن جهودهم الشيطانية وجُعلت كأساسٍ للفهم المغلوط عن الإسلام، ولبنةً في بنيان الافتراء المزعوم، والذي يستشهد به في وقتنا الحاضر من قبلهم، وكأنَ الإسلام بجلالةِ قدرة، وعلو شأنه، وكمال تشريعه، ورفعةِ قيمة، يريد شهادةً من هؤلاء ليُثبِتَ انه على حق، فالإسلام هو الحق، وليس لأحدٍ عليه من سبيل، وهو الدين الذي ارتضاه الله وجعله للعالمين، فلا يُؤخذُ عن الإسلام إلا من الإسلام، وتلك المراجعُ والأرصدة التي اعتمدوها للنيل من الإسلام إنما هي وزرٌ عليهم، ودليل على إفكهم وسوء تدبيرهم .

وكما ذكرنا، فقد بدأت الشبهات في تلك الفترة بأقلام أكثر المستشرقين المأجورة لخدمة هدف غير سامي، وكانت قاعدةً للتضليل ومنها يستسقى لتلكم الافتراءات، وقد اتخذت الشبهات وواضعيها في العصر الحديث طابعاً أكثر ترتيباً وتنظيماً وذلك للتقدم التكنولوجي والإعلامي في إيصال الفكرة والمعلومة للآخرين، وإتباع الأساليب المدروسة والإيحاءات النفسية لتمرير تلك الأفكار بما يخدم الهدف المرجو.

وان أشكالَ العداء بإلقاء الشبهات والافتراءات لم تقتصر بالفعل على غير المسلمين، ففي الوقتِ الراهن فقد حملوا معهم في سفينة باطلهم من أيَّدهُم وتبنى فكرهم ممن ينسِبُ نفسه ظاهريا للإسلام ولكنه يبطن نوعاً من النفاق في التعامل مع المسألة التي أُنتخِب لها، وفي تلبيس الاعتقادِ أيضاَ وجدوا لهم أعواناً، وهناكَ أيضاً من ركابِ سفينتهم ومن سلك وجهتهم من كان مأجوراً ويبيعُ نفسه وقلمه لمن يدفع له أكثر، فالأمر للبعض منهم كان لا يتعدى أن يكون تجارةً يتحصل منها على مكانةٍ أو منصب أو منفعة مادية وإن كانت على حساب الدين.

وخلاصةُ الأمر إنَّ الجميعَ ممن اشتركوا في العداء للإسلام ببث الشبهات ووضع الافتراءات أرادوا تحقيقاً لأمور تخدم مصالحهم أو تحقق أهدافهم وندرجها بما يلي:

* العداء للإسلام، وذلك بوضعه في شكل من أشكال الخطر العام على المجتمعات وأنه مُقيدٌ للحريات وذو جمودٍ في التعامل مع الغير، ورافض للانخراط تحت المنظومة الديمقراطية الحديثة.

* تمرير ونشر الصورة غير الصحيحة عن الإسلام، وإيجاد صورة مغلوطة للنظرة العالمية والمجتمع الدولي عنه، وبالتالي الإيهام بان الإسلام ليس كفؤاً أو نظيراً للمجتمعات الراهنة مما يوجب إبقاءه تحت الوصاية والتبعية.

* الحد من انتشاره خارج المجتمعات المسلمة، وذلك بإيجاد الصورة السلبية المفبركة وَرَبطِهِ بالعنف والتعدي على الحقوق الإنسانية والقيم المجتمعية.

* إضعاف المسلمين والنيل من هويتهم وشخصيتهم، وتشكيكهم بدينهم، وبالتالي تَقَبُّل بعض الأفراد الانخراط في السلوكيات والاعتقادات المخالفة للإسلام.

* تأييد معتقدهم والذي يَفتقِر للقيم الخلاقة التي يمثلها الإسلام ويدعو إليها.

* خوفُهم من رجوع الإسلام لسابق عهده في صدارة الأمم، وذلك بما جمعَ من مكونات البقاء والاستمرارية من الأصول والقيم الثابتة، فأرادوا صراعاً مستمراً داخل البلاد الإسلامية ليبقوا منشغلين في أنفسهم، وأرادوا صراعاً لهم مع المجتمعات والمؤسسات الدولية في محاولات الخروج من التُهم الملقاة عليهم فينشغلون بذلك مع غيرهم، وهذا كله إشغالٌ وتشتيتٌ عن توحيد الأفكار والجهود للرقي بالمجتمع الإسلامي والوصول للصدارة وأخذ المركز الطبيعي له.

***

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥].

قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: ٨].

ذكرنا هنا لَفْظَ أَعداءِه لأن المعارِضَ للحق المعادي له عدوٌ لنفسه وعدوٌ للحق، فالإسلام شرعُ الله ودين العالمين، فمن تكبر عن الدخول فيه جحوداً وإنكاراً فقد عادى نفسه وأوردها الضلال، ومع جمَعَ مع ذلك العداء فقد زاد إلى ضلاله فِعْلَ العداء.

والإسلام لم يُكره أحداً عليه وهذا من كمال العدل وتمام الاختبار، وإنه أعلنَ عن نفسه وبَيَّن منهجه بمن ارتضاهم الله من الدعاة والمرسلين ومن حَمَل راية التبليغ إلى يوم الدين وهذا كان حُجةً على الجميع.

وإن المستَحْضَر من بابنا هذا أنَّ هناكَ من نَصَبَ العداءَ للإسلام ولم يقتصر في أمره على عدم القبول، بل أراد من قاعدةِ عدائه أَيَّ طريقٍ أو أُسلوبٍ يَنفُذُ فيه إلى الإسلام ليهدم جدرانه أو يزعزع أركانه وذلك ليحقق مراده وهو الطعن في الدين أو إيقافه، وهذا والله لضربٌ من جنون، وجهلٌ عظيم، فالإسلام أمرُ اللهِ ودينُهْ، وقد تعهدَ سبحانهُ بحفظه، فلا يُمسُ تبديلاً ولا تعديلاً ولا يذهب أَمره، وان كان في عقول البعض تشويش أو في سلوك آخرينَ خلل، فهذا على أنفسهم ومن أنفسهم، وهو ليس في الدين أو مِنَ الدين، ولا سبيلَ يوماً للظالمين على الإسلام، فإنَّ ما نراه من شمس الإسلام لا يغطيها إغلاق العيون، وبحرُ علومهِ وأحكامه لن يصيبها بللُ من غيوم افتراءاتهم وتكرار شبهاتهم مهما كادوا أو بالباطل تمادوا، فانَّ هذا هوَ الإسلام دين البشرية وهو الصراط المستقيم، والعلوُ والتمكين، والحق المبين، يدعوا لأمر الله

بالتوحيد والعبادة، ويوجِد الرقيَ والسعادة، ينظم الحياة وفيه النجاة، ومن لَزمهُ للحق عَرَفْ، ومن تَركهُ تاهَ وانحرف، فسبحانَ الله لو علم فيهم خيراً لأَسمعهم.

ومن صور عدائهم الحديث في أشرس أساليبه بعد أن أفلست جهودهم في اقتلاعه بحملاتهم القديمة ومحاولاتهم العديدة على مر العصور، فوجدوا من فكر الشياطين وسبيل المنافقين أنَّ من لم تقدر عليه فأَضعفه وأَلغي فيه، ثم حاول مجدداً لتقضي عليه، فلمعت عندهم فِكرةٌ ظالمةٌ مظلمة، وهي الإسلام المستحدث أو الحديثُ بقولهم، وهوَ إيجادُ وتهيئةُ إسلامٍ يوافقُ أَمرهم، ويدور في فلكهم، مطواع لأمرهم، يكونُ في الخارج اسماً وشكلاً، وفي مضمونه متوافقٌ معهم، بمعنى، أن يكونَ عندهم تابعٌ وخادمٌ جديدٌ لأهدافهم ولكن بحُلةٍ إسلامية، فتعالى الحق عما يصفون، وسَلَّم الله الإسلام والمسلمين مما يمكرون، فما هم بما هُم عليه إلا الأَرذلون وما العزةُ إلا لله وللمسلمين .

ونذكرُ كنقاطٍ كيف يريدون الإسلام أن يكون بما يناسبهم، و إن كان هذا من خبطِ أفكارهم وسفاهةِ أحلامهم وحقد أسلافهم، لكنَّنا نذكره هنا لنعي ويعي من كان له قلبٌ سليم ماذا يخططون، وكيف يمكرون، فنعرف ما يحيط بنا، ولنفهم من غرائب المناهج والأطروحات للحداثيين، والتغريبيين، ومن سموا أنفسهم العقلانيين، والنصارى، ومن هوَ على شاكلتهم من أعداء الدين كيف يفكرون فإنهم :

* يريدونَ إسلاماً ذو طابعٍ شخصي منعزل، قاصرٍ على العبادة الفردية وبعيد عن التأثير على الآخرين.

* لا يريدون إسلاماً ذو صبغةٍ ودعوةٍ عالمية بل إسلاماً محصوراً في دور العبادة.

* يريدون إسلاماً يخلو من مفاهيم الجهاد والارتباط العقدي بين الإسلام والقتال المشروع.

* يريدون فهماً جديداً للتفسير والتناول القرآني والكلام النبوي والعلوم الإسلامية بما يتناسب مع منظورهم المادي والعقلي المتوافقين معه من نواحي قيمهم ونظام حياتهم الخاص.

* يريدون إسلاماً غيرَ مقيدٍ لحُريةِ الفرد، فسقفُ الحرية مفتوحٌ عندهم وأمرهم قائمٌ على التبادل النفعي وليس الشرعي، ودور الأخلاق ذائبٌ في حال الموافقة بين الأفراد فلا ضوابط شرعية محكمة أو موافقة للفطرة معتبرة، فالتراضي والرغبة هي المقياس للتلبية. ومن أمثلة ذلك الجلية، مطالبتهم بحرية المرأة بشكلٍ يخرجها عن حياءها، وحرية التقارب الشاذ بين الأفراد، وغير ذلك مما تعافه النفس الزكية.

* يريدون إسلاماً يخضعُ للعقل، فيترسب على ذلك في الثقافة الإسلامية وتعاطي أفكار الأفراد أنَّ الإسلام قابلٌ للتأويل، والتأهيل، والتعديل، بما يتوافق مع القناعة العقلية أو التجربة المادية، وهذا خروجٌ سافر على الإيمان بالغيب وقداسة التنزيل، وفيه تجرأ على الثوابت، وتقديمٌ للعقل على النقل، ويصاحب تلك الإرادة الضالة عند نفاذها تَحكُّمِ الناقصِ بالكمال المطلق وتغييب علو المشرع، وبذلك المراد سيتمُ تمرير الأحكام والشرائع على العقل فما وافقه فهو مقبول، وما لم يتوافق معه فلا يُعمل به، أو يُعَدَلُ ويُؤول بما يتناسب مع الفهم، وهنا غاب التشريع الرباني ودخل محله الفهم الإنساني، وان العقلَ هنا إضافةً إلى نقص علمه بكونهِ محصوراً في إدراكهِ بما يدخلُ عليه من جانب حواسه فانه لا يصلُحُ مطلقاً للحُكمِ على الثوابت الشرعية فتشريع الخالق وأَحكامه أعلى من أن يمسها أو يعلو عليها مخلوق.

* يريدون تجديد الخطاب الديني، وما هذا المصطلح الجديد إلا تمريرٌ لمحاولة تمييع المنهج الإسلامي، وأَنهُ قابلٌ للمشاركة مع غيره من الأديان بصورةٍ مقبولةً تُرضي الجميع، فكيف منا أن نتنازل عن ثوابتنا لإرضاء من لم يؤمن بنا وما عندنا أصلاً، وكيف نقبل التجديد وهو في بعض صُورهِ تخاذلٌ وتبعيةٌ لإملاءات الغير. فالإسلام دين الله وشرعه المحكم فأي تجديدٍ يريدون، فإذا كان المرادُ لمن يُطالب بالتجديد تجديداً من باب تنشيط الدعوة أو طرح الفكرة ضمن الأصول الشرعية والثوابت الإسلامية فلا بأس، لكنهم هنا يريدون تجديداً للفهم عن الأصل بما يحيد عن مضمون ومرادِ الأصل،

وهذا المطلوب فيه سماحٌ وتجرأٌ على رسمٍ جديد للمنظور الديني لدى الشعوب بما يوافق الغير، ممن ليسوا من أهله.

* يريدون إسلاماً روحياً تعبدياً صوفياً ليس له شأن بالسياسة والعموم في المسؤولية والتوجيه، فيصبح بذلك إسلاماً داخلَ غرفةٍ مغلقة، ينتشي به المرء لنفسه ولا يعنيه غيره، وهذه طريقةٌ خبيثةٌ في تفريق الأمة وتعاضدها وخيريتها لغيرها.

* يريدون إسلاماً متناغماً مع الحضارة الغربية أو ذائباً فيها، سائراً في فلكها، فارغاً من مضمونه الذي يتناقض مع اتجاههم من ليبرالية أو علمانية أو ما شابه ذلك من مستحدثات البشر والتي قَدَّموها على الدين.

وخُلاصة الرد على مُرادهم:

أنهم لم ولن يستطيعوا إخفاء الإسلام أو النيلَ منه أو من تراثه، و إنَّ ما أرادوا من دينٍ يناسبهم ويخدم مصالحهم ويُلغي التفرد في الهوية الإسلامية والعلو في المكانة، والعالمية في الرسالةِ والمسؤولية، والخطورة المهددة لهم بنظرهم، فهذا نابعٌ من قِصَرِ نظرهم، وحجم حقدهم الذي غطى بصيرتهم، أَلم يدركوا أنَّ هذا الدين محفوظٌ بحفظ الله له، وانَّ الله سبحانه ناصرٌ دينه، وأنه سبحانه أَخبرَ عنهم وما يكيدون، وان كيدهم تدميرٌ لهم، وأليس حالهم كشيطانهم الذي يَعلُمُ الحق ولكنه أبى إلا العناد، فما لهم كيفَ يحكمون. ولكل أجلٍ كتاب وسوف يعلمون.

***

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١].

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤].

إن هذا الباب لَيَعْلَمَ القارئ ويدرك أَنَّ بناءَ الإسلام العظيم ودينه القويم يتَعرَض لهجمات شرسة وحروب ممنهجة، يُقصدُ منها النيل منه، وهَدْمُ بناءه، وزعزعةُ أركانه، ومن تلك الأدوات الغير مشروعة معاول الهدم الداخلية، والتي كانت أُسلوباً لتحقيق تلك الغايةِ غير النبيلة و التي هيَ امتدادٌ لخيوط الشر التي تريد أن تنال من الإسلام، وهذه الدُمى المستأجرة أو المغيبة عن الحق، والتي تحمل عقلاً وفكراً مناوئاً للإسلام في باطنها ولكنها بجسدٍ وهيئةٍ خارجيةٍ أشبهُ بأهل الإسلام ولسانهم، فهم أقرب ما يكونوا لحال المنافقين وتستطيع أن تُصنف بعضهم كمغفلين، أهدوا عقولهم لمن أراد سوءاً بالإسلام والمسلمين، وباعوا أنفسهم بثمن بخس فلا هم كَسبوا الدنيا بحق، ولا هم كانوا من أهل الدين، وسنأتي لسرد بعضٍ من أهدافهم وأعمالٍ يقوموا عليها لتحقيق مآربهم وكيف صدهم للناس عن الإسلام وهدمُهم للدين.

وصدق الرب العظيم إذ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ويَجدرُ العلم والتيقن، إنَّ كل أفعالهم حتى همساتهم لا تخفى على الله، وانه رادٌ كيدهم في نحرهم، وانه سبحانه قد حفظ هذا الدين وجعل له التمكين، وان أهلَ العلمِ ومن كان للإسلام وللحق متبعين ليعلمون أمرهم ويدفعون شرورهم، ويقفون لهم ولما من الباطل يُلقون، ويطفئون ما يحاولوا أن يشعلون، وقد عروهم من غطائهم وبينوا للناس حالهم، فهم العدو فالحذرُ منهم الحذر.

وتالياً ما أشرنا إِليه من أمرهم وما يكيدون:

* الطعن في ثوابت وأصول الدين والتشكيك في مقدراته والنيل من رجالاته وعلماءه.

* زرع فكرة الاجتهاد العقلي في الحكم على النصوص الإسلامية، وأنها قابلةٌ للتأويل وفق مفهوم الحداثة، وان ذلك من باب مجاراة التقدم والتنوير للوصول للنهضة المزعومة وان كان على حساب تغيير مفهوم النص الأصلي ومضمونه.

* التشويش على المسلمين ووضعهم في دائرة الحيرة، والتقليل من قيمة الدين لديهم كمنهج حياة.

* تقييد فعالية التبليغ والبيان للناس ومحاصرته.

* جعل اعتماد الاعتقاد الديني لدى الناس بأنه محصورٌ بأداء الشعائر التعبدية، وان الإسلام جزءٌ لا كل وفرعٌ لا أصل من ناحية التناول والتداول.

* التدريج في تغيير أساليب التعليم العامة، والانتقائية في المفردات تحضيراً لإيجاد جيل فاقد للهوية الإسلامية.

* التركيز الانتقائي على بعض الأحداث السلبية واختلاق ربطها بشكل مباشر أو غير مباشر بالإسلام.

* بيان جماليات وكفاءة الأنظمة المستوردة غير الشرعية والتركيز على طرحها كبديل، مع طرح فكرة متزامنة عن ضعف قابلية الإسلام للتطور مع الأحداث وملائمة المستجدات، وان كان ذلك أحياناً بصورة خَفية أو جُزئية خوفاً من التصادم مع ثقافة الجمهور.

* ترسيخ الانطباع العام بضعف الشخصية الإسلامية وتدني مستواها الثقافي، والتركيز بأسلوب سلبي مقصود على بعض الجوانب المتعلقة بها من حيث ميولها الإنسانية والطبيعية بشكل يعطيها صورة طابع الشهوانية وغلبة الرغبة، مع مرافقة كل

ذلك بتضخيم النظرة إلى الطرف الآخر غربياً كان أو غير ذلك ومحاولة نسبته إلى المثالية والريادة في التقدم والعقلانية.

* طمس العقول ذات المرجعية والتوجه الإسلامي، ووضع القيود على نشر التاريخ والثقافة الإسلامية، مع القيام بحرارة الاحتضان للأفكار المغتربة والمفكرين والكُتاب أصحاب الفكر الليبرالي أو الحداثي.

* إنشاء مراكز وأماكن تعليم بإشرافهم وفق منهجهم لإيجاد النشء الحامل لأفكارهم والناشر لها بعد حين.

* تجنيد الإِعلام وبعض الأبواق الإِعلامية لتمرير الأفكار المطلوبة، أو الغايات المندوبة، أو حتى لتهيئة الرأي العام لتقبلها.

* العمل على إيجاد بعض القيم المغايرة للقيم الإسلامية، واستحسان تداولها بين الناس مما تكون ذراعاً مساعداً لتمرير بعض الأخلاقيات والسلوكيات المخالفة للتعاليم الإسلامية، والتي تستخدم حين الطلب والتوجيه، مثل زراعة توجه أن لا يتقبل المجتمع من بعض فئاته الأفراد الذين يعطون طابع الشكل الإسلامي الملتزم، وبالتالي إحداث إيحاء في الفكر العام للمجتمع بضعف الفرص للانخراط في الحياة المجتمعية لمثل هؤلاء.

* إضعاف الرابط النفسي والقيمي والسلوكي مع الرعيل والقرون الأُوَل وأَعلام الإسلام، والتي كان الإسلام فيها شمس ساطعة وكانوا فيها نجوماً يُهتدى بهم للحق.

* تفعيل المشاحنة بين أهل العلم ومن يَتكسبُ منه، بإيقاد نار الخلاف والمتشابهات وذلك بأسلوب متحيز لا يرادُ به إحقاق الحق وتمكين الوحدة، بل عكس ذلك تماماً بإيجاد المفارقة وإعطاء الصورة للشاهد بوجود التناقض والضعف العام....

وهذا وغيره فيضٌ من غيض في الحرب على الإسلام والمسلمين، يشتدُ حيناً، ويركز على طرف حيناً، وهؤلاء المعاول الذين لبسوا ثوب الإسلام ظاهراً وقلوبهم خاوية مسمومة، فإنما علا أمرهم وسطعَ نجمهم الزائف لضعفٍ أصاب المسلمين، وبما يُقدم

لهم من إمكانيات ونفقات من خارج المنظومة الإسلامية، وللأسف بإغفال بعض أصحاب القرار. ولكن وعد الله واقع بأن يكون النصر للإِسلام والمسلمين وأنَّ هؤلاء المضلين ومن كان معهم فعند إشراق عز الإسلام كما كان وبأمر الله سوف يكون، فلا مكان لهم ولا صوت، ولكن نبأٍ مستقر وسوف يعلمون.

***

الباب الخامس والسبعون لماذا يحيد أكثرُ الناس عن الحق

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال تعالى: ﴿الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرعد:١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

قال تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾ [الفرقان: ٥٠].

إن هناك لنظرات لحال العالَمْ على اختلاف تباينه في تعامله مع الدين وهيَ ظاهرةٌ للجميع، وسوف نأخذ منها النظرتان الشاملتان لذلك، وهو ما يهمنا في أمرنا ويَصْلُحُ لبابنا، وهو لنا ولغيرنا كافٍ، فيُعلمُ منه المراد ويستبين منه المطلوب، أما الناظرُ الأول: فمن يَنظرُ بعينِ الشريعة وموافقة أمر الوحي، وذلك هو من ينظر بإيمان قلبه ونقاء فطرته ويحتكم لشرعه ويضع نصب عينيه انه يدين لنفسه بانتماءٍ وميل إلى تعاليم الخالق ومنهج الحق، فيكون نظره ومقياسُه مبنياً على ذلك، وموافقاً له مُعتبراً عنده اعتباراً أصيلا لا غنى له عنه، وناظرنا الأول وهو من كان الإسلام له ديناً ومحمد ﷺ نبياً ورسولاً فيقيس كما قلنا كل أَمره على مقياس إيماني أصيل وشرعٍ حكيم، وإذا تعرض لأمر فنفسهُ تستعرض خياراتها في درجات الإقبال وحالات التناول ويكونُ عنده المقدم والمرجعية الأولى هيَ الشريعة، فما وافق ذلك من الأحكام والتوجيه تناوله وتداوله وأخذَ به، وأما ما خالفَ ذلك تركهُ وحادَ عنه، فيبقى في تلك الدائرة من الإحاطة وحسن الامتثال وإعمال العبادة بالأخذ أو الترك.

وَيُجدَرُ أن يُعلم، أَنَّ مما كان من كمال العطاء وسعة الرحمة من الله سبحانه للإنسان وهو فيما ترك لهُ بحريةِ العمل وإعمال الجهد فيه، بأن يَتَحَصَّلُ الإنسان منهُ على قدر مجهوده وسعة بذله بما قدره الله له، مع التأكيد على أنَّ الشارعَ الحكيم لم يتركه على الغارب بل اشترط فيه أَلّا يوجه إلّا إلى خير.

ومثالاً ليُفهَمَ القصدُ على كل ما ذُكر، فعندَ أي أمرٍ مادي يُتداول بين الناس فلا بد للأحكام الشرعية أن تسري عليه وأصلهُ لا بد أن يكون صالحاً، وعلاقة التبادل لا بد لها أن تكونَ موافقةً للشرع أيضاً، وإنفاقهُ لا بد أن يكون على وجهٍ شرعي كذلك، وأن يُرى فيه ما عليه من حقوق فيما بيَّن الشرع، وهذا مثالٌ على الامتثال. أما ما قلنا فيه بحرية الإنسان وإعمال جهده، فقد اكتمل العطاء في بعض النواحي العلمية التي قُدرت للإنسان، فما كان منه من زيادةٍ في المجهود فيه فسيلاقي بذلك زيادةً في التحصيل والمنفعة منه، فأنتَ يحق لك في أبحاثكَ العلمية واكتشافاتك فيما خلق الله سبحانه أن تُعْمِلَ عَقلَكْ، وتبذُلَ وسعك، ولكن لا بد لك وهو مما فُرض عليك أَلّا توجههُ إلّا في طريق الخير الموافق للشرع وهذا هو المقصود.

أما ناظرنا الثاني، وهو محل دراستنا وعليه يقوم تساؤلنا فحالهُ وحالُ من يعتقد بأمره ويرى بفكره فآخذٌ في الزيادة وهم للأسف الأكثرية، فلماذا هذا الحياد عن الحق والميل للباطل ويجدر أن يُعلم من باب الإنصاف والعدل، أنهم ليسوا جميعاً على مستوى واحد في ذلك لكنهم مشتركون في الميل عن الحق في أمرهم، والفرق البائن بينهم أنَّ منهم من يجنح عن الصواب لنزعةٍ أو شهوةٍ عابرة أو شبهة زائلة لكن لا يلبثْ أن يعودَ إلى حظيرة الحق بعد أن يُدركَ بما ملكَ من رصيد إيماني انه على خطأ فيرجع في أمره ويصلح من شأنه، ومن رحمات الله سبحانه في ذلك أنَّ بابَ التوبة مفتوح فلا يغلق حتى يأمر الله بخلاف ذلك ويكون حينها قيامُ الساعة أو موت الإنسان.

ولكن هناكَ من لَبِسَ لباسَ الباطل فأبى أن ينزعه فذلك هو التائه الذي اتخذَ طريقَ الضلال مسلكاً دائماً وإنما كان ذلك قائماً عنده لأنه عندما تتعرض نفسه لأي أمر ذي بال فتكون خيارات تناوله أو تداوله لذلك الأمر محصورةً على عقيدته الخاصة وتحكيم هواه، فكانت عنده الأهواءُ، والمصلحة، والمنفعة المتحصلة بأشكالها المختلفة والعائدة لطبيعة الأمر من التحصيل المادي أو تحقيق الرغبة هو الأساسُ في القياس، وبذلك القياس أصبح الهوى هو البديلُ عن الدينِ عِنْدَهُ، فاتخذ بذلكَ الهوى إِلهاً، والمنفعةُ

قياساً، وكل هذا إنما هو لتغييب الدين الحق والحيادُ عن الإسلام، وكل من هم على هذا الطريق وهذه الرؤية، إنما يرسمون لأنفسهم ما يناسبها بأيديهم، ويعتنقون ذلك المرسوم كبديل يرضي غرائزهم ويخفف حيرتهم لما يصيبهم من تخبط في حياتهم، والمُشاهَدُ المحسوس في واقع العالَمَ أَنَهُم الأكثرية وهذا أمرٌ ليحزن من كان قلبه تقياً وعقله نقياً، وما تلك الكثرة لدليلٌ بأَنَهُم على الحق بل دليلٌ على حرية الاختيار، وأَدّلُ على أنَّ الإنسانَ إذا غاب عنه الإيمان فَسيُقَدِّمُ هوى نفسهِ على أمر ربه، وهو بذاك قد اختار الزائلَ على حساب الدائم، ورضيَ بسعادةٍ يعتقدُ انه يُحصلها في الدنيا على قدر إمكانياته وتركَ سعادةً في الآخرة على قدر إمكانيات وعطاءِ خالقه، فقياس كل مَن أبى الحق قياسٌ ناقصٌ باطل، وفيه جحودٌ واضح وتغليبٌ خاسر، وقد كان من الأولى بهم أن يدخلوا دائرةَ الإيمان ويطيعوا أمر الرحمن ويسلموا له أمرهم فهو موجدهم وأعلم بهم من أنفسهم، فما الدين إِلا خيرٌ لهم في الدنيا وسعادة، وفي الآخرة عظيمُ الزيادة، ومَا تلك الصورةِ من السعادة بزعمهم إلا زائلة، فإن كانوا على الحق فليحافظوا عليها ولينقلوها معهم بعد موتهم، ولكن هيهات فإلى الله مَرَدُهُمْ وعنده حسابهم وحينها لا ينفع الندم بل عذابٌ أليم وتصليةُ جحيم.

***

الإسلاموفوبيا هي كلمةٌ أُستحدثت منذ سنوات قليلة، ويَقْصِدُ بها من اختلقها أنها دلالةٌ على ظاهرةِ الخوف والكراهية الموجهة ضد الإسلام والمسلمين، وإنما أريدَ باستخدام تلكم الكذبة هو توحيدُ المفهوم للكراهية والحض عليها ضد الإسلام بكلمةٍ يستساغ نقلها، ولوضع مرادهم ومقاصدهم العدائية تحت مُسمى واحد ينطلقون منه في بث أكاذيبهم وافتراءاتهم على الإسلام، وان الممعن بحق والمستنير بعقله ضمن إطار العدل والإنصاف ليعرفُ أَنها كلمةٌ أُريدَ منها تلفيق تهمةٍ، وإيجادُ صِفةٍ ملازمةٍ للإسلام بلا وجه حق ولا واقعية، ولنخض قليلاً في تلك الحالة النفسية والانطباع العقلي الذي جعل من بعض غير المسلمين يتبنون هذه الفكرة ويعتقدون بصحة هذه التهمة.

بدايةً لا يَخفى على عاقل أو مبتدئ بالتاريخ أو حتى طالبُ علم في أي نوع من العلوم، أن الإسلام حينما كان في أوج ازدهاره، وعلو قدره، وصدارةِ مكانه بين الحضارات، كانَ العالمُ الغربي -الذي يروج البعض منه لتلك الظاهرة في وقتنا الحاضر- حينها في عصر الظلمات، وفي أسوأ الدرجات الإنسانية والاجتماعية، فضلاً عن القصور في النواحي العلمية والثقافية وغيرها، ولمّا كانت السلطة بيد الحكم الكنسي ورجال الدين وكانت على غير هدى ولا قيادةٍ ذات كفاءة، فترتب على ذلك نشر الجهل وضعف المجتمع فقامت الشعوب بناءً على أثر هذا الاضطهاد والتحكم بالمقدرات بنبذ ذلك الواقع وتلكم الحال والثورة عليها، وجُعلت السلطة والحكم بيد الشعب، وقامت بعدها الثورةُ الصناعية والثقافية -والتي جزء كبيرٌ من أُسسها العلمية والمعرفية أُستُمدَت من الحضارة الإسلامية وبلاد الأندلس وهذا لا ينكره منصف- وبقي الأمر لتلك الدول بتوالي التقدم وازدهار المدنية حتى وقتنا الراهن، فكان مما حملته أفكارهم ونظرياتهم بمفهوم القائمين على تلكم الثورة الصناعية والثقافية،ومُنَظريهم، ورواسب تجربتهم، أنَّ الدين والتبعية للسُلطة الدينية هوَ السببُ الأقوى للرجوع في مقياس التقدم والتطور الحضاري بكافة أشكاله وحاجزاً لحرية الأفراد والمجتمع، ولا زالت

تلك المفاهيم نراها في طيات أمورهم، وقاعدةً فعالةً لأفكارهم واتجاهاتهم، فابتكروا المنهج الليبرالي والعلماني والعديد من النظريات التي اعتقدوا أنها الأنسب والأفضل، و التي أكثرها يتبنى فصل السلطة الدينية عن التحكم بالسلطات الأخرى أو التحكم العام بالحياة المجتمعية، ومن هنا بدأت المشكلة فإن القاعدة الظنية التي يتمركز عليها أصحاب القرار والنظريات وفهم الشعوب أَنَّ ما يكون فيه دين فهو عودةٌ إلى الماضي المظلم، فكانت هنا الأرضُ خَصبةً والمناخ الفكري ملائماً لاستغلال تلك النقطة، وربط مفهوم الخوف من الماضي وتجاربه مع الإسلام، وان الإسلام لا يقبل ولا يتكامل مع المجتمعات وانه لا يقبل الإصلاح ولا يندمج تحت منظومة القيم الحديثة.

وتمادى التعدي على الإسلام، فبدلاً من رد الجميل وحفظه عن تلك القيم الخلاقة والنُظم الفعالة والعلوم التي أُخذت من بلاد الإسلام، قاموا بالتعدي عليها وفرض الاستعمار(الاستخراب)، والتبعية، وسرقة المدخرات، وهدم الصروح العلمية، وبث التفرقة والنعرات القومية بين تلك الدول، وأوجدوا حالةً من الفوضى والتقسيم والجهل المتعمد فيها، إضافةً إلى ما أحدثوه من إزهاق للأرواح، وتغييبٍ للمنظومة الاجتماعية والرقي الإنساني، وزراعتهم للتبعية السياسية والاقتصادية المقيتة، والتي لا يزال العالم الإسلامي يعاني منها حتى الآن، وأضافوا عملاً إجرامياً قلَ نظيره بحق الأمة الإسلامية والعربية كاملةً بأن زرعوا كياناً مُغْتَصِباً وهَجَّروا شعباً بأكمله وذلك لإتمام عملية التفريق بين الجسد الإسلامي الواحد. ومع أنهم بمرور السنوات وإقرارهم باستقلال البلاد الإسلامية من حالةِ الاستعمار -والأصح القول استخراباً وليس استعماراً- وذلك شكلاً، مع بقاء التبعية والتحكم بالمقدرات والقرارات السيادية وجدوا وأيقنت أَنفسهم أنَّ الحالة هنا تختلف عن تجربتهم مع السلطة الدينية التي عرفوها، فهذا الدين وهو الإسلام يحملُ رسالةَ الحياةِ في نفسه، وهو نظامٌ كامل متوافق، وذو مرونة وثبات في نفس الوقت، وان ارتباط المسلمين به ارتباطُ محبة وكمنهج حياة، وهو دين متجدد ضمن أصول وقيم ثابتة، وذو سمة توسعية لتقبله من الآخر بما كمل

في صفاته من جمال وكمال القيم، فكان بنظرهم القائم على رفض الإسلام واعتقاداً منهم بناءاً على تبنيهم فكرةَ صراع الحضارات بما احتوته نفوسهم من تلقينات وإرثِ أسلافهم ورواسب تصادمهم مع الإسلام أنَّ هذا الدين سَيشكِلُ عليهم خطراً إذا ما رجع إلى أصل عهده وعلو قوته، فأوجدوا تلك الحالة من الخوف المُصْطَنَعْ من الإسلام، وكانت لهم اليد الطولى في ذلك بأن استغلوا كل حالةٍ، واتخذوا كل طريق، وأي أسلوب يخدمُ مسعاهم ويحققُ أهدافهم وراعوا خلالِ ذلك تجهيز الحالة النفسية لمجتمعهم المحلي والمجتمع الدولي بأن نشروا الصورة السلبية والافتراءات، فجيشوا وسائل الإعلام، والأبواق المأجورة، ومن والاهم ممن كان يحمل أفكارهم ويتبنى أفعالهم مع ظهوره للعيان بصبغة أو شكل إسلامي، بل وكل من حملَ في نفسه عداءً للإسلام، فاشتركوا جميعاً في إيديولوجية مقيتة لإيجاد تلك الصورة الوهمية، والتي أخذت حيزاً في عقول البعض وعملت صدى في المجتمعات الدولية وأفراده، فكان ذلك الانطباع الملفق المبني على عنصر الخوف هو المحرك لقبول الأفعال والممارسات التي يقوم بها أصحاب القرار، ومبرِراً لتجاوزات كثيرة مورست على العالم الإسلامي، وكان مما قاموا باستغلاله والتركيز عليه لإيجاد تلك الصورة المزعومة، هو استغلالهم لبعض ردود الأفعال والممارسات لأفراد، والتي تحمل صفة العنف والكراهية لما تعرضوا له من اضطهاد وأضرار معنوية ونفسية غايةً في الأذى، من جراء وقوعهم تحت تأثير الممارسات والسياسات التي مورست بحقهم، ونرى ذلك كثيراً في المجتمعات التي تعرضت للغزو والتشريد وانتهاك الحقوق وغياب المعاملة الآدمية بأدنى صورها، فتلك الردود إنما كانت نتيجةً لزيادة الضغط والظلم الواقع عليهم، والتي قاموا بإلصاقها بالإسلام فكان من باب أولى وهو العدل رفعُ الظلم والقهر عمن ارتكبوه بحقهم، وتوضيح معتقد الإسلام الذي يتبناه أهله وينشرونه، بأنه رافض للتعدي وإباحة الدماء وهدر الكرامة، وانه دين عدل وإِصلاح، وان الإسلام راعي حقوق الإنسان مهما كان معتقده، وحفظ له نفسه وإنسانيته وأكرمه وحفظ له حقوقه بأرقى

هيئة وأبدع قيم، وذلك مقررٌ بنصوص ومنهج عام أُقرَ وعُمِلَ بهِ من أتباعه قبل قرون، حينما كان من يَزعُمُ الأكاذيب عليه الآن في ذلك الوقت في ظلمات بعضها فوق بعض.

والرائي هنا بحق، يعلم أنهم ينشرون ما يسيء للإسلام ويكتمون ما يدعوا إليه من تعاليم وما هي حقيقته، فهم يجمعون بذلك أكثرَ جوانب الكذب والبهتان، ولا يغرنك لمعان حضاراتهم المادية ونورها، فقلوبهم سوداء بعكس بريقها.

وخلاصة الأمر: إنَّ رفضهم للإسلام ومحاربتهم له هو الدافع وراء كل ذلك وان إيجاد ذلك التشويش هو من باب إغلاق المد الدعوي وتمدد الدين، ووضع الحاجز النفسي المانع للقبول بالشريعة الإسلامية، والتي نأخذها نحنُ المسلمين كمنهج حياة، أُريدَ لنا به الرقي، والعلو بالإنسانية، والامتثال بالقيم الخلاقة، وطبعاً أولها تحقيق الغاية. ويكفي لنا ودليلاً عندنا بأننا على الجانب الصواب وملازمين للحق، أنَّ هذا الدين إذا تُركَ امتد وإذا عوديَ اشتد ولا اندثار لأمر الإسلام، لأن ذلك وعد الله ولن يصيب الإسلام شيءٌ في أصله مهما مورست بحقه الاعتداءات ولُفِقَت عليه الشبهات فهو دين الله وقد تعهد الله بحفظه وحفظ أصله فسبحان ربنا إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

***

الباب السابع والسبعون الإسلام وكِذبةُ ربطهِ بالإرهاب

إن الإرهاب مصطلح عائم لم يتم الاتفاق على معناه بين المجتمعات العالمية والهيئات الدولية، ولم يكن له تحديدٌ ثابتٌ لأهدافه أو طريقة عمله، ولكن تم استيعاب مفهومه وتعريفه، بأنه الأسلوب المؤدي لأعمال العنف التي تلحق الضرر بالآخرين ويوجدُ حالةً عامةً من الخوف.

وبالنسبة لمن يربط غيره بالإرهاب فالنظرة ذات شقين، شقٌ بنظرةِ أصحاب القرار ومن يعتقدون أنَّ لهم الحق بإقران الإرهاب بطرف معين ونسبته إليه، وشق آخر وهو أفراد تلك المجتمعات والذين يأخذون المفهوم عن الشق الأول منقولاً عن إعلامهم وسياساتهم التوجيهية والإخبارية ويستوعبونها بذلك الشعور النفسي المصاحَبْ بالكراهية للوقوع في الخوف المفرط والتعرض للأذى والعنف.

إن المُتَتَبِع والدارس لسيرة الإرهاب وطريقةِ التعامل الجديد مع مفهومه، يجده أصبحَ مَطيةً وطريقةً استخدمت من قبل أَصحاب القوى، وذلك لإلصاق الصورة السلبية والعداء المتوقع من الطرف الآخر ورفض احتوائه من الغير، وبالتالي استخدام تلكم الصورة لقبول المجتمع الدولي للسياسات المتبعة والأعمال التي مورست وسوف تمارس بحق ذلك الطرف، وفي ذات الوقت إيجاد حالة الرضا والإقرار من الأفراد لما له ارتباط بمصيرهم.

وان موضوعنا هنا هو الإسلام والتلفيق كذباً بعلاقته بالإرهاب، ولفهم تلك العلاقات من أين أتت ولما اُخْتُلِقَت وحقيقةُ تلكم الكذبة، سنأخذ وجهةَ نظر كل طرف ومفهومه وعلاقته بالأمر، وما هو رأي واعتقاد الإسلام بالإرهاب كمفهوم عُرِّفَ بالتعدي والعنف، وما وجهةُ نظر وماذا تَقَصَّدَ من قام بإسقاط تلك التهمة على الإسلام وحاول ربطها كصفة تلازم بعض من كانوا إتباع ذلك الدين.

أما الإسلام وهو آخر الرسالات السماوية، والتي تشترك جميعها بأصل واحد ومفهوم واحد وهو الرقي بالإنسانية واستخلاف البشر لأداء الدور المقصود منهم وهو

عبادة الله وحده، فإنَّ الإسلام كان واضحاً جلياً في منهجه وتشريعاته وفي تناول أحكامه، فهو ثابت الأصول ذو مرونة وكمالٍ في تناول كآفة مناحي الحياة التي تخصُ أتباعهُ خاصة والبشرية عامة، بحيث يضمن لهم أسمى النواحي الإنسانية، وأرقى التعاملات الاجتماعية، وهذا أمرٌ ملموسٌ ومعروفٌ لمن نظر بعين الحق والإنصاف، فالإسلام احترم الإنسانية بعمومها، وراعى حُرمةَ النفس، وجعلَ لها قدراً عالياً ، وحفظها من التعرض لأي أمر قد يصيبها بسوء، بل وكانت أحكامه الربانية رادعةً وقويةً ضد من سولت له نفسه وتعدى على تلك النفس بأي جانب يخصها نفسياً أو مادياً، وخاصةً سَلبها الحياة، فالإسلام لم يسمح ولم يجعل طريقاً للوصول إليها إلا في ما حدده الشارع الحكيم، وذلك تطبيقاً لأحكامٍ مقيدةٍ بشروط معينة تُنفذُ تحتَ إشراف ولي الأمر أو من ينيبه، وهذا مُجمعٌ عليه في العالم أجمع في قوانينهم وتشريعاتهم بالأَحكام الصارمة لمن ارتكب جرما يستحق عليه تلك العقوبة.

وإنَّ الإسلام وفي اسمه دلالةٌ على السلام كحقيقة متمثلة في منهجه وتشريعاته، فقد ذكرت الرحمةُ والسلام وما يشتق عنها من صفات الأمن والسلام بأكثر من ثلاثمائة وخمسين مرةً في القرآن الكريم، وان الصورةَ غير المثالية والموجودة عند بعض غير المسلمين إنما هي صورة مفبركة تُقُصِدَ تشويهها، وان اقتطاع المراد بالباطل من الأصل والاجتزاء في التعامل مع النصوص الإسلامية إنما كان عن سابق إصرار وتعمد، وذلك لإيجاد فهمٍ غير كامل ومنقوص عن الإسلام، وان أخذ حقيقة الإسلام عن طريق سلوك الأفراد يحمل درجةً من الخطأ، لأن الإسلام يُعْلَمُ عنهُ من خلاله ومن نَفْسِهْ فَجُزءٌ ممن ينتسبون إليه لضعف الدعوة وضعف الالتزام بالمنهج لم يكونوا على السلوك الحقيقي وعلى الطريق الأمثل للتوجيهات الشرعية التي طلبها منهم الإسلام فهم مقياس جزئي، والأَصلُ هو الرجوع للدين بفهم صحيح للوقوف على حقيقته وجمال وكمال منهجه، وهو ميسر لمن أراد ذلك.

وهناك جـزءٌ ممن ينسبون أنفسهم وأفعالهم لـلإسلام والإسلام منهم بـراء، فهؤلاء

كانوا موجةً ركبها من أراد سوءاً وتشويها بالإسلام وكانوا عوناً للشر بأن استغلوا أفعال من حملَ اسم الإسلام ولم يحمل تعاليمه ونسبوها زوراً وظُلماً بالإسلام وأهله، فكانوا بذلك الجمع والتلفيق هم ومن ارتكب الجرم في الشر سواء.

والحقيقة أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي احتوى جميعَ مناحي الحياة، وتناولها بشمول وكفاية، وراعها حق رعايتها، وإِنَّهُ ليرفض ويمنع أن تلصق به أيُ علاقةٍ بالتعدي وانتهاك حقوق الإنسانية عامة، فهو دينٌ راعى الفرد في نفسه ومع غيره، وفي دوائر مجتمعه، وفي علاقته مع غير المسلمين، وذلك كله بمثاليةٍ راقية تناسب ذلك الرُقي التي توجه إليه شريعةُ الإسلام ويريد من الجميع السمو بها وإتباعها.

أما الجانب الآخر والذي نصَّبَ نفسهُ حاكماً، ويسقط حكمه على من يشاء فإنه بذلك لم يرد أن يصوب الأوضاع، وان يجد الحل لمشكلة يعاني منها العالم أجمع، فشرُ الإرهاب (كمفهوم للتعدي ونشر الخوف) قد طال الجميع بلا استثناء، وان حالة الترقب والقلق أصبحت متعدية للفرد والمجتمع، وللقريب والبعيد، وواجبٌ على كل من بيده مفاتيح السلطة للعالم ومن ملكَ القرار أن يكونَ هو المانعُ والموجه لتقييد الإرهاب والتعدي، لكنَّ الحقيقة أصعب من ذلك والأمر أخطر وأوسع مما يستطيع المرء أن يدركه إلّا إذا أمعن بحال العالم اليوم، وعلى امتدادِ الأحداث منذ عقود ومعتقداتٍ مضت ورواسبها ما زالت باقية عندَ البعض، فالإرهاب في يومنا هذا أصبحَ صناعةً وتجارة، بل وأصبح شكلاً من التوظيف الإعلامي، وسبيلاً لفرض إستراتيجية خاصة لخدمة أهداف مدروسة، فإن المشاهد لمواقف جموع القوى سيجد الغرابة والعَجَبْ من تغيير في موقف تلك القوى مع الجماعة الواحدة بأوقات متباينة، فتارةً بنظره هي على الحرية والموالاة، وتارةَ عندهُ هي على الجانب الإرهابي والعداء، وإنما يعود ذلك لتغير الوجهة المصلحية في التعامل مع تلك الجماعة، وهناك الوجه الآخر للذي يزعم أنه يدير الحرية والديمقراطية وهو حقيقةً أصلُ البلاء، وهذا ليس ادعاءً فرضياً أو حالةً من الحنق الغير مبرر، ولكنه دراسةٌ للواقع ونظرة مستفيضة لحال الأمم،

فان من جموع القوى وبعض أصحاب القرارات السيادية قد أحدثوا أحداثاً في كثير من المجتمعات ارتفعت فيها الدرجة لمقياس غير مسبوق في انتهاك الحقوق الإنسانية والتعدي السافر، فما كان من تلك المجتمعات إلا أن تَوَلَّدَ عندها شخوصٌ ذوي أفكار عدائية لتلك البلدان التي أَحدثت فيهم ما أحدثت وإنما كان ذلك كرده فعل تلقائية للظلم والجور الذي طالهم وطال كل قيمة معتبرةٍ يعرفونها.

وان أكثر مصابٍ نراهُ حقيقةً ونشاهده عياناً بلسان الحال، لواقع في البلاد الإسلامية والمسلمين، فإن موجات الاستغلال والتبعية المفرطة وغياب الحرية والحروب المتكررة على تلك البلاد إنما قُصِدَ منها فرض الهيمنة والاستغلال لموارد تلك البلاد بل وحَمَلَ في طياتهِ أجندةً خاصة للبعض وهي استمرارٌ للحروب القديمة وامتداداً لصراع الحضارات، ولزرع فكرةٍ عالمية مفادها أنَّ الإسلام يجب أن يتطور ويندمج تحت منظومة القيم الديمقراطية وكل من يرفض ذلك فيتم إدراجه تحت اسم التطرف الديني والإرهاب.

وخلاصة القول: إن ميزان القياس عندهم هو المصلحة المُتحَصَلةِ من زج أي طرف تحت مسمى الإرهاب، وتبرير الأفعال المصاحبة لتنفيذ تلك المصلحة خوفاً من التعدي المزعوم، ومنعاً من اندماج المجتمعات وانفتاح الدعوة الإسلامية لأنهم يرفضون أن تكون مجتمعاتهم تحمل الطابع الإسلامي لكونِ ذلك يتعارضُ مع مفهومهم للحرية والحياة الاجتماعية مع مفهوم الإسلام.

والواجب والدور الحقيقي على المؤسسات الدولية، والقوى العالمية، أن تقومَ على الارتقاء بالإنسانية بعدل ومساواة وقيم خلاقه، وان لا تنحاز للجانب الأقوى وتُغَلِب المصلحة على حساب مصير الشعوب.

ونضيف أمراً لا رياءَ فيه، إنَّ الإرهاب لا دين له، وأنه تصرف وسلوك يقوم على اعتقاد خاطئ وفهم مسموم، ومن باب الإنصاف عدم استغلال تلك التصرفات على حساب الأمم وحياتهم الاجتماعية وإيجاد ذلك التقسيم الممقوت والطبقية العالمية.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧].

قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: ١١١].

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصف: ٨].

الغزو الفكري على الإسلام هو الاعتداء بالحرب الناعمة التي لا تسيل فيها الدماء بالمواجهة الجسدية، ولكن يُقتل ويشوه بها العقل والفكر، ولا تستخدم فيها الأسلحة المادية بل تستخدم الطاقات العقلية والجهود البشرية لتحصيل غنائمها، فهي لا تهاجم الجسم بل تختص بمداركه العقلية وثقافته الأساسية، فتلك الهوية الثقافية المعتدى عليها هي قوام الأفراد من حيث تناولهم للحياة ونظرتهم للأشياء وتقييمها وسلوكهم المبني عليها، فثقافتهم هي المحصول الناتج عن القدرة الفكرية والمعرفية المستمدة من واقعهم الحضاري وتاريخهم المتتابع وأصول اعتقادهم، وكل ذلك مؤسسٌ ومبنيٌ على مرجعية شرعية وفهم إيماني وارتباطٍ عقدي مستسقى من نبع الإسلام وروافده الأَصلية.

إذاً فيُفهم أَنَّ الغزو الفكري هو العمل على انحراف الأفكار والمفاهيم عما هو راسخ لدى الأفراد ومشكلاً لديهم هويتهم الثقافية ومعياراً أصيلاً لديهم في القيم والسلوك المعمول به، فتأخذ بذلك منحى مغاير وتَدخُلْ في اضطرابٍ ملحوظ يظهر عملياً على سلوك الأفراد، وحال قيمهم، ونظرتهم وفهمهم العقلي للثوابت والمتغيرات فيتم إِدراكها وفهمها على منظور جديد غير متفق مع القاعدة الأصلية أو بشكل مشوش وغير فعال، مع نقصان أو ذهاب القيمة التقديرية للثوابت الإسلامية أو متعلقات

وروافد الهوية الإسلامية، ويفهم أيضاً من كل ذلك أن المراد من معركة الفكر والغزو الثقافي هو قتلُ الهوية الإسلامية واستبدالها بهوية متوافقة مع رؤية الغازي وهذا هو احتلال العقل والفكر بالتبعية والعبودية العقلية والفكرية وبالتالي يكون المحتلْ خادماً لأهداف وأفكار غازية، وهذا هو المطلوب الأمثل لهم، وان لم يستطيعوا ذلك ولن ولم يقدروا بإذن الله، فمطمعهم هوَ ترك الهوية والثقافة الإسلامية مجروحةً ومشوهة وفي حالٍ من الصراع الداخلي بين الأصل والدخيل، وذلك لهم مكسبٌ في حساباتٍ حربهم وغنيمةٌ مرجوة، وفي ذلك فهم لم يألوا جُهداً في هجومهم على الجبهات الثقافية الإسلامية فتناولت حربهم مراحل التعليم على جميع أطوارها لإخراج نشأٍ مائل بقلبه وعقله إلى الغرب متخِذَهُم قدوة وطموحاً له، وهاجموا المجتمع بكافة الأدوات المتاحة عندهم، الإعلامية، والمؤسسية، والتعليمية، والتبشيرية، والمتعاونين من أتباع لهم من أنفسهم، وممن دُسوا علينا من بني جلدتنا ممن كان باطنه وعقله لهم وظاهره كأنه لنا وهؤلاء أشبه ما يكونوا بالمنافقين في أمرهم وحالهم، وكل هؤلاء من أدوات وشخوص تعاونوا كلٌ على قدرته ومكانه في الطعن في الأخلاق، والقيم، والمُثُل الإسلامية، وركزوا هجومهم على أحكام الإسلام وعلوية ثوابته، وأرادوا بذلك جيلاً لا يعير للأخلاق أو القيم الخلاقة ذلك الاعتبار الأصيل، وان لا تكون للثوابت والشرائع الإسلامية الدور الأساس في حركة الحياة وان تفقد تلك المكانة والقدسية المحيطة بها، وذلك ما يريدون، وبأَشَرِ منه يطمعون، فعليهم من الله ما يستحقون، فإنهم لم يكتفوا باعتداءاتهم التي أزهقت الأرواح بدءاً من حروبهم الصليبية حتى حروبهم الحديثة فقتلوا الأجساد وعاثوا في الأرض الفساد، بل يريدون إِكمال جريمتهم لأنهم خابوا في أمرهم ولم ينالوا فوزهم، فيريدون قتل الهوية والأفكار، فما هذا الحقد الدفين وما هذه الساديةُ المفرطة، ألا يتسع العالم للجميع فلماذا توريث الحقد عندهم، ولماذا هذه العدائية التي أَصبحوا فيها للشياطين أعواناً وللظلم أركاناً، أليسَ فيهم رجل رشيد فينظروا من يحاربون وماذا يحاربون، إنهم ليحاربون دين الله وأمر الله في خلقه وشرعه،

وإنهم والذي سيبعث الخلق للحساب لخاسرون وعلى فعلهم سيحاسبون، ولو كان في أمرهم جزءُ حق لما رأينا ذلك الظُلم في أمرهم والتشويه في مجتمعهم، فأفرادهم فاقدين لمعنى حياتهم ومعدوم رقي أخلاقِهم، فمعبودهم المادة، وحياتهم اللحظة، وقياسهم المنفعة فأي طريق مظلمة يسلكونها ويريدون منا أن نتبعهم، ومتى كان الأعمى وفاقد الأهلية دليلاً للطريق ومرشداً للحياة، أما علموا أنَّ الإسلام دين رب العالمين وهو الحق المبين وقد جمع الجمالَ والكمالُ في أَحكامه والسعادة في إِعماله، وأوجده الخالق فمن اعلم منه سبحانه بمصالح الخلائق وصلاح أمرهم. فالإسلام لا يرضى من الأخلاقِ إِلا أسماها ومن الأعمال إِلا أرقاها، فالعدل أساسه، والرحمة عنوانه، والإنسان عنده مكرم، والعقل بالحقِ مُعَلَمْ، والحقوق فيه محفوظة، والكرامة موفورة، والجنة موجودة، وهيئت الدنيا للاستخلاف لنيل الآخرة ولم تترك الروح فيها حائرة، فهذا ديننا وهذه تعاليمنا فمالكم كيف تحكمون، ألا تعقلون.

ومما يجدر به العمل ضد تلك الحرب الظلوم والهجمة الغشوم، أن ندركَ ما يفعلون فنصد ما يمكرون، فإن ديننا من خواصه انه يملك المناعة في نفسه وذاته وأَفرادهُ منه، فبهِ يتحصنون وعلى ربهم يتوكلون، فوجب نشر التوعية والمناعة بين الجميع، وتنقية الجو الفكري من ملوثاتهم بإبطال أعمالهم وكشف أمرهم وذلك بتفنيد شبهاتهم وبيان أخطارهم، واستخدام ما لدينا من أساليب مشروعة ندافع بها عن أنفسنا، فالحق أمرنا، والدين قائدنا وموجهنا، وهويتنا وثقافتنا هي رمز وجودنا وقيمة حالنا وهيَ ماضينا ومستقبلنا، فوجب على الجميع كلٌ في أمره وحسبَ مكانه أن يذب عن الإسلام ويصد تلك الحرب الضروس ؛ فالمعلم ينقي ما يعطي من علوم، والعالمُ يبيِّنُ للناس أمرهم وعظيم قدرهم، والداعي يُصلح حَالَ من تاه في أمره، فالكل جسد واحد يداوي بعضه بعضاً ويضمد جراح نفسه، والدورُ الأساس على أصحاب القرار ومن وليَّ أمر المسلمين فعليه حشد القوى للدفاع عن الأمة، وان يرفع الهِمة، ويُنفذَ شرع الله، وان يوقف تلك الميكروبات التي أُدخلت في جسد الأمة لنشر المرض، ذلك المرض الذي

يراد منه أن يَهِنَ العقل والفكر ويمرض فيُستولى على العالم الإسلامي، وهذا من خبط أحلامهم، وسواد أَذهانهم، وسوء أعمالهم، فأمرُ الله لا بد نافذ ودينه سبحانه محفوظ وما تلك الأعراض إلى زائلة، لأن الأصل ثابت والله هو الشافي والحافظ، ولعل تجرؤِ هؤلاء علينا لضعفنا في تطبيقنا لشرع ربنا فأصبحَ هنا جرعةً من المناعةِ ومحفزاً لنا لنعود إلى كمالِ أمرنا ومنهجِ ربنا.

***

الباب التاسع والسبعون الإسلام والإعلام

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

قال ﷺ: «أفرى الفرى أن يريَ الرجلُ عينيهِ ما لم ترياً» رواه البخاري.

الإعلام بمختصر الفهم هو الإخبار وإيصال المعلومة، والإعلام في زماننا هذا بحرٌ زاخرٌ بالمفاهيم، والوسائل، والتفرعات النوعية، والتي نشأت من المقاصد والغايات، وليس هذا بابٌ أكاديمي ليتناول ذلك كله بالشرح والتعريف، إنَّما يراد منه أن يُتفهم نظرة الإسلام وتناوله للإعلام وعلى أي أساس يقوم عليه، ويكون الإسلام راضياً عنه وموافقاً له.

إننا لو نظرنا لقنوات التواصل بين الأفراد على امتداد الزمان، لرأينا ما مرت به من تدرج واضطراد في النمو، في السرعة والكيفية، فالوسائل البسيطة التي كانت تستخدم قديماً، كانت تنحصر فيمن حَضَرَ المعلومة أو من وصلته بالطرق المعروفة آنذاك، وبتجدد الزمن استخدم الإنسان كل وسيلة ليُسَرِّع بها إيصال المعلومة للغير، وذلك تماشياً مع مصلحته ورغبته في المردود من الإعلام بها، وتركيزنا هنا على الإعلام في العصر الحديث، ولا ينكر عاقل أنَّ الإعلام بوسائله الواسعة الحديثة قد امتدت يده على أجزاء المعمورة، فأصبح لغةً مشتركة بين سكانها، ومتناولاً بيد الجميع وسهل المنال، ونرجع لأصل مقصدنا وهو نظرة الإسلام وتعامله مع الإعلام، فالإسلام لم يقف أمامَ ذلك التقدم، بل هو رائدٌ في التقدم والاكتشاف والحث عليه ومُؤَسِسٌ في إيجاد وسائل التيسير على البشرية فهذا من مقاصده العامة بتيسير حركة الحياة، ولكنه يتناول أيَ أمر على الأخذِ بحسن التوجيه والمصداقية في التداول والعدل في التناول، وهذا من دأب

الإسلام في كل شأنه فيما يدعو إليه وبالطريقة التي يدعو بها، وفي الإعلام فالمصداقية وكمال الهيئة وعلو المصلحة وكلٌّ في قالبٍ شرعي متوافقٍ مع الثوابت والأطروحات الإسلامية هو مطلوب الإسلام في الشكل المتبع في الإيصال وفي التبليغ، وذلك لعظم الإسلام في إدراك ذلك الدور المنوط بالإعلام وان المقاصد تختلف، فوجب من طرف الإسلام أن يكون التماثل بين الأصل والمعلومة عنه أو الصادرة منه، وذلك للوصول لكمال الغاية المطلوبة، لأن الإسلام كمنهج علوي لا يرضى إلّا بكمالات الأمور، فكماله وتفوقه غير المحدود المتوافقةِ مع عصمةِ شرائعه لا تُلجِئُهُ إلى الادعاء والتزوير الذي طالَ كل منهجٍ وعلم سواه، فإنَّ النقصَ والتحريف الملازم لغير المنهج الحق يفرض عليه قسراً أو طوعاً اللجوء لتحريف الحقائق أو تغييرها وذلك لدعم الأُسس لذلك البناء الذي تتداعى قواعده وتتناقض فيما بينها، أو يحاول أن يوجدَ واقعاً بديلاً لأعلى المقاصد المطروحة للإنسان والتي لا تجدها توجيهاً ولا إرشاداً ولا تأسيساً إلا في نهج الإسلام وتعاليمه.

ولو أننا نظرنا بعين الحق والعدل، لواقع الإعلام الغير مرتكز على قواعد مُثلى، لرأينا تلك الطريقة في التعامل، والتي تحيد عن الصواب وتفتقر للمصداقية، وذلك لأَنَّ الإعلام في زماننا هذا على اتساعه وتعدد أنواعه وأساليبه، أصبحَ أداةً بيد من يملك القوة ويُكِنُ العداء، فَينفذُ فيها ومن خلالها مآربه وطموحاته، ويوجِد تلك الصورة المغلوطة عن الإسلام، والذي اعتبره في جانب الخصومة معهُ، وذلك لأن الإسلام بالنسبة إليه عائق يحول بينه وبين فرضِ سيطرتهِ على العقول والمقدرات الإنسانية، ومحرضٌ نشطٌ يُخرجُ الناس عن تبعيتهم له، وإن هذا لهو باب من أبواب الظلمُ والتعدي من أطراف القوى المتحكمة بالإعلام على مستوى العالم، والتي لا تميزُ بين الخطأ والصواب، والمصداقية والكذب، ما دامت تلك الوسيلة تؤدي دورها المطلوب وتوصل الأهداف المنتقاة إلى الغاية المرجوة.

ولذلك نقول واقعاً ظاهرَ التأثير إن الإعلامَ في زماننا هذا أصبح مَطيةً لمصالح

الأقوى والمتحكم، وأداةً في التوجيه للإدراك وفق معاييره، وسلاحاً يَتناولُ العقول والأرضيات الفكرية للأفراد.

ومع كل هذه السوداوية في الإعلام، إلا أن خط الحق وإشعاع النور لا ينقطع، فالإسلام بنقائه، وجمال تعاليمه، شمس لا تغيب، وبشعاع دعوته ونور حكمته وصفو مشروعيته ليفرض نفسه بنفسه، فهو محفوظٌ بحفظ موجده، وصادقٌ بتوازن مَنهجه.

ولذلك وصل الأمر وجوباً في بعض الأحايين أن يُدافع عن الدين، وينفضَ الغبار عن عقول الجاهلين، وأن يُستخدمَ الإعلام لكونه ليس حِكراً على أحد استخداماً نافعاً صادقاً، ليستبين به حالُ الإسلام ولبيانِ أمره وكمال شرعه وحكمةِ تعاليمه، ويكون حصناً مانعاً من عدوى الغير ممن نبذوا الحق وجاوروا الشر، فما مرادُ الإسلام إلا الخير والرحمةُ للعالمين، وذلك هو مقصود الدين، فهو أمر كريم من ربٍ رحيم.

ونضيف إلى بابنا ما يتضحُ به المقال، بأَنَّ الإعلام بأركانه من المُرسِل والمَستَقبِل والمَصدَر والوسيلةُ المتبعة في الإيصال وجب كلها أن تجتمع في معادلة الخيرية، والتتابع في الصحة، وان يكون التوافق مع المصداقية هو نهج الجميع، وأن يستخدمِ الإعلام كأداةٍ تفاعلية يراد منها النفع العام، وأن لا يُوظف في إطار العداء والتضليل، فإنه إن أُستخدم مثل هذا الاستخدام الضار فسيصبح ككذبةٍ اشتركَ فيها جماعةٌ بأن زينوها وطرحوها بشكلٍ مدروس لِتُسوقَ ويتعاملُ بها على أنها حقيقة وهذا هو دأبُ من لم يرتكز على إيمانٍ وقاعدةٍ شرعية ويُعَدُ عمله من آيات المنافقين... فالإسلام صادق في نفسه صادق في طرحه ولا يرضى إلا بالبيان والوضوح وأن لا تستخدم الوسيلة إلا في الخير مكتسبةً صفةً من صفات الأصل من العدل والإنصاف وإنارة العقول وتحقيق الغاية الأكمل.

***

الباب الثمانون الغزو الديني على الإسلام

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة٢١٧].

إنَّ من أخطر أنواع الغزو هو الغزو الديني، وهو ذلك الاعتداء التي يتناول الدين كهدف ومُبتغى في التأثير والضرر، وان الغزو الديني ليتقصَّدُ ذلك الاعتقاد الراسخ والرؤية السليمة لدى الأفراد والثوابت لديهم، بأن يعّمَل على إيجاد مدخلات وهمية لا تمت للدين بأيٍ من أُصوله وشرائعه بأي صلة، فتعمل تلك المدخلات العدائية في حال اختراقها على إيجاد تشويش ظاهر في سلوك بعض الأفراد وتغير في منهجهم الفكري من حيث التعامل مع الدين وطريقة تناول الأحكام والشرائع الإسلامية ومفهوم مدلولاتها، وتلك المدخلات تتعدى مسبقاً قبل نيلها من السلوك العملي على الإعمال العقلي والثبات الإدراكي في القياس الأمثل، وفي طريقةِ النظر إلى المرجعية الأصلية بالوضوح والتكامل في التطبيق والفهم والاعتماد المطلوب.

وطبيعةُ الاعتداء والتمادي على الإسلام لا يَلزم أن تكون مادية، فهيَ تعملُ هاهنا بآليةٍ نظرية في صورةِ تشويش واضح، وأسلوبٍ ممنهج للحيلولة دون الوصول للمنبع الشرعي الأصيل بنقاء وفهم سليم، وبإيجاد ذلك الاضطراب بين الأصل والتطبيق عنه وذلك هو المبتغى من الغزو الديني، وآثار ذلك ظاهر لدى الأفراد الذين وقعوا ضحيةً أو كانوا أداةً للغازي، ونرى ذلك في التشويه العقلي والتلوث في الفهم لمن تأثر بذلك الاعتداء ووقع أسيراً له، أو سرت في نفسه أعراضُ المرض والعدوى المدخلة من قبل من ناصبَ العداء، فتراه يضعُ الأمر في غير مكانه، ويقيس الأمر على غير مراده، حتى قد يصل فيه الأمر أن يجعلَ الممنوع أو المحظور في الشريعة مقبولاً لديه، ومقبولاً لغيره،

بأن ينزل الحكم على هواه بفهم وقياسٍ فاسد ليس له أصل في الشريعة، فيقع بذلك في هلاك نفسه وإضلال غيره، ويصبحَ تابعاً لمن أرادوا من مثله ليعبروا بهم كجسرٍ لمبتغاهم، وأداةً لتنفيذ مآربهم، فيصبحوا مؤدين لدورهم في إعطاءِ صورةٍ بديلةٍ عن الإسلام الحقيقي، وبالتالي إتمامُ الهجوم والنيلُ من الإسلام، وهذا هو مراد كل ضالٍ كارهٍ للإسلام والمسلمين .

وهناك جوانبُ أخرى وصورٌ متعددة للغزو الديني، ويرى منها في حالِ الشخوص الذين يضعون الإسلام في قالب على شكلٍ يوافق فهمهم واعتقادهم الملوث، وترى أيضاً تلك الصورة فيما ظهرَ بين الناس من دعاةٍ للضلال، أو من يقدم ويؤخر و يخفي ويظهر من الدين وأمور طرحه وبيانه بما يعتقد بفهمه المريض وقلبه العنيد ان ذلك من متطلبات الحداثة وضروريات العصر، وكل هؤلاء وكل من أصبح أداة للعدوى في ذلك، فإنَّ أمرهم ليس على رشاد وليس في أمرهم خيرٌ للعباد، ولكن أصابهم ما أصابهم لنقص مناعتهم أو لخبث سرائرهم ولابتعادهم عن صحيح الفهم عن الدين ،فأصبحوا مسوخاً يأتون بفهمٍ وبجديدٍ ليس له صلاح ولا منَ الأصل وليس له بقاء، بل هو عارضُ مرض وهذا ما هم فيه.

والحمد لله فسرعان ما تعود الأمة لعافيتها والأمور لأصل مجراها وهذا أمر معلوم وحق موعود، فالذي أوجد الخلق ورضي لهم دين الحق تعهد سبحانه بحفظ أمرهم وتمام دينهم، وما تلك الأمراض أو الهجمات التي تصيب المسلمين وتحاولَ أن تنالَ منَ الأمة إلا زيادةً في المناعة وتحصيناً لها في المستقبل، ومقياساً ليعلمَ الناس أين هو الحق وأين هي الخيرية، وان من لوازم الدين الحفاظ عليه والذودُ عن حوضه، وتمكين أمره، ونشر علمه، وبيان قدره، وتوضيح شرعه وفهمه، وإنَّ رصيدَ الإسلام لا ينفذ وان أمره لنافذ، وهناك أيضاً واجب وسلوكٌ إيماني وعملي لكل من رفع راية الإسلام وجعل أصلها في قلبه بالتوحيد، وأعمل بها أركانه بالإيمان والتطبيق، وكلٌ حسب طاقته وقدرته وعلمه، بأن تنقى الشوائب وتعزز المناعة ويحافظ على الأصل ويُعَّلم الناس

أمرهم وفق مراد وأمر ربهم، وأَن يُسد ما سببه الأعداء من ثغرات في سور الأمة، فالإسلام نقي ومنقي لغيره، وليس هناك تعارضٌ في أمره، وإنما تلك المحدثات والشبهات الملقاة جزافاً عليه إنما هي بيانٌ لحقيقة من ألقاها ووصفاً لحاله، ولو علموا حقاً ما هو الإسلام لانصاعوا لأمره ولرضوا بشرعه، ولكنهم لا يريدون الحق ولا إتباعه بل انحازوا لعناده ومعاداته، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم لكنهم صم بكم عمي لا يعقلون.

ونحن المسلمين لنعلمُ أننا على الحق، ولقد أرشدنا الله سبحانه أنه إذا أصابنا أو ألم بنا شيء أو تشابه علينا أمر أن نرجع لأمره ونحتكمَ لكتابه وأمر نبيه، فذلك هو المنبع الأصيل والنقاء الذي لن ولم يصيبه دخيل.

***

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

إنَّ الاستشراق يحمل أكثر من معنى وتعريف ولكن نستطيع أن نحصر الفهم في أمر الاستشراق بالقول إنه الجهد في الجمع المعرفي من قبل الغرب عن الشرق عموماً وعن الإسلام خصوصاً.

أي أن الاستشراق هو دراسة البنى التحتية للشرق بمجهود وفكر غربي، فيتناول علومه وآدابه وتراثه ولغاته وكل أمرٍ يُتحصَّلُ منه على إدراك التعرف على الطرف الآخر من الوجه المطلوب دراسته، ولتحقيق الغاية من ذلك.

وان عملية الاستشراق من باب الإنصاف لَيُعْلَمُ حقيقة أمرها ومُرادُ جهدها بمعرفة ما تقوم عليه وبه من سبيلٍ في التحصيل وعدالةٍ في الطرح والغاية من وراء ذلك، فما كان داخلاً في باب التحصيل العلمي والمعرفي الصادر مجهوده عن أفراد وجماعات لغايات حميدة ولاهتمام معرفي أو تداولٍ ثقافي فهذا من باب الاشتراكات العامة بين الشعوب والحضارات في التبادل العلمي والمعرفي والثقافي، ولكن للأسف فإن مجمل الدراسات التي أُقيمت على الشرق وخصوصاً الإسلام وفيما يعرف بمصطلح الاستشراق -وهو مفهومٌ ومصطلحٌ حديث منذ قرون خلت- قد تناول التراث والحضارة الإسلامية بنوع من الانتقائية العدائية، وغيابٍ للأمانة العلمية، فبدلاً من إثراءِ المعرفة الإنسانية، وتنشيط التداول الثقافي بين الشعوب والبلدان، ونشر الصورة الصحيحة والمغيبة في حق الإسلام إلى الغرب، فقد تبنى الاستشراق والمستشرقين دوراً من أدوار العدائية والغزو الفكري على الموروث الإسلامي والبلاد الإسلامية، والقواطع في ذلك الأمر ما نراه على أرض الواقع استقراءً علمياً وحالاً ملموساً من حيث استخدام عملية الاستشراق وأدواته من مستشرقين في تمهيد الطريق

للنفاذ إلى الشرق والحصول على المأمول من الخطط والأهداف التي أُحيكت ضده، والتي في بعضها امتدادٌ في منهجية فكرةِ الصراع بين الشرق والغرب، ومن تلك الحياكات استخدام المستشرقين كأداةٍ استخبارية لجمع المعلومات عن البلدان المراد استعمارها -استخرابها- فيسهل بذلك السيطرة عليها بما قد تم تجميعه مما يفيد ذلك ويكون أيضاً مقياساً لاتخاذ القرار الأنسب والأكثرُ فاعلية، ومن ذلك معرفة عوامل القوة والضعف في المجتمع، ومن يمكن الاستفادة منه في تحقيق الغايات، وأيضاً معرفةُ قوى التأثير لدى الشعوب من حيث التأثير الديني أو ما شابه ذلك ،وما العوامل التي قد تستخدم كنقاط تفريق أو إيجاد خصومة داخلية يستفاد منها بإضعاف الطرف المراد استعماره، وهذا الأمر قد عايناه قديماً وحديثاً في بلادنا بمجملها ولا سبيل لإنكار ذلك وما كان كثيرٌ من المبعوثين والدارسين الاستشراقيين إلا خدماً لتلك الغاية وسبيلاً لتسهيل ذلك المقصود، ومن الحياكات أيضاً شرٌ ذو وجهين والذي تستر تحت مظلة الاستشراق وعمل المستشرقين، وهو القيام بعمل التبشير من جهة، والطعن في ثوابت الدين الإسلامي من جهة، فما كانت جُلُ الدراسات قائمة على الاستفادة والإفادة، بل كانت الجمع للبحث عن نقاط الضعف لإيجاد الخلل بين المسلمين ليكون ذلك مدخلاً لنشر المعتقد الجديد وهدماً للصرح القائم، وان دليلنا فيما ذكرنا ليُرى في كل ساعة، فنرى ممن يلقي الشبهات ومن يحاول التشكيك أنه يستقي من أقوال المستشرقين فيما كتبوه ومما ألقوه، فأصبحت للشبهات و الظلمات مراجعٌ مصنفة في ذلك، وهذا هو عين الافتراء والزَيف، ولو أنهم كانوا بهمتهم في العدالة كما كانوا في همة الطلب لأنصفوا وعَرفوا الحق واتبعوه، ولكن كيف تخاطبُ قلوباً مُلئت بالحقد الدفين من زمن الصليبيين وبما حوت من سوءٍ فيها أن تُنْصف من اتخذته غريماً لها، فسبحان الله، ومع ذلك ومن باب الأمانة في الطرح فهناك من المستشرقين من عرف الحق وبين الجمالات والكمالات في التشريع والتراث الإسلامي، ونَشَرَهُ كما عَقله بأمانة، ومنهم من دخل الإسلام لما أدركت نفسه ووعى عقله وقلبه ما وقع عليه من جمالٍ وكمال.

واختصاراً لحالنا، فإننا نتكلم عن الاستشراق بأَنه نوع من أَنواع الغزو الفكري وبنكٌ من بنوك المعلومات للمستعمِر ولكلٍ من أرادَ سوءاً بالإسلام وأهله، ولمن أرادِ منفعةً اقتصادية أو سياسية، وهذا البنك القائم على الربوية الفكرية الضالة إِنما هو بناءٌ غاشم وموظفيه أدوات لذلك.

فالاستشراق إنما كان الجندي الأول وطليعةُ المعركة التي أوجدها من نصب الخصومةَ للإسلام وبلادِ المسلمين، وان ذلك الجندي وان كان لا يحمل سلاحاً يزهق به الأرواح لكنه حاملٌ لقلمٍ وعقلٍ يدعم من أرسله وان سلاحهُ أحياناً أخطر من سلاحِ من أتى بعده، وذلك لأَن امتداد سُمِّهِ في العقول والمجتمعات بما أحدث من تزويرٍ وتشويه لم يتوقف باستقلال البلاد المستعمرة، بل امتدَ للأجيال التي تلتهُ في بلده غير الإسلامي، وفي البلاد الإسلامية، ففي بلده أصبحت هناك تلك الصورة المشوهة عن الإسلام وتراثه وشعائره ومن ينتسبون إليه وهذا الفهم الخاطئ يُجنب الكثير من الأفراد من الدخول والتعرف على الإسلام بل ويوجد عدائية محتملة وكراهية ملحوظة، وأضف إليهم جانِبَ من نصَّب نفسه حاكماً عالمياً على الغير ووضعَ نفسه كوصي على البلاد الإسلامية ليتحكم في مقدراتها ويملي عليها سياستها وهو ليس له حقٌ بذلك وليس من أهلها .

أما في جانب المجتمعات الإسلامية ومما تأثرت به، فقد أَصابها من التشوهات والفُرقة الظاهرة الكثير، ومما نراه عائماً من الشبهات في كثيرٍ من أفكار وعقول من تأثرَ بالمستشرقين لكون عقله وقلبه مائلاً إلى خارج الإطار الإسلامي في الفهم والاعتقاد لأمر ظاهر وملموس بتأثيرِهِ السلبي.

وهل بعد ذلك، حينما يأتي لي قائل ويقول: أنَّ الاستشراق -الذي نعرفه- هو صورةٌ للمد المعرفي والتبادل الثقافي بين الحضارات والأمم ويريد مني أن أصدقه، فهل يمكن ذلك؟! وشواهد أفعالهم دالةٌ على معاناةٍ نعاني منها وتعاني منها بلادنا الإسلامية إلى وقتنا هذا، وان كان هناك إِنصافٌ في قليلٍ من أقوالهم فما بالُ كَثيرهُ يتعرض لثوابتنا،

وكان تمهيداً لخرابنا، فإنَّ هؤلاء المستشرقين مَثَلُهُم كالجواسيس فهم في عيون بلدانهم أبطال قد أدوا دورهم وخدموا هدفهم، لكنهم عندنا ما كانوا إلا طليعةَ الخراب وأداةً مستأجرةً للغزو الفكري والمادي، وان امتداداً لهم الآن قد برز بصورةٍ حديثةٍ وهيكلية جديدة كبعض مراكز البحوث والمؤسسات العلمية والثقافية والتبشيرية ومن هو على شاكلتهم في زمانٍ أصبح العِلمُ والتراث والعقول هدفاً من جهة، وأداةً من جهةٍ للاعتداء.

***

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

الحداثيون: هم نتاجٌ للعقم العقلي وتجربةٌ مهترئةٌ عن الحداثة الغربية ومنظورها عن الدين بفكرهم، وهم العقول المستأجرة في عصرنا الحديث، والمُستأجِر هم من مَلَك العداء للإسلام، أو ضاعَ عقله في الأوهام، والمُؤَجَّرْ هو ذلك المفكر الذي أَعمل فكره في الطعن بالدين بدلاً من ملازمة الحق ونصرة الدين، وذلك لزيغ في قلبه أو لكسبٍ في جيبه.

ولننظر في أمر الحداثة ونشأتها، لنعرف أصل الأمر وجذور الشر، فالحداثة في مجمل أصلها كانت وليداً للصراعات بين الثورة المادية والعقلية وبين الحُكم الديني لأوروبا في العصور المظلمة، فالنفور من الدين ورجالاته، وأسلوبهم في إسقاط ذلك الفهم على الحياة المدنية أوجد ذلك الصراع وتلك النِقمة، فكانت النظرة السائدة آنذاك وبعد ذلك أنَّ الدين هو سدٌ مانعٌ للتحضر والرقي، وانه جاذبٌ للتحكم في المقدرات، ومقيدٌ للعقول، فنفروا منه وأحالوه إلى التقاعد ولم يستطيعوا إلغاءه بالكلية، فعاملوه كأنه نص غير ملزم، وقابلٌ للتعديل أو التأويل حسب المفهوم العقلي أو العلمي أو التحييد المصلحي، وبناء على ذلك وبتلكَ التجربة الظالمة من الطرفين من أهل الدين الذين انحرفوا عن الجادة وحرفوا ما بأيديهم لمنافعهم واحتكاراً للسلطة، وبينَ من عادى

الدين بالكلية وجعله جزءاً ثانوياً ليس له حق التأثير وذلك خوفاً من تكرار التجربة ظهرت بذرةُ الحداثيين .

ولنعد لحداثي زماننا ولحداثتهم ، فقد فهمنا مما مضى من نهجِ أسلافهم، أنهم مذاهبٌ فكرية استقت فهمها من العقائد الغربية والمذاهب الفلسفية، وأرادَ هؤلاء حديثي الأسنان إسقاطَ أفكارهم ودسَ منهجهم في التراث الإسلامي كتكرارٍ للتجربة المظلمة، اعتقاداً منهم لفسادٍ في عقولهم وزيغ في قلوبهم انه تحديثٌ للمفهوم والفهم الإسلامي بما يواكب العصر الحديث ويلائمه، وهذا واللهِ، ليس إعمالاً في العقل بل تقليداً للعُمي وفساداً في الرأي، فكيف يقاس على الإسلام وقد كان في عصر ظلامهم في أوج انتصاره وعلو ازدهاره بهذا المقياس الفاسد، وبأنَّه غير مكافئٍ للتقدم وملازمٌ للتطور، وكيف يُقارن بين دينٍ حرفه أصحابه لمصالحهم ولتثبيت مفاهيمهم، وبين دينٍ لم ولن تمسه يدٌ بتحريف فما لهم كيف يحكمون.

وماذا يريد هؤلاء بعقولهم وأفكارهم المسمومة، والتي حملت معها العدوى والبلاء، فما هم إلا ناقلي مرض، ويعتقدون أنهم أطباء، ولو كان فيهم خيراً لداوَوا أنفسهم وأعملوا في الحق عقولهم، لكنهم باعوا أنفسهم وعقولهم للضلال، فبئست التجارة تلك، التي تُكْسِبُ في الدنيا عُلواً في الهدم واغتراراً في الفهم، وفي الآخرة سَخطاً من الله وعظيم نِقَمْ، فإنهم بما يفعلون، وبين الناس ينشرون، يريدون وحسب درجاتهم في الغباء، أن يعيدوا قراءة التراث الإسلامي قراءةً نقدية بعقولهم لتوافق شبهاتهم وتُحقِقَ غاياتهم، وهم أيضاً يطعنون في السنة ويشككون فيها بحيث تدخل الريبة على سالكيها، فيريدون بذلك إضعافَ مكانتها واعتقاد أنها لا تصلح للدلالة الشرعية أو بناء الأحكام، وأنها حالةٌ لفترةٍ زمنية وافقت وجود الرسول عليه السلام وانقضت بذهابه، وتوجهوا بخراب عقولهم إلى القران، فطعنوا فيه ونالوا من قدسيته واعتبروه نصاً قابلاً للدراسة والتأويل، وأنه مُحَدَدٌ في التوجيه والخطاب ولا يصلح للديمومة.

وأمرُ شرهم في العموم بـأن أرادوا فجوةً في الإسلام بين العقل والـدين، وان يحال

أمره إلى العقل وبهُ يكيَّف ويفهم حسب المراد، ويلغى فيهِ الاعتماد على الغيب لأن هذا فيه تعارضٌ بالنسبة لعقولهم الجوفاء مع العلم والعقلانية.

فهؤلاء هم الحداثيون وعلى اختلافٍ بينهم في إبداءِ آراءهم إلا أن هذا هو حالهم، وتلك هي مطالبهم، وإن لم يذكروها أحياناً علانيةً، لكن تلك هيَ حقيقتهم وذلك أمرهم فهم يريدون نزعَ القدسية عن القرآن وعدم الأخذ بالسنة، وأن الدين هو فهم الإنسان له بما يناسبه وليس هدى للناس ومُتناوِلٌ للدنيا والآخرة، وحاكمٌ للحياة وموجهٌ لصواب السلوك ونقاءِ الاعتقاد.

ولا أعلمْ أي دينٍ يريد هؤلاء الحداثيون فلم يتركوا ثابتاً في الدين إلا وطعنوا فيه، ولا رمزاً إلا ولمزوا فيه، وإننا هنا ما ذكرنا عظيم شرهم وسوء فكرهم إلا توجيهاً لمعرفةِ حالهم، وللحيطة من أمرهم، ودفاعاً عن ديننا، الذي هو عصمه أمرنا ورضا ربنا ، فالإسلام دين الله الكريم، تعهد بحفظه وهو الدين الخاتم للعالمين، وهؤلاء الشرذمة ومن شابههم فليس لهم على الدين من سبيل، وقد تصدى لهم أهل العلم فألقموهم حجراً، وما مَثَلُهُم إلا كمثل كلب أزعجَ أهلَ قريةٍ بنباحه فألقموه حجراً، وما احدثَ شيئاً، فلا القرية رحلت ولم يفده نباحه سوى حجراً جزاءً له.

ولا يغترَ أحدٌ بأن الإسلام قد يُنالُ منه، فإنما كلُ هذا سرابٌ وتشويش، فالله مُتمٌ أمره ولو كره الكافرون والمبغضون، وان هذا التنوع في الهجمات لدليلٌ على قوة هذا الدين، فهم يحاولون في كل جانب وبأي طريقة، ولو كانت عقولهم منصفة لدلتهم على الرشاد، وهذه الطاقات المبذولة في ذلك العداء لو سخرت بنقاءٍ للبحث عن الحق لأوصلتهم منذ القدم إلى الهداية لكنهم أحفادُ الشياطين، فسبحان الله فنحنُ نزداد يقيناً أنَّ الجنة حق والنار حق... وكلٌ لعمله ملاقيه... ولسوف يعلمون.

***

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة:١٧١].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: ٣٢].

قال تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: ٧٥].

قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: ١٨].

بدايةً لا بد لنا أن لا نقعَ في فخ نبذِ استخدام العقل والتفكر من باب دفع الموضوع برمته فهذا خطأٌ بَيِّنْ وأمر مأمول من ذوي الحاجات المغرضة والعقليات المشوهة، فنحن كأهل الإسلام لا عداء لنا نكنه مع العقل، بل هو عندنا مناط التكليف وشرف لحامله وعين لناظره، وإنما نتناول هنا أمر من سموا أنفسهم بالعقلانيين بعين التمحيص لتعريف ومعرفة الخلل الذي ارتكبه من خرج عن الأصل واتبع طريقاً ليس بخير، فتجاوز في أمره المعقول ورتب الأمور على هواه فأخطأ في نفسه وضل، وأوقع من ليس عنده درايةٌ وكفاية علم، بشباك الحيرةِ وسوء الفهم.

وهؤلاء وهم الذين ادعوا العقلانية على مراتب، وكلٌ يضع قوانينه بنفسه ويسوقها بعقله، وجُلهم إن لم يكن كلهم لا يعرف ضابطاً شرعياً ولا ارتباطاً بأصل، وبابنا هذا عمن عَرَّفوا أنفسهم بأنهم من أعملوا العقل ونصبوه حاكماً على الأمور، فما توافق معه فهو عندهم مقبول، وما خلا ذلك فيطرح ولا يعمل به أو يؤول تأويلاً لا يمت لنا

بفهمنا المؤصل عن الإسلام بشيء فالأمر عندهم منوط بالعقل فقط، وأَنه المصدر والحاكم على التشريع، وأن له استقلالاً في التحصيل والمعرفة.

وإذا نظرنا لحال من أطلقوا على أنفسهم هذا المسمى وهو منهم براء، لعلمنا تلك النبتة الشيطانية التي زرعها من نصَبَ العداء للإسلام على مر العصور فإشكالاتهم وطرق تعديهم تختلف على مدار الزمان والمكان، ولكنهم كلهم مجمعون على النيل والتعدي على الثوابت الإسلامية وتعريضها للتنقيص والمساءلة من باب اعتقادهم بعدم توافقها مع العقل، والسؤال المطروح هنا عن أي عقل يتحدثون؟

فلو أردنا أن نخاطبهم بالمنطق العقلي فقط، لسألناهم بأي حق كانت تلك العقول القاصرة لديكم هي الصواب وغيرها هيَ الخطأ مع أنَّ غيرها حازت الأصل وهي أُمةٌ عن أمة، ومتى كانَ الشاذ رأياً هو المرجع، والإجماعُ هو سوء الفهم، فلو كنتم فِرعاً منَ الأصل لدينا، لقلنا بيننا وبينكم مشترك في الفهم والقاعدة، لكنكم لستم سوى نبات ضار لا نفع فيه ولا أصل له وسرعان ما يموت حينما تغيب شمس داعمه أو يحاججُ عقل صاحبه، فأما الأصل عندنا فهو شرع رباني وفهم كامل تعهد الله سبحانه بحفظه وشمسه لا تغيب.

وكما قلنا عن هؤلاء وأَنهم جعلوا العقل حاكماً ومَصدَراً فنرى في محيطنا منهم في زماننا هذا كمن كان حصيلة لجَمعٍ من نُتَفِ الشر من كثير جوانب، فأخذهم عن الفلسفات اليونانية والرومانية القديمة، وأفكار المعتزلة من حيث تقديمُهم العقل عن النقل، وجمعهم لكل شاردةٍ مقطوعة النسب من كل فهم عقيم لمدركات الحياة والوجود، وكل هذا الجمع الخبيث البعيد عن الدين والحق المبين تَشكل في تلك المسوخ العقلية التي لم تستطع أن تفعل شيئاً إلا أن وجدت مستنقعاً لتالف الأفكار ووضعت نفسها فيه، فلا أفادت نفسها ولا خدمت البشرية، بل أوجدت الشبهات والتشويش على العامة، إضافةً على أنهم على غباءٍ واضح فيهم، بأن وقعوا في كثيرٍ من أمورهم في حيرةٍ وتخبط، فعالجوا أمرهم بأن ألغوا كل ما يربكهم بالكلية عجزاً وضعفاً منهم فلا

غيبيات عندهم ولا يتناولون شيئاً إلا ما أدركته حواسهم فسجنوا نفسهم في عقولهم وجعلوه إلههم .

ثمَ فلنأتي هنا أليسَ من باب أولى لهم أن يدركوا أن من يؤولون عليه الأمر ويتخذونه إلهً هو نتاجُ جمع حواسهم وجوارحهم، وأنهم بذلك جماعون وليس مصدرين.

ثُمَ ألم يكن الأجدر بهم أن يدركوا عجزهم ونقصهم في أمرهم لأنهم قائمين على فكرة مؤقتة لا منهج لها ولا مرجع كامل أصيل، ولماذا ما داموا يُعْملون عقلهم لم يصلوا لنتيجةٍ ثابتةٍ واضحة أنَّ العقل لا يصلح أن يكون المقياس الأمثل والمرجع لأنه قابل للتعرض للمؤثرات ويتأُثر بغيره وحالته في زيادة ونقصان حسب ما يأتيه من الخارج، فالإنصاف والعقلانية تؤكد وتُجمع أنَّ ما يجب إتباعهُ لا بد أن يكون الأمثل والأكمل نفعاً وفهماً وتطبيقاً، وهذا لا يتأتى فيما يرمونَ أو يدعونَ إليه.

فلا أرى حقيقةً أي عقل يحملون، ولا تشبيه عندي يناسبهم إلا أنهم كمن أصيب بحالةٍ من الجنون، ولا أرى دواءً يعالجهم إلا بالرجوع واعتماد منهج الحق.

ولاكتمال الصورة ولتمام فهم بابنا هذا، فإننا بنظرنا للعقل بمفهوم الإسلام وكيف تعامل معه، تيقنا زيادةً مع إيماننا بإتباعنا شرع ربنا إننا على المنهج الحق والطريق المستقيم والفهم القويم، فالإسلام ودلائل ذلك في القرآن واضحةٌ جليه، في الأخذ بالتدبر، والنظر، وإعمال العقل، وكثير من المفردات التي تدعو للتفكر، وهذا من الشواهد على تقدير العقل وأهميته، فالإسلام الكريم لم يضع العقل في سجنٍ وأحاطه بسياج الجمود مثلما فعل آباء هؤلاء المغفلين، بل أكرمه وقدره وهيئ له قواعد الفهم بالإرشادات والتوجيه، والتنشئة على إدراك مراد الله سبحانه وتعالى، وعقل المسلم لا تنتابه الحيرة في الأخذ بأحكام الإسلام ولا في تشريعاته، فلا تعارض بينهما، وان حصل شيءٌ من ذلك لكون ظاهره التعارض، فيعود لقصور في فهم المقصود من طرف العقل أو غيابٍ المعرفة للحكمة التي أرادها المشرع، وعلاج ذلك تجده في الشرع الحنيف نفسه

وفي ذات المنهج ويكون بالتعلم والرجوع إلى الأصول والتي هي المنبع الذي يروي ظمأ العقل ويذهب عطش جهله وحيرته. وانَّ العقل في الإسلام يعتبر وسيلةً لإدراك وفهم المقصود وليس هو الحكم على المقصود، فهو الطريق للوصول وتابع للأصول أي النقل عند أهل الإسلام وليس هو المشرع كما يَدَّعي من خلا من العقلانية وانتسب إليها كذباً وزوراً، وان الإسلام جعل تلك الدائرة الكاملة المحيطة بالإنسان والتي أوجدت المناخ الأمثل لتنفيذ المطلوب من الإيجاد بأن اطمأن القلب بالإيمان، واستقر العقلُ بالامتثال وكيف لا يكون ذلك والخالق سبحانه هو خالق القلب والعقل، والذي أحسنَ كل شيء خلقه، فسبحانه وتقدست أسماءه... فالكمال والجمال والجلال لا يكون إلا في أمر الله عز في علاه، ولذلك لا يصيبنا نحنُ إتباعُ هذا الدين ما أصاب غيرنا ولا نعاني من عوارض أمراضهم، ولا شطحات عقولهم، ولا فراغ قلوبهم، فمن لزم الحق واتبعَ المنهج كما أراد الخالق علم ذلك يقيناً وأحس به عياناً فالحمد لله على عديد نعمه وأكرمها نعمة الإسلام.

***

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤].

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٥٠].

العلمانية هي مبدأ ذو مرونة ويتم صقله وتشكيله حسب متطلبات واعتقاد الدول والقيادات المجتمعية التي تتبناه وتأخذ به، والعلمانية في تناولها العام تعتمد على الرؤية بإزاحة وتحييد أي تدخل لأمر السُلطة الدينية على الأنشطة البشرية المعمول بها في الدولة، فلا يكون هناك املاءات أو تقييد من قبل الدين أو رِجالاته على الاتجاهات المراد تنفيذها أو العمل بها في أنشطة الدولة، وبمعنى أبسط فهي فصل الدين عن الدولة وهذا في عموم المعنى، أما في تخصيصه فلكل دولة تبنى فكر العلمانية طريقةً خاصةً بها مع اشتراك الجميع في المفهوم العام لأصل العلمانية.

ونستطيع أن نقول أنَّ العلمانية لها جذور في المعنى والمضمون مع الفلسفات القديمة ولكنها خرجت بثوبها ومفهومها الحديث وبشمولية ذات قوةٍ نظرية وتطبيق عملي إبان الثورة المدنية والصناعية في أوروبا، تلك الثورة التي قامت على اثر الصراع بين العلم والكنيسة، وبين المدنية والتسلط الكنسي برجالاته وتقييده للحريات الفكرية وتحكمه في مقدرات الشعوب، فقامت أثر ذلك الثورة وركبت العلمانية بمفهومها العام موجه الفوز واُعتُمِدَت كأساسٍ في الفهم والتقييم، فالصورة الذهنية والنظريات التي اُعتمدت عليها كانت كلها تقوم على الاعتقاد بأن الدين هو العائق والمتحكم بطرق الوصول للتقدم العلمي والنمو الحضاري والازدهار الاقتصادي، وهذا حقيقةً كان واقعاً عندهم في عصور ما أسموها عصور الظلمة فقد تعدَّت الكنيسة والقائمين عليها في تلك الفترة وأسرفت، فحبست العقول وأزهقت الأرواح، ومُنع ما يخالف أمرها أو يؤثر على وضعها، فانتشر في تلك الفترة الظلم الاجتماعي بأبشع صوره والتخلف

العلمي والطبقية المتحكمة في مقدرات الشعوب إضافةً على الفقر والعوز العام الذي نال الجميع من الطبقات الأدنى.

ومع تقدم الزمان أصبحت للعلمانية نظرياتٌ ورواداً قائمين عليها ودُعاةً إليها ومدافعين عنها، فقد أوصلت القائمين عليها إلى مبتغاهم بنظرهم، فأزاحوا بفكرها السُلطة الدينية وحصروها في دور العبادة، وجنوا ثماراً يراها الرائي في الصور والحضارة القائمة للدول الغربية ولكن كل تلك الصورة ما هي نورٌ ساطع لنارٍ تم إشعالها ثمَ ما تلبث أن تحرق نفسها ويذهب نورها لأن ذلك البنيان لم يقم على قواعد أصيلة أو قيم خلاقة، ونرى حقيقة ذلك في نفس رؤيتنا لصور حضارتهم لأنهم قد فقدوا أخلاقهم وقيمهم وضبط حياتهم على ضابطٍ كامل وذلك نابعٌ من اعتماد العلم والتجريب أساساً في الفهم ومقياساً للأمور فلا وجود للدين أو العقل الراشد أو موائمة الفطرة، وان قاموا بتحييد الدين وتقصير تأثيره لما أصابهم من سلوك القائمين عليه فذلك شأنهم في أمرهم فرجالاتهم القائمين عليه قاموا باستغلاله وخيانةِ دورهم في تمثيل الدين ناهيك على أن دينهم نفسه لا يصلح لحمل هم الإنسانية لما أصابه من تحريف وتحكُّم الأهواء فيما نسب إليه، فلذلك قياسهم على الدين ككل قياسٌ باطل وتجربتهم لا يجوزُ إسقاطها على الجميع فإنَّ معركتهم دارت في أرضهم فلماذا يحاولون أن ينقلونها إلى أرض المسلمين.

والغريب أنك تجد على ذلك لهم معاونين من بني جلدتنا وهم الذين يتبنون أفكارهم ويعتقدون اعتقاداتهم وهؤلاء الأذناب ما هم إلا كناقلي مرض ومرآة تعكس الشر، فبلادنا الإسلامية الخالية من تلك العيوب والمحفوظة بحفظ الله سبحانه تختلف أصلاً وحالاً عنهم، فبدايةً عند من ملك يقين أنَّهُ لا تحريف يصيب ديننا وهذا أمر مقطوعٌ به بأمرٍ من الله بحفظ دينه، وثانياً فرجالات ديننا لا ينزعون الى ذلك السلوك كرجالاتهم فشتان من كان على الحق وينشر الحق ومن كان على الباطل ويتكسب به.

فالعجزُ الحاصل عندهم من غياب دور الدين الحق أوجد لديهم الجهد والتحرك

لإيجاد بديل حتى يحاولوا أن يُقَوِّموا بهِ أمرهم، فاتخذوا من العلم والتجربة ما يُصلح أمرهم، فأقاموا ذلك البنيان الحضاري على أنقاض الظُلم والجور وتغافلوا وأنكروا أنَّ الحياة لا تقتصر على المادة وَحسب، وما فائدة الحياة وما هو هدف وجودها إن اقتصرت على تحصيل لذةٍ أو نشوة منها وما نتحصل بها إلا بمقدار الجهد المبذول، فهذا تيه على تيه وبعدٌ عن حقيقة الإيجاد.

ولننظر للأمر من زاوية أخرى لنعرف إن كانوا على عدلٍ في أمرهم أم لا؟

فنحن كمسلمين كنا في عصر ازدهارنا وعز رخاءنا وحسن أمرنا عندما كانوا هم في ظلامهم، وما وصلنا إلى ما نحن فيه من خيرية وعلو إلا بامتثال أمر ديننا، والمراد إدراكهُ ها هنا لماذا تريدون أن تفرضوا علينا تجربتكم بفهمكم فلا ديننا دينكم ولا حالنا كحالكم أليس ما تفعلونه هنا هو نفس ما فُعل بكم من رجال دينكم بأن تفرضوا علينا ما لا يناسبنا ولا يمكن يوماً أن يناسبنا -فما لكم كيف تحكمون- فأمر ديننا يختلف عما عالجتم في ماضيكم القاتم، فَنظرتنا وحالُ ديننا لا يتشابه أبداً معكم وذلك بأنه الحق دين رب العالمين وشِرعَتُهُ إلى الخلق أجمعين وقد جاء به الحق جل في علاه منهاجاً وتقويماً وإرشاداً وسعادةً للدنيا والآخرة، وهو منظمٌ لحركة الحياة جميعها وبكل أدوارها برقي في التشريع وكمالٍ في الأحكام، فموجده هو الخالق سبحانه وهو أعلم بحاجة الخلائق، خلقهم للعبادة وأرشدهم إلى الغاية، ودلهم للهداية وهو سبحانه محاسبهم في النهاية، فالإسلام دينٌ جمع الكمال والجلال والجمال فلا نقص يعتريه ولا زيادة تصير فيه ونحن عليه ومتبعيه، ولم نشكو لكم يوماً أننا نعاني كما عانيتم أو ظُلمنا كما وقع عليكم، فماذا تريدون منا، تحاربونا على كل صعيد وتضعون لنا كل عراقيل، فأنتم بذلك ورجال كنيستكم الأوائل عندنا واحد فأنتم حقيقةً مانعٌ لنا لنعود لقيادة العالم وسدٌ يوقف ازدهارنا، وتريدون منا أن نكون كحالكم في ظلامكم، فسبحان الله، لو كنتم على أدنى درجة إنصاف لما طبقتم ونسختم طريقة ظاليكم علينا، والحمد لله ففي هذا دليل من دلائل الحق لدينا بأننا لا نزال على أمر ربنا وواقفين بالمرصاد لأعدائنا ولا شيء سيمس

ديننا لأن الإسلام هو الحق وهو الأحق، فدعونا وشأننا ثم أُنظروا كيف يكون أمرنا وإِلى أين سيصير حالنا.

فنحن معنا الله تبارك أسمه وقد رضي لنا الإسلام ديناً فأتبعناه فكيف تريدون منا أن نتبع أهوائكم فتضلونا ولكل نبأٍ مستقر وسوف تعلمون.

***

الباب الخامس والثمانون الملاحدة

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

إنَّ بابنا هذا وإن كنت أَأْسفُ فيه على الحبر الذي أُنفقه لأتكلم عن هؤلاء إلّا أَنَّهُ لا بد لنا من وضع أمثالهم على طاولة التشريح، ليعلمَ القارئ أو من يريد الفهم أنَ تلك الظاهرة المرضية الآخذة وللأسف بالانتشار بين بعض الأفراد عندنا وأخذت حيزاً في الغرب في مجتمعاتهم والتي تسمى في عموم أمرها بالإلحاد مع اختلاف تناولها من متبعيها على درجات وتباينٍ في أمرهم في الفهم والإدراك، إلا أنها تصب كلها في تعريفها العام والذي يفهم منه إنكار وجود الإله وعدم الإيمان بالأديان، وهذا والله أمرٌ عظيم وفهم عقيم، فما هذا الذي وصلوا إليه إلا كنتاج مقيت وتزاوجٍ بين الماضي من الأفكار الفلسفية البعيدة عن الإيمان والواقعية وبين التجربة المريرة والصراع الفكري بين الحكم الكنسي والمجتمع الأوروبي في عصور ظلامهم، فتولد عن ذلك مولودٌ مشوه العقل، مريض الأفكار، قبيح الأعذار، إلهه هواه وحياته مُشتهاه، ولا أهل له ولا معتمد، ولا يبحث عن الحق بل يكابره ويعانده، نَصَّبَ العلم والعقل مرجِعَه واتَّخذهُ قبلته فلا خير عنده ينشره ولا جهل يفنده، لم ينفع من حالهِ نفسه ولم يُعلِّم أو يُفد غيره ولم يقدم شيئاً لجَمعه، فهو أشبه بنباتٍ ضار لا نفع فيه ولا خير ما يلبث أن يهلك.

وإننا من تشريحنا لهم أدركنا و أدرك معنا كل عاقل، أَنَّهم تبنوا فكرهم لحقدٍ دفين أو غايةٍ مريضة، فما أرادوا حقيقةً من إلحادهم إلا أن يتبعوا مَرَضَ من كان قبلهم من أصحاب النظريات الفاسدة والعقول المشوهة فقادهم شيطانهم الى ذلك، ولم يُعملوا عقلهم لما فيه صلاحهم بل انساقوا كالأَنعامِ بلا أدنى تفكير، ولو أنصتوا لعقلهم الذي يَزعمون أنه مرجعهم لأوصلهم إلى بر الأمان وشاطئ الإيمان وحقيقة الوجود، لكنهم

منكرين لأنفسهم محقرين لغيرهم، فاختاروا ذلك المستنقع من الأفكار الذي جمع كل شاذ وباطل وبنوا عليه أساساً لأمرهم وهو فاسد كفساد أمرهم، وإنَّ الكثيرَ منهم قد سلك ذلك الطريق الضال والمظلم، والفكر المعتم، ليُحررَ نفسه من قيود الفطرة ووازع الخير والقيم لأنهم أرادوا حياةً بهيمية بلا رقيب ولا حسيب ليرتعوا في شهواتهم بلا قيد ولا تأنيب.

وإنك لتراهم في أنفسهم يسألون كثيراً إن ما تدعوننا إليه يمنع عنا الحرية!

فنقول لهم: أيَّ حرية تقصدون؟ وعلى أي مقياس تقيسون؟ فالحرية عندنا ضبط وانتظام، تحفظ بها نفسك ولا تتعدى على حق غيرك، والحرية لنا هي حماية ووقاية. وأنتَ أيها الملحد، طفلك هل تتركه يفعل ما يشاء أم تقيده بضوابط وتعليم تحفظه بها وتقويه كذلك!؟

ثم إنكم تريدون حريةً بلا سقف فمن خولكم بذلك ومن جعلكم المقياس؟ إن كنتم تقولون نحكمُ عقلنا، فعقلكم الذي ترجعون إليه ناقص غير كامل ولن يكتمل، وهو معرضٌ للتغير أو التأثير، وهذا لا يمكن عقلاً ولا مصلحةً أن يكونَ هو الحاكم والمصدر؛ لأنه متغيرٌ يكتسب قوته من غيره، فما يدخل عليه من جوارح الجسد هي الموردُ لعلمه وما خفي عنه فلا يعلم عنه شيء ثم أليسَ ما يدخل عليه يحتملُ الخطأَ والصواب وربما كان الظاهر صحيحاً ولكن تحته غير ذلك.

أما نحن فلا نسير على مثل طريقكم فعندنا نحن أهل الإسلام والإيمان فإنَّ مَرجعنا شرعيٌ ثابت كاملٌ غايةَ الكمال ولا يتأثر ولا يطرأ عليه شيء مما يصيب البشر.

فَأليس الأجدر أن نحتكم لما هو ليس من البشر وهو خالق البشر وأعلم بهم وهو سبحانه موجدهم، أليس من الحكمة أن نرجع بالأمور إدراكاً وعلماً وتطبيقاً لمن أوجدها سبحانه، فمالكم كيف تحكمون.

ثم ترى هؤلاء يلقون شبهاتٍ ومغالطاتٍ تدل على ضآلةِ فكرهم ووحولةِ عقلهم، فيلقون ما ليس له رد وليس من باب العجز عندنا بل من باب العُجب من غبائهم

أفَيصحُ أيها الملحد أن تترك الإيمان وتهجر الحق وتنكر وجود الرحمن لخلل أصابَ عقلك أو شبهةٍ أصابت فهمك، فالأولى لكَ أن تتعلم ما تجهله فتذهب بذلك عنك الحيرة وتطمأن بذلك نفسك، ولا يكن جهلك سببٌ لبعدك ولحقدك، وانظر لحولك تجد الإجابة لوحدانية الله في كل شيء فلا تعمي قلبك ولا تَحجُر على عقلك فالكل دالٌ على ربك، في نفسك وكل أمر حولك، فعندك الحق وستجده إن بحثت عنه يسيراً، فالشرع موجود والعلوم واسعة والدلائل واقعة، فلا تعطل فطرتك ولاتكن كالمريض الذي اختار الجنون مرضاً يناسبه فَحشر نفسه مع أمثالهِ في مصحة الإلحاد.

ونلخص بعضَ أسباب الملحد في ميوله لما تبنى بما يلي:

* تقليد فكر الفلاسفة القدماء ومن تبعهم باعتناق أفكارهم التي كانوا قد خلعوا بها أنفسهم من كل دين وإيمان.

* الخلل في فهم علة الوجود والخلق، والجهل في معرفة صفات الخالق سبحانه.

* عدم إدراك وفهم المنهج والتشريع الرباني.

* الموروث الفكري والنظريات التي أُحدِثت نتيجة العداء بين السلطة الدينية المتمثلة بالكنيسة مع العقل والعلم.

* رفض وجود قيود أو وازع يحول دون عمل السلوك المرغوب.

* غياب القاعدة الشرعية لفهم الأحكام والأحداث والتشريعات.

* الجحود وإنكار إتباع الدين.

* تقديم العقل واعتباره المصدر والحاكم على الأشياء.

* الصورة المشوهة عن الدين وغياب التوعية المناسبة.

* الحقد الناتج لبعض تصرفات البشر والمحيط بهم قديماً وحديثاً بنسبها جهلاً وظلماً وتعدياً إلى المشرِّع، والمزج بين تصرفات المخلوقين وأوامر الخالق بجهل وكذب لا نظير له.

* غياب التقييم لكل أمر سماوي وهذا يكون بعدَ الإلحاد قولاً وفعلاً، وقبلَ الإلحاد تجرُّؤاً على الثوابت.

** *وننوه أخيراً بأنَّ هؤلاء المغيبين ليس لهم منهج ولا قِيمٌ يدعون إليها ولا دليلٌ يقومون عليه فليس من أمرهم إلا الشك والاحتقار وسوء الأفكار ولو كان فيهم خيراً لقلنا فهم يؤيدون اتجاههم بالتعرض للآخر وإيجاد النقص فيه كدليل ولتقوية فكرهم الفاسد، ونحن لا نجد فيهم إلا الدياثةَ في العقل والسلوك، مع سوء الأدب في الطرح والفساد في التعليل، وهذا حالُ كل فاقدٍ ليس له مرجع أصيل ولا منهج كريم فما أمرهم إلا وبالٌ عليهم ولكل أجلٍ كتاب وسوف يعلمون.

***

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

قال ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم يومئذٍ كثر ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول الله، وما الوهن قال: حب الدنيا وكراهية الموت» رواه أبو داود.

قال ﷺ: «سيأتي على الناس سنواتٌ خداعات يُصدق فيها الكاذب، ويُكذب فيها الصادق، ويؤتمنُ فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل وما الرويبضة؟

قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة» رواه ابن ماجه.

إنَّ هذا الباب ليقطرُ معه الحبر دمعاً ويعتصر به القلم أَلماً وهذا ليس جَلداً للذات، وإنما رؤيةٌ لحال بعض المسلمين وتشخيصٌ لهم، وهي حقيقة تُرى الآن، وللأسف واقعية يدركُها العاقل فهو لا يكذب على نفسه فيما يرى، وان كانت لا تَشغَلُ من الحيز كثيراً إلا أنَّ لها واقعاً ملموساً وأثراً ظاهراً، وقد رأينا أن نخطَ هذا الباب لعلمنا ويقيننا أنَّ معرفة عارض المرض وتشخيصُ الحالة هو بداية العلاج وإعدادٌ للترياق، وقد أخبرنا الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى أنَّ الأمة ستمر عليها أحوالٌ شبيهةٌ بما تعايشهُ الآن، وكما أوردنا، فليس المرادُ هو النقد القاتم أو الاتهام العائم، بل نحاول أن نضع أيدينا على الجرح، وجُرحنا هو عوارض ضعفنا وما آل إليه أمرنا ولم أصبحنا كذلك، فيكون من ذلك بدايةً للعلاج ووقاية للمستقبل ولنعرف ما نحن عليه، وهل هذا أمرٌ ملازم أم عدوى عابره، أم تراكم لذنوبنا وبُعدٍ عن إسلامنا هو ما أدى لضعفنا.

إنَّ الرائي للعالم اليوم يُدرك أنَّ المسلمين في يومهم هذا لا يجتمعون على أمرهم وواضحٌ ضعفهم، قرارهم غالباً ليس بأيديهم، وبأسهم فيما بينهم، البعض منهم ترى ملامحَ الحضارةِ بزخرفتها وعمرانها ظاهرةً في بلده وفي بلدٍ مجاورٍ له عكس ذلك تماماً

مع أنهم في وقتٍ واحد يصلون إلا أنهم كحال إخوانهم مقصرون، والبعضُ ترى ان بلغَ عنده الاستهلاك مبلغه والإنتاجَ أضعفه، ويجاوره من أهل الإسلام من لا يملك قوت يومه وهو متجاهله، فجزءٌ يعاني من التضخم وآخر يعاني من المديونية فأَينَ الحق من مال المسلمين، وأين الأخوة في الدين عندما نرى في كل مكان من المسلمين من يُضَطهد وكثيرٌ من المسلمين دورهم كمشاهدين، فهذا هو الحال؛ تفرقٌ واضح وميلٌ لجانب الدنيا راجح، وتبعية سوداء وتقليد أعمى، وترى النفوس في كثير من المسلمين في حزن وقهر وسوء تقدير للذات وفي فُرقةٍ بين أنفسهم وفُرقةٍ مع أصولهم، وشعورٍ بالنقصِ غير المبرر المُصاحبْ لتغييب معين الاقتداء وجمال النقاء.

وترى في جانبٍ آخر من هم ليسوا من الإسلام إلا باسمه وبحال من خالفَ الإسلام كرسمهِ، وترى بعينيك في قرب المكان كأنه اختلافٌ للزمان، فهنا بيتٌ يُدعى فيه للفضائل ولذكر الله وليس عنه ببعيد مكان يدعى فيه للرذائل وغضب الله، وفي نفس المكان بامتداده ترى أُناساً عليهم دلائل الإيمان وبينهم من تحتار في أمره، وترى بين الناس في بلدك الإسلامي من لا يعرف للدين حقه ولا للأدب حُلته ولا للحياء عفته وهم مع ذلك مسلمين ألم يكن الأجدر بهم أن يأخذوا الدينَ كله فما لهم كيف يحكمون؟

فمالَنا أيها المسلمون عندنا قوامةُ كل شيء فلماذا لا نكاد نجتمع على شيء، أَأَصبحت الدنيا وزينتها مبلغ همنا وعالمنا الذي لا نعيش إلا فيه أليست الدنيا داراً للمرور والاختبار وليست داراً للقرار، غريبٌ والله حالنا، فبلادنا خَيِّره وعقولنا نَيِّره وما ينقص عند أخينا فموجود عندنا وما ينقصنا موجودٌ عنده فلماذا هذا حالنا. الحقُ يقال إنَّ هذا لبعدنا عن الدين وعن تطبيق منهاج رب العالمين فاستحكمت المنفعة في قلوبنا وضعفت لذلك أبصارنا وبصيرتنا وانشغلت بها قلوبنا فإلى متى هذا الحال، أَعلم أنَّ من يكيدون علينا ويتآمرون لا يريدون بنا إلا ذلك بل وأَسوأ من ذلك يطمحون، إلى متى سنرى الجهل يحكم العاقلين، والظلمة تُعيق المبصرين، والاعتداءُ والازدراءُ بـأهل

الدين، إلى متى سنبقى متفرقين وقلوبنا شتى، إلى متى إلى متى.

ألم يأنِ لنا أن نعود ونصلحُ أمرنا ونبدي جِدَّنا ونكشفُّ عن سواعدنا لنعيد مجدنا وعزنا، فعندنا الخيرُ من كل شيء، وفوق ذلك عندنا أعظم شيء شريعة الله ومنهاجه الكريم، فهو تمامُ الأمر وكماله والعز بأَركانه، والقوامة والتمكين، والعلم واليقين، فذلك هو الإسلام العظيم حبلُ الله المتين وصراطه المستقيم فلنعتصم به ولا نتفرق، فهيَ رايةُ الحق ونحن أهلها فلنكن حولها متعاضدين ولنريها للعالمين، فإن الله سبحانه وقد أكرمنا بالهداية وجعلنا من أهل الإسلام فلتكن قلوبنا بذلك كأجسادنا حين نصطفُ للصلاة متجانسة كأنها واحد، ولنجتمع على أمرنا فإن ربنا واحد، وكتابنا واحد، ونبينا عليه الصلاة والسلام واحد، ومصيرنا واحد، وهمنا واحد، وقبلتنا واحدة، ولنا جنةٌ واحدة نسكنها بأمر الله متجاورين، فلنكن في الدنيا متحابين وعلى الخير متعاونين، ولشرع الله مطبقين، فنحن على الحق فلماذا الدنية في ديننا، ولماذا التبعيةُ والميل لأعدائنا وعندنا رموز كالنجوم يهتدى بهم، وعلومٌ تنير دربنا، وأخلاق وقيم نسمو بها، وعندنا أكملُ البشر رسول اللهِ قُدوتنا ومعلمنا وسيدنا وشفيعنا، وأول ما عندنا شرع الله فهو الأنقى والأعلى، والأشرفُ والأبقى،وها نحن عندنا كل شيء فلماذا هذا حالنا!!

وبما قد علمنا من التشخيص لوضعنا وما من مرض قد أصابنا، إلا انه ناتجٌ لحب الدنيا وكراهية الحق وانَّه الميلُ لما لا يستحق، وأنَّه من تكالب الأعداء ومن نفاقِ من نحسبهم أشقاء، فهذا هو المرض وتلك هي العوارض، فلنعالج أَمرنا ونرجعَ لربنا فهذا هو الدواء وفي نفس الوقت المناعة من كل داء، ولتعد نفوسنا أبيه لا ترضى بالدنية فإن في الإسلام عزنا وفيه معَ الله المعية، فمن لزم الدين كان له التمكين وكان في عليين ومن أراد غير ذلك فلزم الدنيا وهجر الدين فهو من الخاسرين وسيبقى في الأسفلين.

***

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء» رواه مسلم.

قال ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول الله، وما الوهن قال: حب الدنيا وكراهية الموت» رواه أبو داود.

الغربة قد يعرفها أَكثرُ الناس بأنها رحيل الجسد لمكان غير المكان الذي نشأ فيه، وتَرْكٌ لأرضٍ أَلِفَ فيها الناس وأَلِفوه، فيبدأ من جديد كأنه مولود جديد في أُسرة غريبة لكنه ولد راشداً فيعاود الاندماج في الحياة الجديدة ويتحصَّلُ رزقه على ما يأمل، وهذه هي النظرة الشائعة للغربة. لكن هناك غُربةٌ معنوية لا تتعلق بالمكان الجامد لذاته بل تتعلق بقلب الإنسان وإيمانه وشعوره ووجدانه وتلك هي غربة الدين، ونقصد بها هنا ذلك الشعور الحقيقي والاستشعار العملي وغياباً للمشاركة الإيمانية المتأتي عن رحيل الناس في المحيط الموجود فيه المسلم عن المنهج الرباني والدين الإسلامي، وسلوكهم لطريقٍ مخالف فيما ابتدعوه، والهجران مختلف درجاتهُ في الرحيل، فمنهم من هاجرَ بالكلية بجسده وعمله وفكره، ومنهم من بقي جسده وخَرُبَ عمله بضلال فكره، ومنهم من هو مهاجرٌ مقيم، فتارةً هنا باسمه وتارة هناك بشبهاته وشهواته.

وان المسلم الحق والملتزم بالمنهج فمتى ما أراد الحق بكمال تطبيق الدين يستشعر بالغُربة ويجدها في نفسه وإِن كان بين أهله وفي وطنه، فهوَ إنسانٌ قبل كل شيء ومتعايشٌ مع الآخرين يراهم ويَرَّونه ويعاملهم ويعاملونه، فلكونهِ حاملٌ لمنهج كريم وسلوك قويم ومهديٌ لصراط مستقيم، و كانت في حينه الفوضى عارمة، والشهوات والشبهات ظاهرة، والناس فيها غارقة، أصبحَ هنا حالهُ فيها كحال المغترب، وأمره بما عليه قد يراه البعض بأنه مخالف أو مختلف فتتولد لديه في كل موقف يرى فيه ما يخالف معتقده أو

صفاء دينه وأمره حالةَ الغربة، أو يُعَدُ فيها من الآخرين غريباً، وهذا حملٌ ثقيل وذلك لقلةٍ من للخير في زمن الغربةِ سالكين وكَثْرَةٍ من للسوء مجاهرين، فإن المؤمن المتمسك بدينه في زمن الترك يصبحُ غريباً، وكذلك العلم في زمن الجهل يبيتُ غريباً، و إعمالُ السُنةُ في زمن أهل البدع غُربة أيضاً، وإنكَ لترى من كان من أهل الدين كأنهم نجوم مضيئة في سواد بهيم، وليُعلَم أنَّ قِلَتَهُمْ ليس نقصاً أو اختلالاً فيهم بل هو ندرةٌ وعلو قيمة، فالمعادن النفيسة والأحجار الكريمة طالما كانت الأقلُ كماً والأنفس وجوداً، و تقديرها يُعرف عند من يعرفها ومن يقدر قيمتها، وكفى بالله عز وجل مُعَرِفاً ومُزكياً مقدرا إذ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وإنَّ الغربة في زماننا هذا تمحيص وعلو تمكين لمن شاء الله سبحانه من المسلمين، وإنَّ الناس وإن حادوا عن الجادة فلا يزال الخيرُ ظاهراً والحق ساطعاً والخيرية في أُمة الإسلام وعموم المسلمين، ومما يدرك عقلاً ويشاهد عياناً ان أكثر أهل الأرض على غير الحق، بل ومنهم من زادَ في الباطل بمخاصمةِ الحق، وهذا والله لمن ملك عقلاً منصفاً وفكراً عادلاً لدليلٌ على صحةِ ما عليه المسلمين وأنهم على الحق المبين، وانَّ لهم التمكين بأمر رب العالمين، فكم أُحيكت ضد الإسلام المؤامرات، ووضعت عليه الأكاذيب والشُبهات وحوربَ في نفسه وأهله إلا أنه ثابتٌ راسخٌ باقٍ كما أُنزل، فلا تَهَّدم ولا أصابه زلل، وإن تُرك امتد وإن أُثقِلُ عليه بالعداءِ اشتد، فنحمد الله الكريم أن جعلنا مسلمين وبَشَّر بالجنة الصابرين ومن كان على دينه من القابضين.

ونضيف أمراً لا بد لنا إدراكه ووعيه واستيعابه بان تلك الغربة لها أمران متعلقٌ بها الأول: إنه من أقوى أسبابها البعد عن الدين، والإسراف في الإقبال على الدنيا على حسابه، والغرقُ في الشهوات، والفُرقة بين المسلمين بما أُستحدث من شُبهات من فرق مخالفة وأصحابُ ضلالات، وأَضف إلى ذلك عِظَمُ جرم ما كان من جانب المعتدين الذين حـــاربوا الدين ولم يـــألوا جهداً في تغريب المسلمين، ومحـــــاولتهم بشتى الطرق

للتهجير القصري لإخراج المسلمين من أرض الإيمان لأرض الضلال والتوهان.

والأمر الثاني: هو العودة وترك الغربة، وكيف ذلك؟

فذلك أمر من الله ووعد منه سبحانه بالتمكين وان تكون العِزة والأمر للمسلمين، وذلك رهنٌ بأن يكونوا بالحق متمثلين وبالمنهج ملتزمين فيترافق الالتزام والإتباع مع العز والتمكين، وان معالجة المسلم لشعور الوحشة الذي حصل له من الغربة، بأن يكون حاضراً في الدائرةِ الإيمانية وإدراك المعية وذلك بكثرة الإقبال والطاعة ، واستشعار عظمةِ الله ورحمته، والنظر في كتابه متعبدا متفكراً، وان يضع نفسه في محيط الخير مع أهل الخير فيتعاضد معهم ويشد بهم أزره، ويرى بحاله من الاستحضار والمشاركة الوجدانية حال الرعيل الأول وسيدهم سيد البشر ونبي الرحمة عليه السلام، وينظر بقلبه وعين عقله إلى جمال الإسلام وما أُكْرِمَ عليه من الانتساب إليه وكونه ممن نجا وممن أكرمه الخالقُ بالهُدى.

وهناك واجبٌ لا يجب إغفاله لمن حمل راية الحق في زمن الغربة لكونه أصبحَ نبراساً ينير الطريق في زمانٍ ضَعُفَتْ فيه الأبصار وتاهت فيه الأفهام، فليكن على قدر نور دينه من الضياء والنقاء وليقتبس من ذلك النور ما يُبَلِّغ به الناس ويدلهم عليه، فيكون ممن أَخبرَ عنهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن طوبى لهم وأَنهم الذين يُصْلحون إذا فسد الناس.

***

هل المستقبل للإسلام؟

هل للإسلام مستقبل؟

كيف حال الإسلام في المستقبل؟

إن هذه الأسئلة وما يجاورها لتطرأ على بال الكثير في زماننا هذا في صيغها المختلفة، وان اختلاف الصيغ يعود لحال السائل وأرضيته العقلية التي نبتت فيها تلك التساؤلات، ونستطيع أن نُجمل حال السائلِ على ثلاثة أحوال وكلٌ له زاوية في النظر وارتباطٌ معرفي عن الإسلام وعلاقةٌ معه، وان الاشتراك في التساؤلات يكون في أمر الإسلام ومآل حاله..

أما الحال الأول فيكون صادراً عن المسلمينَ أَنفسِهِمْ وهم من يَتَّبعون الإسلام ويمثلونه، والثاني صادرٌ عمن نَصَبوا العداء والخلاف مع الإسلام ولهم حيزٌ واسع فيما يحاكُ ضده ولهم جهود عملية في ذلك، والحال الثالث هو طرف محايد في شأن العداء والانتساب ولكنه باحثٌ ناظرٌ لحال العالم وأمر البشرية.

ولنبدأ في تلك الأحوال ولكن على ترتيب عكسي، من المحايد فالمخالف فالمتبع ، لنعرفَ من خلال ذلك حال الآخر ورأيه ومن ثم اعتقاد الإسلام وأهله، فتتشكل بذلك لدينا الصور العقلية والمنطقية لنعرف من خلالها الإجابة الحق والأمر الحق ونلغي الشتات الدائر حول الإسلام لحاله ودورة المستقبلي ومدى تأثيره أو تأثره، وكل ذلك بائنٌ مُوضحٌ بأذن الله.

أما بالنسبة للمحايد وهو جمعٌ كبير من نفوس العالم على هذه البسيطة والذين يكونون على غير هدي الإسلام ولا مطبقين لشرعه، لكنهم في نفس الوقت في جانب الحياد معه، أو متأثرين أحياناً تأثراً ليس أصيلاً لينقلهم به إلى حال آخر كمتبعٍ أو مُعادٍ، وفيهم ممن لم ينالوا حظاً من صور الحضارة القائمة ومنهم من قد واكب الحضارة وذاق رفاهيتها والقسمان هنا مشتركان في النظر لحال العالم وما آلت إليه البشرية من انحدار،

وكيف غابت المنظومة المتكاملة التي ترتقي بالإنسانية إلى المثالية أو حتى بالاقتراب منها، وهم في نفس وقت المعاينة قد عانوا من ذلك، وكلٌ حسب وضعهِ من ذهابٍ للقيم وإخلالٍ في النظم الاجتماعية وغياب للإنسانية في صورتها المطلوبة، وأدركوا أنَّ القسمةَ الجارية الآن في العالم لقسمةٌ جائرة يحتفظ بها جزء من العالم بالكل، وأنَّ هذا الجزء نَصَّبَ نفسه حاكماً عالمياً واحتكر موارده وصَبَّ كل شيء في مصلحته، ونَصَبَ العداء لغيره في سبيل تحقيق ذلك، فهنا كانت الرؤية بِأن هذا الحال العالمي والتخبط بمصير الشعوب لم يكن مبنياً على أُسسٌ كاملة ولا مناهج علوية ولم يُتحصل منها على الناتج المأمول من الرقي الإنساني والاستقرار المرافق للعدالة وأيضاً هناك ذلك الشعور الحقيقي للضعف الداخلي الذي يصيب أفراد هذه الحال من إدراك الحقيقة للوجود وماذا بعد ذلك، وهذه الحال تصيبٌ كلاً ممن لم يكن هناك أيمانٌ واعتقادٌ في قلبه فليست المادة ونتاجُ الحضارة المادي هو كلُ شيء فهناك جوانبٌ يحتاجها الإنسان وأُسسٌ في أمره تكون معنوية وروحية ذات طابع إيماني، وهذا لا يوجد إلا من كان مرتبط بمنهج علوي يراعي ذلك كله وينظمه، فمن هنا فالمحايد على ضعفه الحضاري ملك إحساساً بالدونية في السلم الحياتي، فلا مادةَ لديه وهناك ظُلم واقع عليه، وفي نفس الوقت شعورٌ بالعجز لغياب الإيمان والارتباط العلوي، وأما من ملك المادة منهم وصوراً من الحضارة وارتقى بها فقد لازمه النقص والإرهاق النفسي لما ذكرنا سابقاً، وكُلاً من الأطراف المحايدة لناظرٌ للخلاص باحث عن الأمل ومفتشٌ عما ينقصه، وادراكاته عن خبرات الأمم وتجارب السنين تُلزمهُ التفكير بالإسلام وهل هو الحل البديل والمغير لحاله إلى ما يصبو إليه، فينظُر وينتظِر، وللمسلمين هنا دور واجبٌ عليهم في إيصال أمثال هؤلاء لبر الأمان وتوجيهم للطريق الصحيح وتصحيح الصورة لهم وبيان النظرة الأكمل في الطلب.

أما بالنسبة للناظر الثاني وهو الذي حاله حالُ الخصم والمعاندْ، فسؤاله ليس بريئاً باحثاً فيه عن العدالة أو الخيرية للبشرية، بل سؤاله سؤال المنتظر لنتاج فِعاله والمتخوف

من سحب ما تحته من بساط السيطرة والنفوذ، فهو خصم عنيد وليس حديثاً في تلك العدائية والخصومة بل هي من أمد بعيد، فأنه قد علم وأيقن بِعلم نفسه وجَهل علمه بما أراده في استخدامه، أنَّ الإسلام بحضارته ليس كباقي الحضارات، وأَنَّ لَه استقلالية تحيد به عن الانغماس والذوبان في الحضارات الأخرى، وإِنَّ ظهورَ الإسلامِ بقوته من جديد وهو ذهابٌ لحضارته وزوالٌ لها، تلك الحضارة المزعومة له المتولدةُ عن تجربةٍ بشرية ذات خصومة دينية والتي أقصت في مفهومها وأمرها تطبيق شرع الله، وقامت على المادية المجردة وتحييد الأخلاق.

وان التمرد على منظومة الدين ككل ما رافق انطباعهم وما أُسس عليه أمرهم في اعتبار الدين كعقبة تحول دون التقدم والتحضر لأَنَّ كل هذا مبني على تجاربهم المظلمة وتعاملهم فيما بينهم فيما مضى من عصور ظلامهم واحتكار من يُنْسَبون من أهل الدين عندهم بمصير شعوبهم وهذا ليس عيباً إِلا من أنفسهم فهم حرَّفوا دينهم وشرعة ربهم وصنعوا أصناماً من أنفسهم وهذا من نتاج أفعالهم ومما كسبته أيديهم، وإِكمالاً للظلم من طرفهم جعلوا العداءَ عامّاً وأعمى للدين، وزرعوا ذلك في ثقافتهم ونهجهم وأساساً لقيام حضارتهم وقيمهم، وان تلك الحضارة المزعومة لهم والتي لا تملك مخزوناً من القيم ولا وعاءً من العدالة والنهج الكامل التي يحفظ لها ذلك، فانعكاسها البراق في صورته الجميلة ارتدادٌ جميل لطاقة البشر وعملهم وهذا لا ننكره وهو متَحَصَّلٌ لمن بلغَ الوسعَ في العمل وأُتيحت له الإمكانيات، ولكن في نفس الوقت هذا البريق زائلٌ بغروب ذلك المجهود و إنخماد تلك الطاقة وحالهم يشبه حال الحضارات التي سبقت فهل بقيَ منها أحد؟!

فقد أصبحت من التاريخ ولم ولن يبقى إِلا الإسلام بثقافته وحضارته المحفوظة وبنهجه الرباني وشاهِدُنا الحي على ذلك أنَّ الإسلام موجود ولم يختفي أو يضمحل، وان كان ضعفٌ أصاب بعض أفراده فللبعد عنه، وإذا عادوا وَطُبِّقَ منهج الله بحق سطعت شمس الإسلام التي لم تغب يوماً ولا تستطيع قوةٌ ان تمنع ذلك الإشراق وذلك الحق.

ومرةً أخرى نعود لذلك المخاصِم، فسؤاله في نفسه ونقصد هنا من باب الإنصاف القائمين على أمر العداء وهم أصحاب القرار عادةً والمؤسسات ذات اليد الطولى في ذلك فهم من ينصبون العداء خوفاً من تغييب مصالحهم وذهاب أمرهم، وبنظرهم القاصر وعدائهم الظاهر يعتمدون في دراساتهم ومقارناتهم مع الإسلام أنه خطرٌ عليهم إذا أخذ وضعه الحقيقي، أو إذا تسرب إلى مجتمعاتهم وعدَّل في قيمهم وعقلية أَفرادهم، فلذلك هنا هم جعلوا أنفسهم سداً في وجه التمدد الإسلامي وأداةً للطعن فيه-وذلك بدلاً من الاستفادة من أخطاء ماضيهم والعودة لباريهم- وإنَّ سؤالهم عن حال المستقبل هو للاطمئنانِ فقط ولتشجيع أنفسهم على الاستمرار في الطعن بما يرون من ردود أفعالهم ونتائجها، ولكن هيهات، وهذا ما سنستشفه من حال الطرف الثالث والذي عنده الحق فهو صاحبه وأَخْبرُ عن نفسه.

أما السائل الثالث فعنده الخبر اليقين فحالهُ هو حال العارف المؤمن بإجابته لأن الإِجابة ليست من عنده أو اجتهاداً من عقله بلا أدلة أو براهين بل هي من محكم النصوص في كتابِ العزيز الجبار وصحيح الأخبار عن النبي المختار.

إنَّ غيابَ الحضور للإسلام بشكله الصحيح إنما كان غياباً لتطبيق أفراده وليس غيابا لنفسه، فالغياب هنا بدورهم وامتثالهم وحسن تطبيقهم، فشمس الإسلام لا تغيب لأنه منهجٌ ربانيٌ كامل وشريعتهُ التي ارتضاها للعالمين.

فالإسلام أتى ليسعد البشرية وينظم أحوالها ويرتقي بها، وهو ليس قائماً على تحقيق مصلحةٍ لذاته فذاته عالية من علو مشرعه والإساءةُ إليه أو العداء له أو حتى تغييب العمل به ليس قدحاً فيه أو ضعفاً في أمره، لكن كل ذلك يعودُ على الأفراد فمن اتبَّعَ فقد صح حاله، ومن خالفَ فقد سلك طريقاً فيه ضلالُه، ولا بد لنا أن نعي ونتيقن أنَّ القياس في أمر الدنيا والبشرية ومآلاتنا الأخروية لا بد لها من مقياسٍ لا يُقدر على المساسُ به أو على تعدليه ولا أن يأتيه الخطأ أو النقص من ناحية من داخله او باضطرابٍ يكون فيه.

وذلك كله وأكثر منه لا تجده إلا في المنهج الرباني وهو شريعة الله الخالق للبشرية والعليم بأحوالها والراعي لها فقد خلق الخلق سبحانه لعبادته وبين لهم أمرهم وطريق نجاتهم وما فيه صلاحُ حياتهم، وما لَهُمْ وما عليهم، ولم يتركهم هملاً أو حائرين ولم يكلفهم مالا يستطيعون، وأرسل عليهم رُسله، وانزل كتبه، فأقام بذلك عليهم الحجة بعد ان أحاطهم بكل شيء يوصلهم للمراد فهل بعد ذلك عناد؟

ونعود لحال سائلنا وهو منا ونحن منه، وبفضل من الله نحن مسلمين، ونحن كما قلنا اعلمُ به وأعلم بما كنا عليه، فتقصيرنا في المحافظة عليه آل بنا إلى ما نحن عليه و هذا ليس وقتاً لجلد الذات، بل بالاعتبار بما قد فات، فإنَّ بين أيدينا الحق وهو منهج الرحمن الذي فيه سعادة البشرية وكمال الأمر في كل أمر، الشاملُ لأمر ديننا ودنيانا، الموصل لنا لبر الأمان ورضا الرحمن المواكبُ لكل العصور المُصِلحُ لها، ولا يصلح الأمرُ إلا به فهو من الله سبحانه شريعة لنا ومنهاج، وتوجيهٌ وإرشاد، أمره خير وكله خير، ودالٌ على الخير، وأتباعه هم أهل الخير، مرقٍ للبشرية موجدٌ للعدالة، منصفٌ في العطاء عدلٌ في القضاء، مُحَببٌ للعلم بل أحياناً موجبه، رادعٌ للشر بل ومعاقبه، قادرٌ على الأمر فلا شيء يعجزه، فهذا هو إسلامنا وهذا ما نحن عليه فإسلامنا مصلحٌ لكل زمان ومكان وان ضَعُفَتْ النفوس فهو لا يضعُفْ، وبه تعرِفُ الحق، وعليه تقيس ولا يقاس عليه، وإنَّ له الغلبة والتمكين وهذا وعد رب العالمين، فلنكن مسلمين بحق كسيرة الأوليين، وعلى خطاهم سائرين، وبرسولنا الصادق الأمين مهتدين، حينها وعلى ذلك من حُسنِ الإتباع وامتثال التطبيق فلا بد أن تعود الصدارة للدين ويظهر أمره في العالمين ومعه المسلمين، فان المستقبل للإسلام والمسلمين وهذا هو الجواب، ومن قال غير ذلك فهو ليس على صواب، فالأمرُ بأمر الله أن نعود إلى الله، مصلحين أنفسنا باذلين وسعنا، فيعود لنا عزنا كما كنا ونستلم القيادة من جديد لنقود بها العالم إلى طريق الهداية وذلك للوصول للغاية وإيجاد السعادة في الدنيا والآخرة وهذا بأمر الله كائن وظهوره الآن بائن فليس الله بمخلف وعده...

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ﴾ [النور: ٥٥].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

قال ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر» مسند أحمد.

***

الباب التاسع والثمانون الإسلام هل يمرض ولا يموت؟

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إنَّ هذه العبارة وهي القولُ بأن الإسلام يمرض ولا يموت، والتي تداولها البعض وسمعها الكثير، أعتقد أنها لا تصح وليست من الصواب في شيء، إلا إن قيلت من أهل العلم المعتبرين واستقبلها سامعٌ مدركٌ من أهل الدين فأدرك من خلالها أنَّ المقصود هنا ليس الإسلام بنفسه كدين، أو كشرعةِ رب العالمين، بل فهمَ الأمر من وجهين، الأول: إنَّ ما قد يَصْدُرُ عن بعضٍ ممن ينتسبون للإسلام اسماً وأحوالهم بأعمالهم وأقوالهم تخالف ذلك الانتساب فتعطي الصورة الضعيفة والهيئة المَرَضية والتشخيص الخاطئ عن الإسلام، وحالهم تلك وجرأتهم إنما تكونُ مما أُدرك عن الوجه الثاني لِلْفهم وهو تغييب التطبيق للشريعة والعملُ بها على الوجه الأتم والدور الأكمل، فيرى المسلم ضعفاً في الأخذ بالشريعة كمقياس للعمل في بعض الجوانب التي يداولها بما زُرِعَ أو استحدث في بعض المجتمعات الإسلامية ممن كان له القدرة الدنيوية على ذلك، وهناك أيضاً تلك الأيدي العابثة على قُدراتٍ أكبر والتي تتجرأ على ثوابت الدين تشويهاً وتعطيلاً، وبما تُحدث من نزاعاتٍ وشُبهات تتحصل منها بواسطة من هم الأقل قدرة والأكثر تبعية لها على تحقيق ذلك، وإننا لنرى في زماننا هذا كم أصاب الإسلام من ضربات وازدیادٍ في عدد الهجمات، فقد تكالبت علينا الأمم كما يتكالب الأكلة إلى قصعتهم.

إذاً فلابد أن نؤمن وندرك عقلاً وقلباً أنَّ الإسلام هو دين رب العالمين وشرعته التي ارتضاها لنا، ولا يمكن عقلاً ولا يُقبل إيماناً أن نقول إن الإسلام يمرض بما يُفْهَمُ منه انه اختل في نفسه، أو ضَعُفَ في حُكم أو عَجزَ في أمره، فهذا لا يصدر عن إنسانٍ دخل من باب الإيمان أو عرف معنى الإسلام، وهذا إنما يكون عن جاهل لا يعرف عن الإسلام شيئاً أو جاحدٍ معادٍ للإسلام أصلاً، فالله الله في ديننا فهو عِزُنا وأمر ربنا وهو طوق النجاة وتحقيق السعادة في الدنيا وحين نلقاه، كاملٌ من كمال مُوْجده، شامل من

رَحمة مبدعه، لا يقبل التعديل ولا ينابهُ تعطيل، ولا تصيبه العدوى، ولم ولن يحدث له تغيير، وهو كسبيكة ذهب فهل يصح القول انه فَقدَ جزءاً من قيمته بما قد عُمِلَ على إخفاء بريقه أو فيمن رآه ولم يعرف تقييمه.

وان الحالة التي عليها المسلمين الآن وهي ليست في كل مكان لأمر مؤقت وعارِضٌ مغادر وما ذلك إلا لاشتداد حرارة العداء، والقبول بما كان أمره فناء، فالرجوع بتحكيم الدين في قلوبنا وفي كل مجالات حياتنا بما يرضي ربنا فهنا ستكون العزة ويتحقق التمكين، فنحن على حق وديننا الحق وإن أصابنا كأفراد مرض عارض لتقصير منا أو تعطيل من غيرنا فالعلاج والاستشفاء موجود وهو العودة للأصل بالالتزام والامتثال والتطبيق، وسبحان من قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

فالحمد لله أن خلقنا لعبادته وأعاننا على ذلك، فله الحمد كله والشكر كله وحقَ له ذلك وهو أعظم من ذلك...

***

الباب التسعون كلماتٍ منصفة في حق الإسلام من غير المسلمين

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح: ٢٨].

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلۡأٓفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]

قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

قال ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يُعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر» مستدرك الحاكم، مسند احمد.

إنَّ الإسلام هو الدين الحق وهو شرعه الله للعالمين ورسالته الخاتمة، وان هذا لأمر جلي بائن، فدلائل صحته أكثر من تحصى، وأمر قوامته أصعب من أن تخفى، وهوَ كالشمس بالنسبة للخلائق لا يصلح حالهم إلا به ولا يهتدون في أمرهم إلا بنوره، أَلا إنَّ شمس الإسلام لن تغيب ونوره مشرقٌ على الجميع، ولكن من أعمى عينيه و طمسَ بصيرته وأغلقَ قلبه وضل طريقه فذلك قد حرم نفسه الخير كله واختار لنفسه ظلامَ الجهل وعواقبَ المعصية.

وان طريق الوصول للإسلام لمعلومٌ إشاراته ومفهومٌ إرشاداته، فمن أرادَ أن يسلكه فلا عقباتٍ في طريقه فكمال الإسلام وجمال أمره ليوجه قلبك ونقاء فطرتك إلى التسليم له والإيمان به، فطريقهُ صراطٌ مستقيم ونهايته نعيم، وإتباعهُ فوزٌ في الآخرة وسعادةٌ في الدنيا بخير التعاليم.

وان الإسلام من تمام أمره وجلالِ قدره أنَّ من يعاينه من قريب، أو يتأمل صورته من بعيد، وكان على غير الإسلام إلا وتأثر به، وأيقن أنه أَمامَ شأنٍ عظيم وأمر كريم،

فمن كان من هؤلاء منصفاً وللحق قائلاً ذكرَ قناعاته وأبدى رأيهُ فيما أحسَ به وأخبرَ عن ذلك النور الذي فتح له مَداركاً عن جمال وحقيقة الإسلام، وإننا كمسلمين، وعلى يقينٍ لا شك فيه ولا ريب بأننا على الحق لنحبُ من هؤلاء ومن غيرهم أن ينظروا بنور الحكمة وعين العقل ونقاء الفطرة فينالهم الخير وينعموا بالهداية...

ونعرض في بابنا هذا بعضاً من الكلمات المنصفة والعقلانية المضيئة بالصواب في حق الإسلام من غير المسلمين، وذلك ليدرك المسلمون أنَّ نور الإسلام قد أشرق على الجميع فرأوه، وذلك دليلٌ على أنَّ الإسلام قد بلغ مبلغ الليل والنهار، وليَعلمَ أيضاً غير المسلمين أن من مفكريهم ورموزهم من أدرك من جمال الإسلام على الحقيقة، فالأحرى بهم أن يُعملوا عقولهم وينقوا قلوبهم فيروا الجمال كله ويسلكوا طريق الهداية والإسلام.

ومن تلك الاضاءات التي اقتبست عن فهم الإسلام وجمال أمره ما يلي:

* ادموند بيرك / مفكر سياسي / إيرلندي / مات ١٧٩٧م

قال: كلما ندقق في القرآن نرى كماله، وعلوه يجذب المرء أولاً ثم يبهره ويحيره ويجعله شغوفاً به ويجبر المرء على احترامه وبذلك ترى تأثيره على الأعماق.

* رونالد فيكتور بودلي / مستشرق / بريطاني مات ١٩٧٠.

قال: ان تعدد الزوجات (في الإسلام) قد لم شمل الأسرة ولم يفرقها وجعل البيتَ مقدساً. (كتاب الرسل: حياة محمد).

* وليام مونتغمري وات / مستشرق/ بريطاني/ مات ٢٠٠٦

قال: لا توجد شخصية من عظماء التاريخ الغربيين لم تنل التقدير اللائق بها مثل ما فُعل لمحمد.

* بنيامين بوسورث سميث/ مستشرق/ أمريكي/ مات ١٨٨٤م.

قال: لقد كان محمد قائداً سياسياً وزعيما دينياً في آن واحد.

* فرانز روزنتال/ مستشرق/ الماني/ مات ٢٠٠٣م.

قال: شخصية الرسول كانت خطاً فاصلاً واضحاً في كل مجرى التاريخ.

* توماس وولكر آرنولد/ مستشرق/ بريطاني/ مات ١٩٣٠م.

قال: انما المؤمنون أخوه كان المثل الأعلى الذي يهدف الى أخوة المؤمنين كافة في الإسلام ومن العوامل التي جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة.

* مايكل هارت/ باحث/ أمريكي/ يهودي/ صاحب كتاب الخالدون المائة.

قال: لا يوجد في تاريخ الرسالات كتاب بقي بحروفه كاملاً دون تحوير سوى القرآن.

وقال: ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي (يقصد محمد صلى الله عليه وسلم).

* الفونس دي لامارتين / شاعر وسياسي/ فرنسي/ مات ١٨٦٩م

قال: فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أياً من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد في عبقريته.

وقال: هذا هو محمد بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية أود أن أتساءل هل هناك أَعظم من محمد.

* جون وليام دريبر/ مؤرخ كاتب وعالم/ أمريكي/ مات ١٨٨٢م.

قال: ولد في مكة في بلاد العرب الرجل الذي مارس أَعظم تأثير في حياة الجنس البشري.

* ماهاتما غاندي/ سياسي وزعيم روحي/ هندي/ مات ١٩٤٨م.

قال: أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر لقد أَصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول، مع دقته وصدقه في الوعود وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه.

* الأمير تشارلز / ولي العهد البريطاني /

قال في محاضرةٍ في مركز اكسفورد للدراسات عام ١٩٩٣ وعنوانها الإسلام والغرب:

إنَّ الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقةً للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة والدين والعلم والعقل والمادة.

* وليام ديورانت/ فيلسوف ومؤرخ/ أمريكي / مات ١٩٨١م صاحب كتاب قصة الحضارة

قال: إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ.

* بيرتراند راسل/ فيلسوف ومؤرخ/ بريطاني/ مات ١٩٧٠م.

قال: التعاليم التي جاء بها محمد والتي حفل بها كتابه لا زلنا نبحث او نتعلق بذرات فيها وننال أعلى الجوائز من أجلها.

* جوستاف لوبون/ طبيب ومؤرخ/ فرنسي/ مات ١٩٣١ م.

قال: إذا ما قيست قيمه الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ.

* ألكسندر بوشكين/ شاعر وكاتب/ روسي/ مات ١٨٣٧م.

قال: شُقَ الصدر ونزع منه القلب الخافق غسلته الملائكة ثم أثبت مكانه! قم أيها النبي وطف العالم وأشعل النور في قلوب الناس.

* ساروجيني نايرو/ شاعره/ هندية/ ماتت ١٩٤٩م.

قالت: ما أدهشني هو هذه الوحدة غير القابلة للتقسيم والتي جعلت كل رجلٍ بشكل تلقائي أخاً للآخر.

* آنا ماري شيمل/ مستشرقة/ ألمانية/ ماتت ٢٠٠٣م.

قالت: القرآن هو كلمة الله موحاة بلسان عربي مبين وترجمته لن تتجاوز المستوى السطحي فمن ذا الذي يستطيع تصوير جمال كلمة الله بأي لغة.

* كارل ماركس/ مؤرخ وعالم اجتماعي/ ألماني/ مات ١٨٨٣م.

قال: هذا النبي الذي افتتح برسالته عصراً للعلم والنور والمعرفة حري أن تُدون أقواله وأفعاله بطريقة علمية وبما أن هذه التعاليم التي قام بها هي وحي فقد كان عليه ان يمحو ما كان متراكماً من الرسالات السابقة من التبديل والتحوير.

* موريس بوكاي/ فرنسي جراح/ مات ١٩٩٨ م.

قال: قرأت القرآن بإمعان ووجدته هو الكتاب الوحيد الذي يضطر المثقف بالعلوم العصرية أن يؤمن انه من الله لا يزيد حرفاً ولا ينقص.

* توماس كارليل/ مؤرخ وناقد/ أسكتلندي/ له كتاب الأبطال مات ١٨٨١م.

قال: انما محمد شهاب قد أضاء العالم.

وقال: فلما جاءهم النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والمعارف وكثروا بعد قلة وعزو بعد ذله.

* ميخائيل أماري/ مؤرخ/ ايطالي/ مات ١٨٨٩م.

قال: ولقد جاء محمد نبي المسلمين بدينٍ إلى جزيرة العرب يصلح أن يكون ديناً لكل الأمم لأنه دين كمالٍ ورقي.

* ليو تولستوي/ روائي ومفكر، روسي/ مات ١٩١٠م.

قال: إن شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة.

*ألبرت آينشتاين/ عالم/ ألماني الأصل/ مات ١٩٥٥م.

قال: أعتقد أنَّ محمداً استطاع بعقلية واعية مدركه لما يقوم به اليهود ان يحقق هدفه في إبعادهم عن النيل المباشر من الإسلام الذي ما زال حتى الآن هو القوة التي خُلقت ليحلُ بها السلام.

* يوشيودي كوزان/ عالم / ياباني.

قال: لا أجد صعوبةً في قبول أنَّ القرآن كلام الله فإن أوصاف الجنين في القرآن لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع.

* كتاب (الله ليس كمثله شيء... الكشف عن ألف فريةٍ وفريةٍ عن العرب).

وهو للمستشرقة الألمانية (زيجريد هونكه) وتجد فيه كثيراً من دلالات الدفاع عن الإسلام وتفنيد الادعاءات.

* سنرستن الآسوجي/ مستشرق/ قال في كتابه تاريخ حياة محمد:

إننا لم ننصف محمد إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا فأصبحت شريعته أكمل الشرائع وهو فوق عظماء التاريخ.

* جورج برناردشو/ إيرلندي المولد/ مؤلف ومفكر/ مات ١٩٥٠.

قال: إنَّ العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال وإني أرى كثيراً من بني قومي دخلوا الإسلام.

* هذا وان كانَ أكثرُ من ذكرنا قَوله لم يدخل الإسلام قلبه، إلا أن الحق قد جرى على لسانه فتكلم بإنصاف مما عَلِمُ من جانبٍ قد عاينه فكيف لو عاينَ الكل، ومثلُ هؤلاء كثيرٌ كثير، فدلائل الحق والإنصاف بحق الإسلام لأكثر من أن تجمع وأكبر من تحوى، وإن تلك الومضات من الوعي والعدل لحريٌ من قائليها أن تدفعهم إلى الهداية،

ولكن سبحان ربنا جل في علاه إذ يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

***

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧].

ذكرنا البناء هنا بالأيدي وليس بالمعاول، لأن تلك الأيدي الطاهرة المتوضأه هي من أصل الجسد الإسلامي وليست أدواتٍ مُستأجرة فهي خيرٌ من خير، متحركةٌ متعلقةٌ بالحق مستنيرةٌ بالإسلام ومنهجه.

والبناء هنا لا يقصدُ منه تأسيسُ جديد فهوَ ظاهرٌ موجود والأصل ثابت محفوظ حفظه الله بأمره وكان كل شيءٍ بعلمه، ولكن هنا كان علينا ولا بد من إزالة تلك العقبات وتوضيح المشهد الحقيقي بإزاحة الشبهات والملوثات التي مست بريق الصورة الأصلية للإسلام وإعادة الترميم لصورة المجد، وان تلك الأيادي البيضاء التي تنافح عن الدين وتصد المعتدين وتحفظ الإسلام والمسلمين وتعيد بناء ما هدمه الكائدين وضيعهُ المنافقين لأمرٌ فيه من الله سبحانه سندٌ وتمكين وأمر منه بحفظ الدين.

وإِنَّ البناء والترميم لِما أصاب الشخصيةَ والبناء الإسلامي لَمُستمدٌ أَركانه ومواد أَساسه من المنهج الإسلامي الكريم ومن فَهمٍ عنه قويم، فمن جمال الإسلام أَنَّهُ يحملُ في ذاته خصائص وجوده وكماله، فالنصوص الثابتة وهي المقام الأول متعهدٌ بحفظها وهي المرجع الأصيل والركن المتين ومن منابعها يُستسقى لكل خير ولعلاج أي أمر ومنها يُسترشد للبناء ويُتحَصَّل النماء والارتقاء.

وتالياً بعض الخطوات والإرشادات الفَعَّالة لتحقيق روح ذلك البناء مع التحرك الإيماني والتنفيذ العملي:

* تطبيق المنهج الإسلامي كنظام حياة في المجتمع الإسلامي وبصورة عملية، مع تفعيل الشخصية الإسلامية للأفراد وربطها إيمانياً بالأصول والثوابت والالتزام بالشرائع.

* الشد على أيدي القائمين على الأمر ومساندتهم لإيجاد البيئة الحقيقية والعملية للبناء وتفعيل ذلك وتوفير السبل له، والقيام بالدور المشروع في الذود عن حوض الإسلام والدفاع عنه وشحذ الهمم لذلك، وإِحياء الجهاد للحفاظ على بيضة الإسلام، ومنع الأبواق المأجورة من المساس بالكيان والشخصية الإسلامية.

* تفعيل دور العلماء والدعاة لكشف الصورة الحقيقية للإسلام ومقدراته وبيان التوافق التكاملي بين المنهج الإسلامي والحياة، مع رد الاعتبار والمكانة اللائقة لهم.

* نشر الثقافة والتاريخ والعلوم الإسلامية المتفق عليها من أهل الكتاب والسنة، وتسهيل الحصول عليها كبابٍ من أبواب الدعوة ولنشر الفكر الصحيح للإسلام ولبيان جماله وكماله.

* استنهاض الأمة ورفع الهِمَّة وعلى جميع المحاور، ومن أهمها تصحيح وعلاج ذلك التقييم السلبي الذاتي للمسلم بأنه على آخر درجات السلم الحضاري وهذا الخطأ الفادح وجبَ تصحيحُ حاله وبيان أمره وإلغاء تبعاته، فالحضارة وهي الصورة المدنية والهيئة الخارجية لأي مجتمع وما يواكبها من تقدم علمي تختلف عن الثقافة والقيم الخلاقة والتي هي الأصل والوعاء المستوعب للحضارة والمحافظ عليها، وإِنَّ تأخرنا في السبق الحضاري كانَ لأننا حُرمنا من المنافسة الشريفة وتعرضنا للاستعمار التخريبي وأُخذت من أيدينا قوامتنا في اتخاذ القرار والحُرية في التقدم وذلك ممن يزعمون أنهم يتصدرون الحضارة في العالم، إِلّا أَنَّنا لا زلنا نملك الأساس الصحيح وهي منظومة القيم والمبادئ والتي هل أصل الثبات والدوام للحضارات، ولننظر بعين العقل والتاريخ فسنرى انه لم تَخلد أيُ حضارة على ما كانت عليه من تقدم وازدهار وذلك لأنها فقدت أو لَم تكن تملك ما عند الإسلام من منظومات قِيميَّة وأخلاقية ومبادئ مثلى

ونظره شمولية وأهداف سامية، لذلك حقاً أن استمرار وبقاء الثقافة والتراث الإسلامي أمام تلك المطارق والتعديات إنما كان بحفظ من عزيز مقتدر.

* المحافظة على الأُسس التعليمية والثقافية التي يقوم عليها تزويد الأجيال بالعلوم والمعارف وأن تكون على أساس شرعي وفهم إسلامي وفق الأصول المتفق عليها من أهل الإسلام.

* تعزيز الشعور العام والتقدير الذاتي بالانتساب للإسلام وأهله وان يكون ذلك دافعاً ومحركاً للعمل ولاستنهاض الهمم.

* التوعية الكاملة لأفراد المجتمع الإسلامي بما يتعرض له الواقع الإسلامي من تشويش وحملات إعلامية ممنهجة يقصد منها النيل من المقدرات وتغيير القيم الإسلامية، وإعداد الكفاءات القويمة كسدٍ لمنع مثل ذلك التعدي وكمعالجٍ لما قد يعتري المجتمع من بعض الشبهات التي تتسرب إليه.

* الربط النفسي الايجابي والتحفيزي بالقدوات والرموز الإسلامية وأَعلام ومتقدمين الإسلام وبيان فضلهم وعِلمِهم وما قدموا للإسلام والإنسانية من خير وعلم عظيم.

* الاعتناء بالنشء الحامل للرسالة الإسلامية السمحة والقويمة وتهيئتهم بالإعداد العلمي والأخلاقي والدعوي لنشر رسالة الإسلام وتبليغ منهج الله سبحانه في الأرض.

* التكاتف المجتمعي العام وعلى كافة المستويات من رأس الهرم إلى ما دون ذلك للحيلولة من الانغماس في الحضارات الأخرى وفقدان الشخصية الإسلامية، ويكون هذا التكاتف بالاعتصام جميعاً بشرع الله سبحانه والمحافظة على المقدرات والتراث والهوية الإسلامية.

* الاهتمام والتوجيه الفعال والرسمي لمواكبة التقدم العلمي والعلوم المادية والإنسانية لرفع مستوى الأفراد المعيشي في المجتمعات ولتحقيق أعلى سبل الاكتفاء الذاتي، والتخلص من التبعية والتصنيف الاستهلاكي بين الأمم.

***

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١]

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور: ٥٥].

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

إن الإسلام ثوابتٌ وأصول ومنهج محفوظ ومن هذه القاعدة يُفهم أن المتغيرات لا تصيب الدين ولا تؤثر عليه وهذا من فيض الدلائل على انه من مصدر رباني ومحفوظٍ بوعد إلهي، وإنّما الصورة الحالية والتي دخلت عليها شوائب الشبهات وقِصَرُ النظرات وضعف التأثير إنما كانت عن تقصير في التطبيق وبُعدٍ عن الامتثال وذلك ملاحظٌ بشكله على المستوى العام والخاص من خلال درجة تناول أفراده وتفاوتهم، ومع ترابط العام والخاص وتأثير كل جزء على الآخر إلا انه يظهر التأثير السلبي واضطراب الصورة والدور الأكبر للحاصل عندَ المستوى العام لما فيهم من أصحاب القرار ومركز السلطة واليد الفعالة على الخاص.

وبابنا هذا إنما يتحدث عن المعافاة والتي نقصد منها الرجوع إلى الأصلِ تطبيقاً وامتثالاً وشعوراً إيمانياً، تأثيراً ومردوداً على النفس وعلى الآخرين، وصورة المعافاة الأصيلة التي نريدها وهي الحق، تراها واضحةً في الرعيل الأول، والمثال الأجمل، والقدوة الأتم، وفي السيرة الأكمل على صاحبها أتم الصلاة وأزكى السلام.

وكما قلنا فالخلل الواضح للقاصي والداني في هذا العالم هو نتيجةٌ للبعد عن التطبيق للمنهج والقصور في تفعيله واقعاً كامل التأثير ، إضافةً للقصور العملي الإيماني والدعوي للشريعة، فالضعف في الأفراد وليس في المنهج، فالمنهج رباني المصدر كامل

التعاليم ولذلك من رحمةِ المُشرِّع موجد المنهج سبحانه أَنَّه جعل المنهجَ صالحاً لا يذهب صلاحه ومصلحاً لغيره ولجميع أَتباعه ومعالجاً لهم معدلاً لحالهم، فكماله كمنهج أُرسل للبشرية أَنْ كان مُؤَسِساً وموجهاً لقيم الخير مُفعلاً لها، ومنظما للحياة راعياً لها، فمقاصده من الكمال مستقاة وجمال أمره في كل حالٍ تراه، فهو منهج كاملٌ شاملٌ أحاطَ بالإنسان إحاطةً تحفظه في نفسه وتحفظ معه غيره وتوصلهُ للغاية وهيَ توحيد الله سبحانهُ وعبادته كما أمر، ومن جلال قدر هذا المنهج وعلو أمره أن حمل الإصلاحَ لغيره لعلم الخالق العليم الكريم بما قد يطرأ على طرف المخلوق من تغير وانه قد يضعف أحياناً أو يحيد لغلبةٍ من هوى نفس أو لطارئ قد أثر عليه، وهذا خلافاً للمنهج المرسل إليه، المأمور به، الذي لا يأتيه زيادةٌ لتعويض نقص، أو تعديل لاكتشاف أفضل أو لعجز. وهذا من شروط الكمال ومن الحفظ لصلاحية الرسالة الخاتمة بأَن لا يصيبها شيء يذهب بها أو يعيد صياغتها بغير ما أوجدها الخالق فكمالها الموحى من كمال موجدها لا شك فيه أو ريب وهو عقيدةٌ مغروسةٌ في قلب كل مؤمن وتصديقاً من كل متبع للحق، فالإسلام معافى في نفسه لا تصيبه العلل ولا يد لمخلوق عليه فإنه يعلو ولا يعلى عليه ويؤخذ منه ولا يؤخذ عليه.

وكما قلنا من جمال الإسلام وكمال وتمام أمره أنه يحمل المعافاة لغيره وهذا هو جوهر بابنا وتماماً لمراد كلامنا، فالإسلام لا يتركُ أتباعهُ حائرين، ولا يرضى لهم أن يكونوا مخالفين، بل فتح لهم أبواباً من الرحمة وإِعادةَ التأهيل وبَيَّن لهم من كلام ربهم أنَّ الخطأ يذهب بالتوبة وان القوة والتمكين يكون بالرجوع إلى أمر رب العالمين بتطبيق نهجه الكريم، وان هذا الدين هو دين رحمة وخير وعمل البر، وانه لا عدالة توازيه ولا تشريع يضاهيه، فالخير منه وفيه ، وما تلكَ الأحداث والعوارض إِلا لمرض الابتعاد عن الأصل والمنهج، وان الترياق موجود وليسَ عن أحدٍ ممنوعٍ، فالإسلام يدعو غيرَ المسلمين للدخول فيه لخيرهم ولمصلحتهم ونجاةً لهم، فكيف يكون لأتباعه، فهو أرحم بهم من رحمتهم بأنفسهم، فرحمته من تعاليم الله سبحانه ومعلومٌ نظرةُ كمالها

وسعة رحمتها. أما الإنسان فقد تكون نظرته قاصرة ويعتقد فيها خيراً، فالأولى التشبث بسفينة الشرع والنجاة في خضم هذا البحر المتلاطم في هذا الزمان المحير، الذي تكالب فيه الجميع على الإسلام إن لم يكن عياناً فرفضاً له أو كيداً في الخفاء.

وخلاصةُ الجَمال فإن هذا الدين فيه الخير في كل شيء وتعاليم النجاة والصلاح في كل أمر، وقد شملَ نواحي الحياة بدقائقها ومتطلبات الروح ورقائقها، فمن لزمه فقد فاز في الدنيا ووعداً له العزة والتمكين، فهو كإسلام هو الدين وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، جعله ربنا رحمة وعدالةً ونجاةً ومنهجاً للعالمين، فوجب علينا إتباعُ أمره، والتزام طريقه، واعتماد تعاليمه، وان لا نغتر بقلة السالكين أو قوة الهالكين، فنحن قافلة الموحدين ونحن المسلمين، ونرى ذلك إيماناً بقلبنا وخيراً بحالنا وسنراه جنةً حق برحمةِ ربنا ولو بعد حين.

***

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه: ١١٢].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص: ٨٠].

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٨].

قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت: ٤٦].

إن هذا الاستفسار حقيقي وتساؤل واقعي يطرأ على بال الكثير وهذا مبحث حق لا جُناح فيه ولا ادعاء، وان منبع ذلك التساؤل حصل لمّا احتارت الأفهام وظهرت الأَسقام، واضطربت المعاملات في ضوء ذلك الشرود عن الامتثال بالمنهج الإسلامي في المجتمع والبيئة المحيطة بالفرد، ولا نستطيع إنصافاً إن نقول انَّ الأمر على عمومه، لكنه وصلَ لدرجةٍ لو أُعتمد في الإحصاء على حصر نسبته لكان مؤشراً خطيراً وواقعاً أليماً، ومؤثراً على الفرد المسلم ككيان، وكإنسان داخل في الحلقات والتبادلات الاجتماعية المختلفة، فكان حينها لا بد من البحث المجدي عبر الطريق والفهم الشرعي عن الدعائم لتقوية تلك الشخصية الإسلامية لتبقى على اتزانها ومحافظةً على مقدراتها ومتمسكةً بأصولها وصلاح معاملاتها، مع فعالية القدرة على المقاومة الإيمانية لما قد يطرأ من تأثير البيئة الغير المتوافقة والتي قد تترك تأثيراً وضرراً يَحيدُ بالمسلم عن طريق الحق وسلامة التطبيق وفقدان سمه الصلاح الملازمة لأهل الإيمان، فالمطلب هنا القدرة

على الثبات الشرعي في وسطٍ غير ثابت مع تحسين عنصر المناعة للمسلم من الأمراض والأعراض المحيطة.

بدايةً لا بد لنا أن نتطرق لأصل المشكلة بشرح موجِز يتضحُ لنا من خلاله ما هو أصل المرض، وما هي تلك العوارض التي أحدثها ذلك الخلل في المحيط الاجتماعي في زماننا هذا، والتي تركت حالةً من الصعوبة لدى الفرد المسلم في تمثله العملي ووضعه النفسي وشعوره الإيماني في تطبيق منهجِهِ والعمل به على أتم وجه، فالمسلم وهو الفرد الصالح الناقل للخير والعامل به عندما يُحيط به ذلك الكم من الفساد ونقص الصلاح فإنه تتضاعف لديه المجهودات في القيام بدوره كما ينبغي له امتثالاً للشريعة والمنهج، ويلازم ذلك المجهود ضغطاً متزايداً من الناحية النفسية نظراً للضغوط التي تقع عليه والتي تُحدثها أعراض تلكَ الحالة المحيطة فإن الأصل في النقاء أن يبقى على حاله وإن حدث أن تعرض وفتحت حوله قنوات التلوث، فلا بد أن تُغلق تلك القنوات وان تبنى السدود لمنع ذلك التسرب، وهذا ما يبحث عنه الصالح في البيئة غير الصالحة، فهو يريد حلاً لأمره مع طرفين، طَرفه مع الآخرين وطَرَفُ ذاته، أما مع الآخرين فهو يريد من التفاعل والمشترك الاجتماعي أن يبقى ضمن دائرة الشرع، أما مع نفسه فهو يريد لها الثبات والبقاء في دائرة المحافظة والعلو الإيماني والارتقاء النفسي، والذي يشكل لديه مناعةً ذاتية ورقابةً حية تعينه في أمره وفي تعامله مع غيره، وان تحقيق الحل لإيجاد المراد إنما يكون في نقاطٍ مشتركة تعالج كُلاً من النفس وآليةِ التبادل مع الآخر، وإن تلك الحلول ليُرى تأثيرها ايجابياً واقعاً وحقيقةً في الكيان الشخصي، وواضحةً في العلو الإيمان والاستشعار القلبي الموافق للاندماج مع الأصل والثوابت العلوية القائمة عليها النفس المؤمنة بالمنهج، والمنقادة طواعيةً وتسليماً للمشرع سبحانه، فهي طريقةٌ لربط النفس المؤمنة بأصل المورد والاستشفاء بالارتباط به والتعزيز للرابطة الإيمانية للمؤمن مع المشرع سبحانه، وتالياً لذلك العلو الداخلي والانفعال الإيماني لا بد أن يظهر رد فعل مناسب للمكنون الداخلي في طريقة التعامل مع الآخر إمّا بالتجاذب والقبول أو

بالرفض والتحييد وكل ذلك يرجع مقياسه للتوجيه الإيماني والالتزام بالأصل وأَحكامه، ولذلك لا بد أن يتجه الصالح للبقاء على صلاحه في هذا العالم الذي أصبحت بعض أجزاءه موحشة وغير صالحة، بأن يغير البيئة المحيطة وان ينخرط في بيئة شرعية متلائمة ومتوافقة مع الأصول والتوجيهات الإسلامية، وان يلجأ في نفسهِ كفرد بأن يُوجد البيئة السويةَ لنفسه وذلك لتُعينه وليَتحصَّلَ منها على المراد وهي بيئةٌ معنويةٌ شرعية وليست حالةً من العزلة المرضية أو الهيئة المادية، فهي جنةٌ يدخلها الإنسان الصالح وتكون في قلبه وإدراكه، ويكون فيها على خير محاطاً بها قلبياً وشعورياً ومندمجاً مع بيئته الشرعية متذوقاً جمالها وكمالها.

ومن أعلى تلك الأمور التي يجب أن يوجِدها في بيئته وجنةَ نفسه ليحقق مرادهُ وصلاح نفسه وثباتها، ومؤثرا فيها على غيره صلاحاً وجمال دعوةٍ وبياناً، مع أهمية جديته وصدقه في تنفيذ ذلك ما يلي:

* معايشةِ رب العالمين، باستشعار عظمته وكمال حكمته، وعطاء معيته، وعلو أمره، وجليل صفاته، وحسن أسماءه، وعظيم قدرته، وكمال منهجه، وسعة رحمته، وأليم مخالفته، فالمؤمن مع الله سبحانه وتعالى بين الرجاء والخوف طالباً منه حوائجه متوجهاً إليهِ بدعائه راجياً عفوه وتيسير أحواله وثبات قلبه وزيادة إيمانه.

* معايشة الرسول ﷺ بمعرفة سيرته، وجمال خصاله، ورقي تعامله، وعلو تناوله، فهو مُبَلِغُ الدين، رسولُ رب العالمين، أُرسل رحمة للعالمين، وهو سيد الأولين والآخرين عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم، فوجب علينا الاقتداء به فهو قدوتنا العملية والصورة البهية، وأن نستقي من حياته كل جمال وأعلى الخصال، ونعلم من سيرته ماذا قدَّم وكيف صبر وتقدم، فمن سار على خطاه عليه السلام فقد أفلح وامتثل، وتعلم واعتبر، وعبدَ الله كما أراد الله، وبذلك يصلح قلبه وتعلو نفسه.

* معايشة الصالحين ممن قد سلف أو من حضر، أما من سلف فسيرتهم العطرة وأخبارهم بين الناس متناقلة لعلو أمرهم وجمال عملهم وحسن عبادتهم، فهم كالنجوم

يقتدى بهم وأولهم الصحابة المكرمين ثمَ من تبعهم من الخيرين، وأما من هو الآنَ بين أظهرنا فندعو لنا وله بالثبات ونستفد من عِلمهِ وحال أمره في إتباع منهج ربه، وإنَّ ذلك التعايش مع الصالحين بنفسهم أو مع صادِقِ أخبارهم ليعطي إقراراً وتمكين لقوة هذا الدين وعلو شأنه وجمال أمره وكثرة أعداد الصالحين ومن للحق متبعين، وكما أن رابطة الإسلام في الدنيا تجمعهم مع حب الدين فكذلك يجمعهم الله سبحانه في جنات النعيم.

* معايشة الآخرة وأحوالها وأن تكون تلك المعايشة دافعاً للامتثال بالمنهج واستعداداً داخلياً في التكيف مع رحلة المرور في الدنيا واعتبارها يقيناً أنها مؤقتة وإلى زوال، وان الاستقرار والوعد الحق يأتي بعد الاختبار، وان المقياس الأمثل والجزاء الأكمل هناك، والإيمان بأنَّ السعادة في الدنيا بالحق، وان في الآخرة السعادة الحق.

* معايشة أحوال الأمة والاندماج في عملية الإصلاح والتأثير لتحصيل الخيرية والتمكين وتبليغ الدعوة والاجتماع بالهمة على نصرة أهل الدين وتطبيق شريعة رب العالمين.

* هذا ومع كل ما سبق وأهميته واعتباره الدعائم المثلى للبقاء على الصلاح والامتثال بالإصلاح فتأخذُ الزيادة في اليقين وفي استشعار الإيمان والنعيم بالتقرب إلى الرب الرحيم بالطاعةِ والذكر والتعبد والصدقات، فالاقتراب من الله سبحانه بالطاعات من فروض ونوافل وبكل ما يحبه سبحانه من بر سببٌ أعلى في الوصول للمرتبة الأسمى في المعية والثبات وبابا من تحصيل الأجر ... فنسأل الله عز في علاه لنا ولكم الثبات حتى الممات والخيرَ في كل الأوقات.

***

في بابنا هذا رأينا أن نضع بين يدي القارئ بعضاً من الأفكار المغلوطة التي يرتبط فهمها لدى بعض الأفراد وتكون ذات انطباعٍ عندهم فيما اعتقدوا انه ارتباطٌ بين الشخصية المسلمة والإسلام كمنهج، وللأسف فهذه الأفكار لا تقترن بغير المسلمين فحسب فلو كان ذلك لقلنا عُزوفهم عن الإسلام والصورة المشوهة لديهم جعلت لديهم ذلك الانطباع، ولكن نراها موجودةً في تصورات الكثير من العوام من أهل الإسلام والتي اكتسبوها تناولاً مشوهاً أو استنتاجاً مغلوطاً لضعف القدرات العلمية وقلة الزاد من موارد الشريعة الغراء فهماً وإدراكاً وحكمةً، إضافةً لتلك النكت السوداء التي أصابت الأفهام والقلوب لتعرضها للشبهات والافتراءات المحيطة، والتي صاحبت قلة المناعة لديهم لتغييب المفهوم والحكمة الشرعية في التناول، وبناءً على ذلك أَخذت تلك الأفكار وغيرها حيزاً في ضوء ذلك الغياب، وان تلك الغيوم القاتمة من الأفكار إنما انقشاعها يكون بنور العلم والاقتراب من الدين وبِفَهمِ مراده وتذوق حكمته إيماناً وإدراكاً، وبذلك الاقتران بالمنبع الأصيل استقاءً تعبدياً وفهماً إيمانياً سترجع الصورة نقية واضحة تتناسب مع جمال الأصل ونقاءه ونظمه واتزانه.

ومع تعدادِ تلك الأفكار واختلاف تأثيرها وحِدَّتِها إلا أنها تجتمع كُلها من نفس المسبب وما هي إلا شوائبٌ وجب تنقية الفهم للتخلص منها، وليُعلَم أن الشخصية المسلمة هي انعكاسٌ لتطبيق المنهج الإسلامي وصورةٌ من الجمال عنه، وإن حدث خلل فما هو إلا لضعفٍ في التطبيق والامتثال، فالمنبع نقي كامل العطاء، وإنما قدرةُ ومثالية الأخذ هي المختلفة بين الآخذين.

ونذكر هنا بعض تلك الأفكار ليتضح بها المقال ولتستبين حقيقةُ تلك الأحوال:

* هل حياة المسلم مرتبطٍ بها الحزن والابتلاء؟

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩].

قال ﷺ: «أحبُ الأعمالِ إلى الله سرورٌ تدخله على مسلم» رواه الطبراني.

قال ﷺ «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كله خير إن أصابتهُ سراءٌ شكر فكان خيراً له، وان أصابته ضراءٌ صَبر فكان خيراً له» رواه مسلم.

لم يكن الإسلام يوماً دين حزن وشقاء وبحث عن ابتلاء، بل هو دين رحمةٍ وجمال ومقاصده وتشريعاته تريد السعادة للإنسان في دنياه وآخرته، والقول بأن الحزن ملازمٌ لأهله هو قول مغلوط، فالالتزام بالتعاليم والتوجيهات الإسلامية لا ينتج عنها إلا خير، والخير في حد ذاته من دلائله الطمأنينة والسعادة، وإنَّ الامتثال في الإسلام في حركةِ الحياة لموجدٌ للسعادة من ناحية الارتباط مع الأصل لعلو مكانته وللعلاقة الإيمانية، ومع النتائج في ذات المسلم ولمن حَوله، فالرحمةُ والعدل والسماحة والتكافل والرفق وغيرها كلها قِيَمٌ إسلامية مدعوٌ إليها وهي مسببةٌ للسعادة بما تم الاقتران بها سلوكاً وإعمالاً .

وهناك أمرٌ حق ولا ينكرهُ إلّا جاهل، وهو أنَّ في مشترك الحياة والتعايش بالنسبةِ للجميع مسلماً كان أو غير ذلك إلّا ويتعرض فيه الإنسان لحالات من الحزن والابتلاء، فهل كان الحزنُ محصوراً على المسلم؟ فإن قيل نعم فهذا كَذبٌ مفترى، والدليل ظاهرٌ على الكاذب قبل الصادق ويُعرف من أحواله.

ولا بد أن نشير إلى الفرق فيما بيننا وبين غيرنا من ناحية التعامل مع الحزن والابتلاء وذلك بأنَّنا نتناول أمرَ الابتلاء بالصبر، لإيماننا بالقضاء والقدر وان الله سبحانه وتعالى يكافئنا على ذلك الرضا منا بالرضا منه سبحانه، ويكون ذلك بعد وقوع الأمر وليس استجلابا له فاستجلابه مخالفٌ لنظرة وأمر الإسلام، ولذلك ما يصيب المسلم من حالةِ الحزن تنقلب إلى حالةٍ من الرضا التعبدي وحالةً إيمانيةً قلبية بالرجاء والدعاء.

* هل الشخصية المسلمة تتميز بالغلظة والقسوة في التعامل؟

قال تعالى: ﴿وَمَا أرسَلنك إِلَّا رَحمَةً لِّلعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلقَلبِ لانفَضُّوا مِن حَولِكَ﴾ [ال عمران: ١٥٩].

قال ﷺ: «إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلّا زانه ولا ينزع من شيء إلّا شانه» رواه مسلم.

قال ﷺ: «حَرُم على النار كل هين ليِّن سهل قريب من الناس» صحيح الجامع.

قال ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا» صحيح الجامع.

إنَّ هذا الدين دينُ الرحمةِ والجمال في كل أمر، وهذا ظاهرٌ واضحٌ في أصله وفي توجيهاته وهذا مما لا ينكره عاقل، فإنَّ الله سبحانه ليعطي على الرفق ما لا يعطي على سواه، ومن أسماءِهِ جلَ في علاه الرحمن الرحيم، وان سيرةَ نبينا العطرة عليه الصلاةُ وأزكى التسليم مليئةٌ بالشواهد على الرحمةِ ولين الجانب والحثِ عليها، وهذا هو دأبُ كل متبع للإسلام بحق، فهو رحيمٌ بنفسه بأتباع الحق، رحيمٌ بغيره بدعوتهم للحق وبطريقةِ تعامله معهم، فالرحمةُ ولين الجانب هي جانب أصيل في شخصيةِ المسلم لأنها سلوك تعبدي وامتثالٌ عملي لفهم المقاصد والتكريم الإنساني، وليُعَلَم أن الخروجَ عن القوامة في السلوك من بعض الأفراد فهذا عائدٌ عليهم لافتقارٍ عندهم لمضمون الحُسن والرحمة والجمال، والواجبُ هوَ التوطين على إعمال الرحمة والرفق في كل حال، فالجمال يكمله كل جمال من رحمةٍ وإحسان.

* هل طلبُ الرزق والغنى يتعارض مع الدين؟

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

قال ﷺ: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يُعفه الله ومن يستغن يُغنه الله» رواه البخاري.

إن الإسلام لا يتعارض معه كونُ الفرد فقيراً أو غنياً، فالقياسُ في الإسلام هو بميزان التقوى وليس بمقياس المادة، وكونُ الإنسان باحثاً عن رزقه موسعاً على نفسه لأمرٌ محمود ومأجور عليه في الإسلام، لأنه يؤدي فيه الحقوق والواجبات التي عليه، وإن الإسلام لكريمٌ في ذاته مُكرمٌ لغيره وذلك مدلولٌ عليه ومُبيَّن فيما تُكُلِّم فيه وأُخبر عن الأجر والخيرية المترتبة على الإنفاق والتكافل وعفة النفس والصدقات، وهذا لا يَتأتى ما لم يكن الإنسان مالكاً لما يقدمه، فيُفهم من ذلك أنَّ الغنى المصاحب للتقوى لا شُبهَةَ في تحصيله، وهو خيرٌ لصاحبه ولمن يصل إليه ممن يحتاجه، ولنا دليلٌ معروف في السيرة بكون عددٍ من العشرة المبشرين بالجنة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا أغنياء جداً بمقياس هذا الزمان فهل منعهم إسلامهم أو درجة إيمانهم من طلب الرزق وهل غناهم قلل من قدرهم ، وصدق رسولنا الكريم ﷺ اذ قال فيما رواه الإمام أحمد: «نعمَ المال الصالح للرجل الصالح».

إذا فالقول بتعارض الإيمان مع الدنيا امتلاكاً وغنى هو قول مغلوط.

* هل جمال الهيئة الخارجية وقوة الشخصية لها ارتباطٌ بالدين؟

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١].

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير» جزء من حديث رواه مسلم.

إنَّ التميز الشكلي والقوة في الشخصية مقترن بجمال هذا الدين تطبيقاً وحالاً وذلك لأن كمال المصدر وعلو شأنه دافعٌ في إعطاء جمال الشكل وقوة الذات لما يتحصل من ذلك الارتباط بينهما، فمن الناحية الشكلية فنظرة الإسلام للجمال تتعالى مع الأخذ بتعاليم الشريعة والتوافق مع سنن الفطرة، وإن باب التهذيب في التعاطي مع ما أختص بهذا الشأن في هيئة وشكل الإنسان بالغٌ في الحسن لأنه ارتقى بالإنسان ارتقاءً يتناسب مع مقامه في التكريم وعلو درجته ومميزاً له عمن لم يملك معطيات التكريم والاستخلاف كالحيوانات.

والناظر لجماليات الإسلام في الطهارة واللباس والاعتناء بالنفس ليعلم صحة ما نقول ويؤكد عليه، وليست القيمةُ فيما يَتكلفه الإنسان في الظاهر هي المقصود بل هو التقوى والعفة... وأمّا من ناحية القوة في الشخصية فالإسلام حثٌ كله وذلك ظاهر على أَتْباعه فاستمداد القوة في الطرح أو الإبداء مع وجود التوازن السوي والتفاعل المتكامل مع الغير لنابعٌ من ذلك الأصل الذي يجمع في أمره الطرح الكامل والخلو من الشوائب، وأيضاً فلينبه انهُ لمرفوضٌ في الإسلام أن يكون الإنسان إمعةً ضعيفاً مستسلماً لغيره أو منقاداً له، بل الأصل أن يكون في الصدارة بما ملك من معطيات تؤهله لذلك وتثبته عليها، وان تلك الخيرية التي لازمت الأمة الإسلامية بنص كلام الله سبحانه وتعالى لشاهد على ذلك فحمل رسالةِ الحق للعالمين وتبليغها لا تتناسب إلا مع من ملك المؤهلات لذلك.

***

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: ٨].

العز هو ضد الذل وهو علو القدر.

والمفهوم الإسلامي للعزة مرتبطة بإتباع الدين، وهي العلو والارتقاء بالنفس وقيمتها وترك الدونية من الأمور، وإنما تُحَصَّلُ العزة بالارتباط بالله العزيز الرحيم وطاعة أمره وإتباع منهجه، ونرى حصيلتها بسمو وارتقاء للنفس وبالخيرية في السلوك.

إنَّ الإسلام دين الله الذي ارتضاه لخلقه وهو الدين الكامل وهو رسالة الحق للناس أجمعين، جمع الكمال كله فلا نقصٌ يعتريه ولا عيب فيه، وجمع بين دفتيه كل شيء صلاحُ الدنيا وفوز الآخرة، وحمل في نفسه صفات الارتقاء والجمال، فأحكامه وتشريعاته جمعت الكمال والجمال والجلال كيف لا وهي أمر الله وشرعه وفيها تجد هديه، فمن اتبعه وسلك نهجه كان على الصواب وحمل في نفسه صفات ذلك الدين فرأى في سلوكه ما فيه الخير لنفسه ولغيره وأحس بالعلو والعزة لارتباطه روحاً وجسداً بالخالق سبحانه وتعالى فكان بجوارحه وأعماله أداةً للخير ودالاً للخير متحركاً في الحياة بنور الهداية مستشعراً لعظمة الله ومنفذاً لأوامره، فأصبح بذلكَ جزءاً من الخيرية والرسالة التي أُمر بتنفيذها مقبلاً بعلو نفس وحالةً من الاعتزاز لأنه في دائرة الجمال والكمال وفي دائرة الطاعة، واقتبس من ذلك كله نوراً و علو سمو لسمو الهدف الصادر عن المشرع العزيز الحكيم، وفي جانبه الروحي أيقنت روحه أنها في عليين وفي مقام محمود لذلك الشعور المصاحب للحق وأداء الدور المقصود من أصل الخلقة والوجود ، فكان الجسد وعاءً للروح شاعراً بنورها ومتحركاً في الطاعة وكانت الروح في استقرار وطمأنينة فشكل ذلك كله إنساناً وكياناً صافي القلب مطمئن النفس هادئ الروح، متيقن التصديق، متزن العقل .

ان العز بالإسلام هو العز الكريم الذي لا وهم فيه ولا اضطراب، وهو عزٌ يصاحبهُ علو يُحس به المسلم في روحه ويجده في كل أمره، فتلك الكرامة وذلك الشعور يبقى ملازماً له في أمره ما دام ملازماً للحق ومن أهله.

وان البعض ليعتقد انه يرى من هم على طريقٍ جانبوا فيه الصواب وخالفوا مراد الله أَنهم قد يملكون ذلك الشعور بالعز بل وقد يتعالون به، فهم بما هم عليه من أصل وشعور على باطل، وشعورهم ذاك ليس حقيقةً بل وهمٌ أحاط بهم وهالةٌ كاذبة أوجدتها نفسٌ أمارة بالسوء وشيطانٌ غالبٌ وهوى مخالف ويكون الاضطراب والشك ملازماً لتلك الحالة، وذلك لضعف الأسس ومخالفة المراد الحقيقي، والارتباط بالدونية من الأمور من شهوة أو منفعة أو حتى عناد.

ونهايةً فالإسلام دين العز والكرامة ومَنبعُه، وإنَّهُ ليأبى من أتباعه أن يكونوا على ذلةٍ أو هوان، فهم على الحق، وإنَّ ارتباط المسلمين بإخوانهم في أُمَّةٍ كانت هي خير الأمم التي أُخرجت للناس للأحرى بهم أن يفخروا بدينهم ويعتزوا بحالهم.

***

الباب السادس والتسعون خصائص أمة الإسلام وبعض فضائلها

أُمةُ الإسلام هي أُمة محمد عليه السلام، وكفى مجداً وتشريفاً الانتساب إليها، ففي الدنيا هي الأمة المنصورة وفي الآخرة هي الفاضلة وغيرها المفضولة، وهيَ آخر الأُمم في الدنيا وجوداً وفي الآخرة أولها للجنة دخولاً، بها يبدأ الحساب رحمة من رب العالمين بشفاعةٍ من النبي الأميِّ الأمين، الانتساب إليها فوز وهي للخيرية رمز، أمةٌ كريمة وخصائصها عظيمة، وكفى شاهداً لها خالقها فهو مزكيها وبرسالة الإسلام مصطفيها ، عملُ من كان منها عند الله سبحانه يُضاعف وذكرهم في كتابه مضاعف، جعل الله لهم التمكين وإمامُهُم سيد المرسلين خيرُ الأولين والآخرين، فالحمد لله أن جعلنا من أهل الإسلام ومن أُمَّته عليه السلام وأن جعل الانتسابَ ليس باللون أو المقدرات أو باللغة والقرابات، بل بالتقوى والقُربات، والامتثال والطاعات.

ونذكر هنا فيضاً من غيض وجمالاً من جمالات خصائص هذه الأُمَّة ليعرف القاصي والداني أَنَّه إن كان من المسلمين فهو في خيرٍ عظيم، وأَنَّ لهُ قدم تمكين، وفي الآخرة هو من الفائزين، وان كان غير ذلك فهو مقطوع النسب وأنه على الله مهين وكان بما أعرض من الجاهلين وفي الآخرة هو من الخاسرين.

ومن بعض خصائص الأمة المحمدية ما يلي:

* اختصاصها بالخيرية وأنَّ الخيرية فيها جزء عمليٌ وحي وصفةٌ ملازمةٌ لا تنقطع أبدا، ومن ذلك أنَّ أفرادها للمعروف آمرين، وللمنكر ناهين، وللحق مرشدين، وهم في النبوة لكرامةٍ لهم في الدعوةِ للدين لمشتركين، ولا بني أو رسالة بعد الرسول الأمين عليه الصلاة وأتم التسليم.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

* من خصائصهم أنهم آخرُ الأمم وجوداً لكنهم أعظم الأمم قدراً، ومن ذلك أَنهم شهودٌ على من كان قبلهم وهذه ميزه محمودة ومرتبةٌ في الشهادة عالية وذلك بان

يشهدوا على غيرهم بأمْرِ ربهم كما عَلِموا من القرآن وسمعوا من نبي الرحمن، فبذلك صَدَّقوا وصَدَقوا.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

* اختصت بأَنها لا تُجْمِعُ على مُنْكَر ولا تجتمع على ضلالة، فالخيرية والإيمان متأصل فيها ومؤثر في العموم وتجده أينما وَجهت في جوانبها وأفرادها ومعاملاتها.

قال ﷺ: «لا يجمع الله أُمتي على ضلالةٍ أبداً ويد الله مع الجماعة» رواه الحاكم.

* ومن خصائصها علو المكانة فهم الآخرون الأولون آخرُ الأمم على الأرض وأَوَلُهم وأكثرهم دخولاً إلى الجنة.

قال ﷺ: «نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأُمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون» رواه ابن ماجة.

* ومن خصائص هذه الأمة المُكَّرمة غاية التكريم من رب كريم، أمور لم تكن لمن كان قبلهم من الأمم في الدنيا وأحوالها ومن ذلك أن جُعلت الأرض لهم مسجداً وطَهوراً، وأن التيمم رخصةٌ عند فَقْدِ الماء أو الحاجة، وكانت لهم صلاة العتمة أي العشاء، وأحلت لهم الغنائم، وضوعفت لهم الأجور والحسنات، وتعددت فيهم الشهادات فلا تقتصر على الشهادة في القتال بل أكثر من ذلك كالمبطون والغريق ومن قُتل ظلماً وغيره، وإنَّ هناكَ يومٌ لهم أُختصوا به وهو يوم الجمعة فترى فيه اجتماعهم وتُحِسُ فيه امتثالهم، وعندهم السلام والتأمين وهو قول آمين كاشتراكٍ في الدعاء والرجاء، ومن أمرهم أيضاً أن منعَ الله عنهم الهلاك العام أو الذهاب بالكلية وهذا أمرٌ فيه حفظٌ ولهم فيه سَميه فلا ينقطع ذكرهم ولا يتوقف أجرهم فأمرهم كريم وأجرهم عظيم دعوتهم باقية حتى يأتي أمر الله بقيام الساعة، وأيضاً ما جعل الله من مجددين كُلَّ حين وهذا من أمر الحفظ ومن التمكين فتبارك الله رب العالمين.

قال ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره» رواه الترمذي.

قال ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً فأيما رجلٌ من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» رواه البخاري.

قال ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم» رواه البخاري.

قال ﷺ: «اعتموا بهذه الصلاة فإنكم قد فُضلتم بها على سائر الأمم ولم تُصلِّها أمة قبلكم» رواه أبو داود.

قال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد» رواه البخاري.

قال ﷺ: «ما حَسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين» رواه ابن ماجه.

ومما رأينا من جمال الحال وبعض مما تناوله هذا المقال أن هذا علوٌ في الكرامة ودليلٌ على حظوةٍ وسلامة، ومن كان من المهتدين ومن أُمة النبي الأمين فهو في الأُمم في عليين وعلى خيرٍ مبين ويكون انتسابهُ للأُمة بما كان من تقوى وامتثالٍ بالدين كما أراد رب العالمين ومتبعاً لسيد المرسلين، فهنيئاً هذا الاصطفاء وهذا التقويم لأُمةٍ آمنت وصَدَّقت، وعَلمت فَعَملت، لم ترى نبيها إلّا من كان من الأوائل لكنها إتَّبَعتهُ وسارت على خطاه كما أراد الله عز في علاه، فالحمد الله ثم الحمد لله أن هدانا وكنا مسلمين، وأَنَّ لا إله إلا الله محمد رسول الله شعارنا في الدنيا ويوم الدين، وإِن شاء الله على حوض نبيه الذي خُصَّ لأُمته في الآخرة مجتمعين.

***

* ليس هناك دين على وجه الكرة الأرضية يصح أن يُتَّبع سوى الإسلام، لأنَّه دين الله وشرعه الذي ارتضاه لعباده ولم ينل ذلك الدين الكريم أيُّ تحريف أو تعديل وهو الدينُ الخاتم والدين المبين.

* لا يوجد كتاب على وجه الخليقة إلا ويعتذر كاتبه عن نقص ورد فيه أو عزوٌ لغيره، إلا كتاب الله وهو القرآن العظيم فبدأ به سبحانه بقوله ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ فهل بعد هذا كمال.

* لا توجد حضارة منذ فجر تاريخ الإنسان إلا غابت شمسها بعد إشراقها إلا شمس الإسلام فشمسه لا تغيب.

* لا تجد ضبطاً في أي تشريع كما في الإسلام فالناقل والمتبع أُمة عن أمة، وجيلٌ عن جيل، كلهم صانوا وحفظوا ما لديهم وأوصلوه كما وصلهم من المورد الأول وهذا حفظٌ وراءهُ عنايةٌ أعلى من قدرة البشر.

* لا يجد الإنسان سعادته في حال حياته واستقراره بما أخفي عليه من عالم الغيب إلّا في الإسلام.

* ليسَ الإسلام منفعةً للمشرع فمعاذ الله أن يزيدَ في مُلكه أو ينقص من ملكه شيء بما يفعل عباده، ولكن الخير والنفع لهم فهم إلى الله محتاجون ومن رحمته ورزقه يستمطرون.

* إنك لا تجد فكراً أو جهداً بشرياً يصلح لكن زمان ومكان، ولكنَّ الإسلام هو صالح ومصلحٌ لكل زمان ومكان، وكيف لا وهو شريعة الرحمن.

* لا يوجد دين أو قانون وضع الإنسان في منزلةٍ معتبرةٍ ومحفوظة مثلما فعل الإسلام فقد أكرمهُ وحفظ حياتهُ ومالهُ وصان عرضه واحترم عقله ورفع قدره.

* لا يوجد تنظيم أو أحكام أو تشريعات بشرية إلا ولها أعراض سلبية وارتدادات متفاوتة تُنقص من المثالية وتوجد جوانباً من التعارض، ولا تجد الأمثل والأكمل إلا في الشريعة الإسلامية.

* لا تجد الروح غايتها ولا القلوب حنيتها ولا العقول مداركها ولا الجوارح رقيها وعصمتها إلا بفهم وتعاليم وأحكام الإسلام.

* لا يوجد منهج راعى الإنسان قبل ولادته، وفي حياته، وحتى بعد موته بإكرامه، وفي حال غناه وفقره، وفي قوته وضعفه، وفي صحته ومرضه، وفي شبابه وكبره، وفي نفسه وأهله ومع غيره، مثلما فعلَ الإسلام فقد راعى كل شيء في أحكامه وتشريعاته بما يُوجد ويؤمن انتظام حركة حياته وتيسير أمره.

* الإسلام هو الوحيد الذي جعل الجميع مشتركين في علاقةِ قرابةٍ إيمانية ومحبةٍ أَخوية، وشبهَ حالهم بالجسد الواحد يتأثر الفرد بحال أخيه، وبيَّن أنَّ الإيمان لا يكتمل حتى يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه.

* كل شيءٍ قد يوقعك في حيرةٍ بالتدريج في الأفضلية في الاختيار إلا الإسلام فقد وضعك على طريق الكمال وعلو الخيرية ومثالية التحصيل.

* لا يوجد عداء اجتمعت أطياف الشر متحدة عليه كما عودي الإسلام وهذا دليل على ان الشر والخير لا يجتمعان، وهو دليل على صحة الإسلام فلو كان بناءه ضعيفاً لتهدم من كثرة طرق المرجفين وشُبهاتِ الهالكين.

***

* قد يعتقد الإنسان بشيء ويؤمن به ومتى كان على غير هدي الإسلام وما أخبرَ عنه الرحمن فلا يُعتد به.

* الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

* الإيمان درجات وكلما ارتقيت بإيمانك كلما استشعرت العبادة وتقربت إلى ربك.

* من فَقدَ الإيمان أصبح كصخرةٍ ملقاة على شاطئ الدنيا تلاطمها الأهواء والأمواج.

* إن نور الإيمان ظاهر على أصحابه.

* إن الإيمان نور المؤمن يزيد بالطاعات ويخفت بالمعاصي، فلذلك من رحمة الله أن جعل المؤمن في دائرة العبادة على مدار حياته، فصلاته كل يوم، وصيامه وزكاته وأعمال البر والإحسان والصدقة والذكر والاستغفار كلها وغيرها تبقيه في دائرة الإيمان ورضا الرحمن.

* إذا أردت ان تُكلم ربك سبحانه وتعالى أو أن تبث له شكواك أو تطلب حاجتك فما عليك إلا الدعاء، فربنا سبحانه وتعالى ليس له باب فيغلق ولا بَوابٌ يمنع، فهو قريب من عباده.

* إذا أردت أن تسمع كلام الله فأقرأ وأنظر في كتابه الكريم وهو القرآن العظيم، فيعلو إيمانك، ويزداد أجرك، ويطمئن قلبك.

* إن دمعةً من عينِ مؤمنٍ تائب لتُطفئ نيراناً أشعلتها الذنوب، وإنَّ دمعةً من عينٍ بكت من خشية الله لتحفظ صاحبها من النار.

* إن المؤمن ليستشعر جنته في الدنيا قبل الآخرة.

* إن كمالَ الله سبحانه وتعالى ليبلغ المنتهى، ومن عظم وعلو ذلك فلا عقل أو إدراك يستوعب ذلك الجلال والكمال.

* إن المؤمن في معيةِ الله ومن كان في معية الله فلا حُزن عليه.

* إن الإيمان والاستقامة رحمة من الله تعالى وكَرامة، وذلكم الإيمان لا يستقرُ في القلوب القاسية البعيدة عن ربها.

* إن الله عز وجل ترك باب التوبة مفتوحاً لعباده ليتوب عليهم ويرحمهم، فكيف رحمته سبحانه بعباده المؤمنين وهم لأمره مقتدين وعلى هدي الإسلام سائرين.

* كل عمل يؤديه الإنسان يُشعرهُ بالتعب ولو بعد حين، إلا عمل العبادة والتقرب إلى الله سبحانه فهو يحلق بصاحبه في سماء الإيمان، ونشاط الأبدان للزيادة من رضا الرحمن.

* شجرة الإيمان لا تنبت إلا في القلوب التقية والطيبة النقية وجذورها تستقي مما يرضي ربها، وثمارها رضا الرحمن والفوز بالجنان.

* كن صادقا مع الخالق سبحانه تكسب رضاه وتكن من عباده المؤمنين وكن صادقا مع نفسك تكسبها وتجد راحتك.

* كل إنسان إن طُلب منه شيء قد يستاء، أما ربك فيَطلبُ منك أن تَطلب منه، وطلبك من المخلوق قد يحمل شيئاً من معاني الذل، وطلبك من الخالق يشعرك بالعز والعبودية له سبحانه.

* في حال الدنيا يأخذ الرئيس خير المرؤوس وفي حال العبودية لله عزَّ وجل يتحصل العبد عل خير الله ورضاه.

* كل أمر تَخافه إلا وتفر عنه وتبتعد، إلا خوفك من الله سبحانه يقربك منه، وذلك هو الإيمان، وذلك هو الأمان.

***

الباب التاسع والتسعون خواطر إنسانية

* الإنسانية هي مجموع التعايش البشري وفق جماليات السلوك والشعور بالآخر.

* الإنسان في الإسلام بلغ أعلى مراتب التكريم.

* لم يكن الإنسان حائراً في ظل أحكام وفهم الإسلام بل أوصله الدين إلى شاطئ الأمان واتزان الوجدان.

* مهما كان بناء الإنسانية على قدر من الجمال وعلو المكان إن لم يكن مبنياً على قواعد الإيمان وشريعة الرحمن فلا يصلح للدار الآخرة.

* لا تجد الكمال البشري في الإنسان إلا في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمال رحمته وكمال إنسانيته التي يحق لها أن تكون قدوة للبشرية.

* إنَّ الإنسانية أن تُسعد الآخرين فتسعَد بذلك، ومن أجمل السعادة تلك البسمة التي تجعلها على وجوه الآخرين.

* الإنسانية درجات وكلما ارتقى الإنسان فيها درجة كلما أصبحت الحياة عنده ولغيره أجمل.

* في الدنيا السعادةُ بالحق، وفي الآخرة السعادة الحق.

* الكل متشابهون في دائرة الحياة لكن ليس الكل يترك عندك نفس الانطباع. فهم في أمرهم وإنسانيتهم يتفاوتون وكذلك أنت.

* أنك لا ترى المؤمن الحق والمتمثل بالمنهج والقيم الإسلامية إلا وترى مع علوه الإيماني عُلواً إنسانياً.

* جميلةٌ تلك الإنسانية التي توجه صاحبها إلى الخير ومحبة الآخرين، والأجمل منها ذلك الدين الذي زرع كل خصال الخير والبر في الإنسانية فأنبتَ سلوكاً راقياً وأثمرَ أُخوةً عالمية.

* إنك لتعرف معنى الإنسانية في معترك الحياة أكثر مما تجده في عبرات الآخرين.

* على قدر ما تحمل من جمال الإنسانية في نفسك ترى أثرها في محبة الآخرين لك.

❋ إنسانيتك هي مرآة نفسك مع الآخرين.

❋ إنسانيتك هي مشترك بين إيمانك وقلبك وجوارحك فأنظر رصيدك من كل ذلك.

❋ الإنسانية أوسع من علاقة الإنسان بالإنسان فهي تمتد لكل مكان وزمان، وحتى بإحسانك للحيوان فالجميلُ في نفسه جميلٌ مع كل شيءٍ حوله.

❋ جميل ذلك الرقي الذي يجمع الأمر من كل أطرافه، وجميلةٌ تلك الإنسانية الراقية التي لا يشوبها عارض فترى بقلبك جمال الحياة وجمال الإنسانية.

❋ إن لم تكن المبادئ أَعلى من المصالح لديك فاعلم أَنكَ فقدتَ مع إنسانيتك الكثير.

❋ ما قيمة الدمعة التي تلألأت من السعادة من جمال إِنسانيك وتوجيه إيمانك.

❋ إنَّ الله سبحانه قد غفر لمن رحم كلباً فسقاه، فكيف لو أبدلنا الكافَ قافاً.

❋ جميلة تلك الإنسانية التي ترفع من قدرك وتُبرزُ أَخلاقك وتسمو بنفسك وأَتمها إِنسانيةً مُلئت بالإيمان فتوجهت بصاحبها لرضا الرحمن.

❋❋❋

الباب المائة....

هذا لك أخي القارئ فأملئهُ وأملئ به صحيفتك ليزداد رصيدك عند ربك.....

.

.

.

.

.

.

.

والحمد لله رب العالمين

أتمهُ الراجي رحمةَ ربه والفقيرُ إليه المتوكلُ عليه

أبو إسلام

محمد بن فوزي الجبالي

الأحد ٨ آذار ٢٠٢٠

الموافق ١٣ رجب ١٤٤١

Qmmmq2002@gmail.com

****

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٦
تمهيد	٨
١-المُشرِّع هو الله سبحانه وتعالى	١١
٢-المبلِّغ هو رسولُ الله محمد صلى الله عليه وسلم	١٣
٣-الإسلام ومفهومه للدين	١٦
٤-الإسلام والقران الكريم	١٩
٥-الإسلام والسُنَّة النبوية	٢١
٦-الإسلام والتوحيد	٢٣
٧-مفهوم الإيمان في الإسلام	٢٥
٨-ما هي الحقيقة أيها المخلوق	٢٨
٩-الإسلام ودلائل الحق	٣١
١٠- لماذا خَلَقَنا اللهُ سبحانه وتعالى	٣٥
١١- الإسلام والفِطرة	٣٧
١٢- الإسلام والضروريات الخمس	٣٩
١٣- الإسلام والصلاة	٤٥
١٤- الإسلام والزكاة	٤٧
١٥- الإسلام والصيام	٤٩
١٦- الإسلام والحج	٥١
١٧- الإسلام والعلم	٥٣

١٨- الإسلام والعقل	٥٦
١٩- الإسلام ومفهوم الحلال والحرام	٥٨
٢٠- الإسلام ونظام العقوبات	٦٠
٢١- الإسلام ووجود الاختلاف الفقهي فيه	٦٢
٢٢- الإسلام وشمولية المنهج	٦٥
٢٣- حكمة اختيار العرب مهداً للرسالة	٦٧
٢٤- اللغة العربية	٧١
٢٥- الإسلام والحياة	٧٤
٢٦- الإسلام ومفهومه للموت	٧٦
٢٧- الإيمان بالغيب	٧٨
٢٨- الإسلام والحساب (يوم القيامة)	٨٠
٢٩- مفهوم الجهاد في الإسلام	٨٢
٣٠- الشخصية الإسلامية	٨٤
٣١- الإسلام والرِّفق	٨٨
٣٢- الإسلام والأُسرة	٩٠
٣٣- العلاقات والنسب في الإسلام	٩٣
٣٤- الإسلام والميراث	٩٥
٣٥- الإسلام والمرأة	٩٧
٣٦- الإسلام وحقوق الزوجة ومعاملتها	١٠٠
٣٧- الإسلام وتعدد الزوجات	١٠٢
٣٨- الإسلام واللباس	١٠٤
٣٩- الإسلام وبر الوالدين	١٠٦
٤٠- الإسلام ونظرته للإنسان	١٠٨

٤١- الإسلام والتكافل الاجتماعي	١١٠
٤٢- الإسلام وحقوق الإنسان	١١٢
٤٣- الإسلام وكرامة الإنسان	١١٥
٤٤- الإسلام ونظرته إلى الطبقية	١١٧
٤٥- الرفق بالحيوان	١٢٠
٤٦- الإسلام وتحقيق الصحة النفسية	١٢٢
٤٧- مفهوم الحب في الإسلام	١٢٦
٤٨- الإسلام والسعادة	١٢٨
٤٩- مفهوم الجمال في الإسلام	١٣١
٥٠- الإسلام والحث على حسن الأخلاق	١٣٣
٥١- الإسلام ومفهوم الروح	١٣٥
٥٢- الإسلام والأمن	١٣٨
٥٣- الإسلام ونظرته إلى الظلم	١٤٠
٥٤- الإسلام ومنع الربا	١٤٣
٥٥- الإسلام والحكمة من التوبة	١٤٥
٥٦- الإسلام والصدق	١٤٧
٥٧- الإسلام والقِيَّم	١٤٩
٥٨- مفهوم الحرية في الإسلام	١٥٢
٥٩- الإسلام والصبر	١٥٦
٦٠- الإسلام والرزق	١٥٨
٦١- الصدقات في الإسلام	١٦٠
٦٢- الإسلام والرقابة الذاتية	١٦٣
٦٣- الإسلام وإقامة الحُجَّة بالعِلم عنه وبتبليغ الرسالة	١٦٥

٦٤- الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٦٧
٦٥- الإسلام والدعوة الإسلامية (الدعوة إلى الله)	١٧١
٦٦- الإسلام ورموزه من الأخيار	١٧٤
٦٧- أهل الذمة	١٧٧
٦٨- الرِّق والعبودية الحديثة	١٨٠
٦٩- الإسلام وموقفه من الخصومة	١٨٣
٧٠- الإسلام وسبب العداء القديم له	١٨٥
٧١- الإسلام وسبب العداء الحديث له	١٨٨
٧٢- سبب اختلاق الشبهات على الإسلام	١٩١
٧٣- الإسلام كيف يريده أعداءه	١٩٥
٧٤- الإسلام ومعاول الهدم الداخلي	١٩٩
٧٥- لماذا يحيد أكثر الناس عن الحق	٢٠٣
٧٦- الإسلام واختلاق مفهوم الإسلاموفوبيا	٢٠٦
٧٧- الإسلام وكذبة ربطه بالإرهاب	٢١٠
٧٨- الإسلام وتعرضه للغزو الفكري	٢١٤
٧٩- نظرة الإسلام إلى الإعلام	٢١٨
٨٠- الغزو الديني على الإسلام	٢٢١
٨١- الإسلام والاستشراق	٢٢٤
٨٢- الإسلام والحداثيون	٢٢٨
٨٣- العقلانيون	٢٣١
٨٤- الإسلام والعلمانية	٢٣٥
٨٥- الملاحدة	٢٣٩
٨٦- الإسلام وحالُ بعض المسلمين اليوم	٢٤٣

٨٧- الإسلام وشعورُ المسلمين بالغربة ٢٤٦
٨٨- الإسلام وحالهُ في المستقبل ٢٤٩
٨٩- الإسلام هل يمرض ولا يموت ٢٥٥
٩٠- كلمات منصفة في حق الإسلام من غير المسلمين ٢٥٧
٩١- الإسلام وأيادي البناء ٢٦٣
٩٢- الإسلام طريق المعافاة ٢٦٧
٩٣- كيف تبقى صالحا في مجتمع غير صالح ٢٧٠
٩٤- تصحيح بعض الأفكار المغلوطة عن حياة المسلم في ظل الإسلام ٢٧٤
❋
٩٥- الإسلام والعزة بالدين ٢٧٩
٩٦- خصائص أُمة الإسلام وبعض فضائلها ٢٨١
٩٧- خواطر إسلامية ٢٨٤
٩٨- خواطر إيمانية ٢٨٦
٩٩- خواطر إنسانية ٢٨٨
١٠٠-بابُ الأَجرِ للقارئ ٢٩٠
الفهرس ٢٩١

❋❋❋❋